

الفصل التاسع والعشرون

توحيد روسيا

١٣٠٠ - ١٥٨٤

١ - الشعب

في سنة ١٣٠٠ لم يكن لروسيا وجود . وكان معظم القسم الشمالى يتبع ثلاث مدن دولة تحكم نفسها بنفسها ، وهى نوفجورد Novgorod ، فيانكا Viatka ، بسكوف Pskov . وكانت المقاطعات الغربية والجنوبية خاضعة لنتوانيا . أما فى الشرق فإن إمارات موسكو وريازان وسوزدال ونجنى لفجورد وتفر Tver ، ادعت كل منها لنفسها حق السيادة ، ولم يربطها بعضها ببعض إلا اشتراكها فى الخضوع « للقبيلة الذهبية » .

وقد اتخذت « القبيلة الذهبية Golden Horde » هذه التسمية من اللفظة التركية أوردو Ordu ومعناها « الخيم » ، أما وصفها « بالذهبية » فيرجع إلى الخيمة ذات القبة ، والى كانت موشاة بغطاء من الذهب ، وكانت مقر قيادة « باتو الرائع » حفيد جانكيزخان : وبعد أن تم هؤولاء الآسيويين الغزاة فتح جنوب روسيا وغرب آسيا ، شيدوا عاصمتهم فى « سراى Sarai » على أحد فروع نهر الفولجا الأدنى ، وهناك تفاضوا جزية سنوية من الأمراء الروس . وكانت « القبيلة » موزعة بين الزراعة والرعى المتنقل . وكانت الأسرات الحاكمة من المغول ، أما بقية السكان فكان معظمهم من الأتراك . وقد أطلق على القبيلة اسم « تاتار » نسبة إلى قبائل « تاتا Ta-ta » من صحراء

جوبى ، وهى قبائل بدأت فى القرن التاسع للزحف المغولى نحو الغرب . وكانت النتائج الأساسية التى ترتبت على طول خضوع روسيا « للقبيلة » نتائج اجتماعية : وهى استبداد أدواق موسكو ، وولاء الأهالى ولاء ذليلاً لأمرائهم ، والمركز الوضع للمرأة فى المجتمع ، وتنظيم حكومة موسكو وفقاً لأساليب التتار من النواحى العسكرية والمالية والقضائية . وقد عاقت سيطرة التتار محاولة روسيا لمدة قرنين من الزمان أن تصبح دولة أوربية غربية .

وواجه الشعب الروسى أشق الظروف بعدم اكتراث رواقى صامت ، اللهم إلا أنهم فى غمرة آلامهم وأحزانهم ، وجدوا فى أنفسهم الشجاعة لممارسة الغناء . ونعتهم أعداؤهم بالخشونة والقسوة والحيانة والخبث والعنف (١) . ولا شك أن الكد والنصب ، وقسوة المناخ ، كل أولئك أكسبهم صلابة ، على أن ما تميزوا به من الصبر وروح المرح والمودة وكرم الضيافة ، كان فيه تعويض كبير لهم ، إلى حد أنهم مالوا إلى الاعتقاد بأنهم « أكثر إنسانية » ، وأنهم « ملح الأرض » (إشارة إلى ما جاء فى إنجيل متى : ٥ - ١٣) : لقد أدخلوا قسراً إلى المدنية بقوانين همجية وعتوبات رهيبة ، من ذلك — كما روى لنا — أن المرأة التى تقتل زوجها كانت تدفن حية حتى عنقها ، وأن السحرة والمشعوذين كانوا يحرقون أحياء فى قفص من حديد ، وأن مزيفى النقود كان يصب فى حلوقهم معدن مصهور (٢) . وكأى شعب يقاوم البرد كان الروس يدمنون المشروبات الروحية إلى حد فقدان الوعى أحياناً ، كما كانوا يضيفون إلى طعامهم التوابل التماساً للدفء . واستمتعوا بالحمام الساخن ، وكانوا يستحمون أكثر من معظم الأوربيين . وكان من أوامر الدين عندهم أن تخفى المرأة مفاتن جسمها وبشرها ، كما دمع الدين النساء بأنهن أولياء الشيطان ، ومع ذلك تساوين بالرجال أمام القانون ، وكثيراً ما شاركن فى تسليةهم أو فى الرقص ، وهو ما كان محرماً باعتباره خطيئة . وكانت الكنيسة الروسية تحض بشدة على مكارم الأخلاق ، وتحرم

عقد الزيجات واقترب الرجل من المرأة في أيام الصوم الكبير ، ومن ثم كانت صرامة الشريعة حائلا دون نزوع الشعب إلى الإفراط في الانغماس فيما يكاد أن يكون المسرة الوحيدة التي تركت له . وكان الوالدان هما اللذان يدبران شئون الزواج ، وكان يتم في سن مبكرة ، فكانت البنت في سن الثانية عشرة والولد في سن الرابعة عشرة يعتبران صالحين للزواج . وكانت مراسم العرس معتمدة تصحبها الأشياء الرمزية القديمة والأفراح التي كان مطلوبا من العروس في أثناءها أن تلزم الصمت الموسوم بالحياء ، ولسوف تعوض عن ذلك فيما بعد . وكان ينتظر منها أن تقدم إلى والدتها زوجها غداة العرس ما يثبت أنه بنى بعذراء . وكان الحريم يبقين في طابق أعلى بعيداً عن الرجال ، وكانت سلطة الرجل في الأسرة مطلقة مثلها في ذلك مثل سلطة القيصر في الدولة .

وسما الورع عند الروس بالفقر حتى جعل منه سبيلا إلى الجنة . وكان كل بيت مهما صغر أو كبر يضم غرفة مزدانة بالأيقونات أو الصور المقدسة ، بمثابة مكان للصلاة من حين لآخر . وكان الزائر الصالح يجي هذه الصور المقدسة قبل التسليم على أهل البيت . وكانت النساء الصالحات بحملين مسابح أينما ذهبن . وكانت الابتهالات تتلى بمثابة تعاويذ ورقى سحرية ، ومن ثم — كما يروى كتاب مشهور من القرن السادس عشر اسمه « كتاب الأسرة Domostroi » فإن ابتهالات معينة تكرر في اليوم ٦٠٠ مرة لمدة ثلاث سنوات ، قد تؤدي إلى تجسد الآب والابن والروح القدس في شخص المتضرع^(٣) . ومع ذلك كان هناك كثير من المظاهر الجميلة في هذه الديانة الممتلئة بالخرافات . فكان الناس في صبيحة يوم عيد الفصح يحيون بعضهم بعضاً بهذه الألفاظ البهيجة « المسيح قام » . وفي ظل هذا الأمل هان أمر الموت إلى حد ما . فإذا حانت منية الرجل الطيب الوقور سدد ديونه وأعنى المدينين له ، وأعتق واحداً أو أكثر من أرقائه ، ووزع

الصدقات على الفقراء والكنيسة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وكله أمل وثقة في الدار الآخرة .

وعملت الكنيسة الروسية على تقوية الورع عن طريق فن العمارة والرسوم الحائطية والأيقونات والعظات القوية وحفلات التنويم المغناطيسى ، والترانيم التى يشترك فى إنشادها عدد كبير من المرتلين ، والتى كانت تلبس وكأنها تخرج من أخفى أعماق النفس أو المعدة ، وكانت الكنيسة لساناً قوياً ناطقاً باسم الدولة ، وتثاب على الخدمات التى تؤديها فى تعليم الآداب والأخلاق وتقويم السلوك وتوطيد دعائم النظام الاجتماعى بأوفى مثوبة . وكانت الأديرة كثيرة ضخمة . من ذلك أن « دير الثالث الأقدس » الذى أسسه القديس سرجيوس فى سنة ١٣٣٥ ، كان قد جمع فى عام ١٦٠٠ من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح لزرعها . وفى مقابل ذلك وزعت الأديار الصدقات على الروس ، وكان بعضها يطعم ٤٠٠ شخص فى اليوم . وفى إحدى سنوات القحط كان دير فولوكولامسك Volokolamsk يطعم سبعة آلاف شخص يومياً . وكان الرهبان يقطعون على أنفسهم عهداً بالتزام العفة ، ولكن الكهنة كانوا يضطرون إلى الزواج . وكان معظم هؤلاء « الآباء » أميين ، ولكن الشعب لم يكن يعيب عليهم ذلك . وكان مطارنة موسكو فى معظم الأحوال أكثر أهل زمانهم كفاية ومقدرة وعلماً ، وكانوا يذلون ثرواتهم للحفاظ على الدولة ، ويوجهون الأمراء على طريق الوحدة الوطنية . وكان سانت ألكسيس هو الحاكم الفعلى روسيا طوال توليه منصبه (١٣٥٤ — ١٣٧٠) . إن الكنيسة الروسية بكل أخطائها التى ربما تكون قد فرضتها عليها مهامها — نقول إن هذه الكنيسة فى عصر التكوين والتشكيل هذا ، كانت بمثابة العامل الأبرز والأهم فى تدين الشعب الذى صبرته وحشياً مصاعب الحياة وضراوة طبيعة الإنسان ذاته .

وحين رفضت الكنيسة الروسية في ١٤٤٨ اندماج الكنيسة اليونانية مع الكاثوليكية الرومانية في مجلس فلورنسه ، أعلنت استقلالها عن البطريرك البيزنطي ، وبعد ذلك بسنوات خمس حين سقطت القسطنطينية في يد الأتراك ، أصبحت موسكو عاصمة المذهب الأرثوذكسي . وحوالي ١٥٠٥ كتب راهب متحمس إلى أمير عظيم في موسكو « اعلم الآن أن سلطان المسيحية بأسرها قد آل إليك ، لأن رومة الأولى ورومة الثانية (يقصد رومة والقسطنطينية) قد سقطتا ، أما الثالثة فهي صامدة ، ولن يكون هناك رابعة ، لأن إمبراطوريتك المسيحية سوف تدوم إلى الأبد » (٤) .

وكادت الكنيسة أن تكون النصير أو الراعي الوحيد للآداب والفنون : ومن ثم كانت هي التي توجهها . ولم تكن أجود الآداب مدونة . وكانت أغاني الشعب التي رددتها ألسنة الناس من جيل إلى جيل هي التي تنبع وتمجد قصص حبهيم أو أعراسهم أو أحزانهم أو فصولهم أو أعيادهم أو موتاهم ، وكان هناك أناشيد مألوفة لقديسين مرموقين وأبطال قدامى ومآثر أسطورية ، مثل مآثر سادكو Sadko تاجر نفجر د . وكان المكفوفون والعرج يطوفون بالقرى ينشدون مثل هذه الأغاني والأناشيد والتراتيل المقدسة . وكان كل الأدب المكتوب تقريباً مقصوراً على الأديرة ، وكان يخدم الأغراض الدينية .

وكان الرهبان هم الذين وصاوا عندئذ برسم الأيقونات إلى فن كامل . فكانوا يأتون بلوحة صغيرة من الخشب ، مغطاة بالقماش أحياناً ، ينشرون عليها طبقة لزجة ومن ثم يرسمون عليها الصورة ويضعون الألوان ، ثم يغطونها بالطلاء ويضعونها في إطار معدني . وكانت الموضوعات تحددها السلطات الدينية ، أما الأشكال والسمات فكانت تقتبس من النماذج البيزنطية ، وعادوا بها أدراجهم في تطور مستمر عبر فسيفساء القسطنطينية إلى رسوم الإسكندرية الهلنستية . وأحسن أيقونات هذا العصر هي صورة لا يعرف

اسم صاحبها تمثل « المسيح يرقى عرش السماء » موجودة في كاتدرائية صعود العذراء في موسكو ، وصورة دخول المسيح إلى أورشليم - وهى من عمل مدرسة نفجرد ، والثالث المقدس للراهب أندريه روبليوف في دير الثالث المقدس . ورسم روبليوف وأستاذه تيوفانس الإغريقى ، لوحات جصية جدارية تجمع بين الطراز البيزنطى والطراز البيزنطى الجريكوفى فلاديمير وموسكو ونفجرد ، ولكن الزمن أعمل أثره فيها .

إن كل حاكم كان يبرز عظمته ويرى ضميره ببناء كنيسة أو دير ، أو تخصيص الأوقاف والهبات لهذا أو تلك . وقد انضمت الأشكال والخوافز من أرمينية وفارس والهند والتبت ومنغوليا وإيطاليا واسكنديناوه - انضمت إلى التراث البيزنطى السائد ، لتشكيل عمارة الكنيسة الروسية ، بما فيها من جمال تعدد الوحدات ، والقبعة المذهبة فى الوسط ، والقباب البصلية الشكل التى صممت بطريقة رائعة لمنع تراكم مياه المطر والثلوج . وبعد سقوط القسطنطينية وطرد التتار قل اعتماد روسيا على الفن البيزنطى والفن الشرقى ، وجاء التأثير من الغرب ليعمل من الطراز السلافى . وفى سنة ١٤٧٢ راود الأمل إيفان الثالث فى أن يرث حقوق الأباطرة البيزنطيين وألقابهم ، ومن ثم تزوج « زو باليولوغوس Zoë » ابنة أخى آخر حكام الإمبراطورية الشرقية ، وكانت قد نشأت فى رومة وتشربت شيئاً من بواكير عصر النهضة ، وقد جلبت معها بعض العلماء الإغريق ، وأظهرت إيفان على الفن الإيطالى ، وربما كان بإيحاء منها لإرساله لأول بعثة روسية إلى الغرب (١٤٧٤) ، وقد أصدر إليها توجيهاته بالحصول على الفنانين الإيطاليين لموسكو . وقبل الدعوة ربودلفوفيرافانتى البولوفى الذى كان يلقب بأرسطو بسبب تعدد مواهبه ، ثم تصيد المبعوثون الروس بعد ذلك ييبرو سولاريو ، والفيزيونوفى وعدة فنانين آخرين وهؤلاء الإيطاليون هم الذين أعادوا بناء الكرملين مع معاونين وعمال من الروس .

وكان يورى ديجوروكى Yuri Delgoruki قد أسس موسكو سنة ١١٥٦ بأن أقام سوراً حول داره (فيلا) ، التى كانت تقع فى موقع استراتيجى عند التقاء نهرين ، فكان هذا الحصن « Kreml » أول شكل للكرملين . واتسع مع الزمن هذا النطاق ، وقامت الكنائس والقصور داخل سياج مرصوص من البلوط ، ونذر ايفان الثالث نفسه لتعديل هذه المجموعة بأكملها . ومن الواضح أن فييرافانتى Fieravante هو الذى أعاد بناء كاتدرائية صعود العذراء القديمة فى الكرملين (١٤٧٥ — ١٤٧٩) حيث توج القياصرة فيما بعد وبقي الطراز بينظيما مع زخرفة إيطالية . وأضاف مهندسون معماريون من بسكوف داخل نطاق الكرملين « كاتدرائية عيد البشارة » الصغيرة (١٤٨٤ — ١٤٨٩) . ثم أقام أليفيزيو Alevisio فى الكرملين كاتدرائية رئيس الملائكة (١٥٠٥ — ١٥٠٩) . وفيما بين ١٤٨٥ — ١٥٠٨ أعاد سولاريو وآخرون تسوير المنطقة بالآجر القرفلى على طراز قلعة سفورزسكو فى ميلان^(٥) . وهكذا — ترى أنه من وسط روسيا الزاخر بالمعابد ، ومن قلب هذه الوحدة المتسلطة التى تركزت فيها السلطان الديوية والدينية ، بسط أمراء موسكو العظام ومطارنتها حكمهم ونفوذهم على النبلاء والعجار والفلاحين ، ووضعوا بالدماء والعظام وبالتقى والورع أسس واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم .

٢ — أمراء موسكو

ظلت موسكو قرية مغمورة حتى عهد دانيال اسكندروفتش فى أواخر القرن الثالث عشر ، ووسعت رقعتها الداخلية حتى جعلت منها إمارة صغيرة ، ويعزو الإدراك التاريخى المتأخر^(٦) — نمو موسكو إلى موقعها على نهر موسكو الصالح للملاحة الذى كان متصلا عن طريق ممر برى قصير ، بنهر الفولجا شرقاً ، وأنهار أوكا والدون والدينير جنوباً وغرباً . وطمع يورى دانيالفتش بن دانيال أمير موسكو فى الاستيلاء على إمارة سوزدال المجاورة ،

وكانت عاصمتها فلاديمير غنية نسبياً ، كما طمع في ذلك ميكائيل أمير تفر . Tver . واقتتل الفريقان للحصول على الجائزة فكانت الغلبة لموسكو ، وقتل ميكائيل وضم إلى قائمة القديسين . ونمت موسكو ، واتخذ إيفان الأول ، آخر يورى لقبى أمير موسكو العظيم ، ودوق فلاديمير العظيم .

وكان إيفان الأول ، بوصفه جامعاً للجزية الروسية لحساب خان التتار ، يتقاضى أكثر مما كان يرسله أو يحوله ، ومن ثم أثرى وازدهر بطريقة شريرة مؤذية . وجعله جشعه للمال ينز بلقب « Kalita » ومعناه « حقيبة المال » . ولكنه بذلك حى الإمارات من حملات التتار لمدة ثلاث عشرة سنة نعمت فيها بالهدوء . وتوفى إيفان سنة ١٣٤١ على أنه راهب حليق شعر الرأس ، وأطلقوا من حوله بخور القداسة . وورث عنه ابنه سيميون المتكبر ميله إلى جمع الضرائب . ولما كان يدعى السلطان على كل الولايات فإنه أطلق على نفسه اسم الأمير الأعظم على كل الروس ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الموت بالطاعون (١٣٥٣) . وكان إيفان الثانى حاكماً وديعاً يؤثر السلام ، وفى عهده اجتاحت روسيا حرب قتل فيها الأخ أخاه . وتميز ابنه ديمترى بكل الصفات التى تتطلبها الحرب والقتال ، فهزم كل منافس له وتحدى خان التتار . وفى ١٣٨٠ جميع ماماي خان جيشاً من التتار والمرزقة الجنوبيين وغيرهم من المتعطلين المتشردين ، وتقدم به نحو موسكو . وقابل ديمترى وحلفاؤه الروس هذا الجحفل عند كوليكوفو Kulikovo قرب نهر الدوز وأنزلوا به الهزيمة (١٣٨٠) ، وفاز بلقب دونسكوى Donskoi وعاود التتار الكرة بعد عامين بمائة ألف رجل ، ولكن الروس ، وقد غرتهم وأرهقتهم نشوة النصر ، لم يستطيعوا أن يواجهوا التتار بقوة مماثلة . واستولى التتار على موسكو ، وذبحوا أربعة عشر ألفاً من السكان وأحرقوا المدينة برمتها . وعقد فاسيل الأول ، ابن ديمترى ، صلحاً مع التتار ، وضم نخبى نفجرد ، وأرغم نوفجورود وفياتكا على قبوله أميراً عليها .

واقبس أمراء موسكو العظام أساليب الطغيان والاستبداد عند التتار ، وربما كان هذا بديلاً عن فوضى الجهل ، وأدارت دفعة الحكم على الأسلوب البيزنطى بـ « قراطية » فى ظل حكومة فردية مطلقة طابعها العنف والدهاء ، خاضعة لمجلس من أبناء الطبقة العليا ذوى الامتيازات (Boyars) الذين كانوا يقدمون مشورتهم وخدماتهم للأمير ، وكانوا فى نفس الوقت قادة الجيش وحكام الأقاليم والقائمين على التنظيم ، والحياة والمستغلين للفلاحين شبه الأحرار الذين كانوا يفلحون الأرض . وهاجر مستعمرون مغامرون إلى الأقاليم غير المستقرة وجففوا المستنقعات وأخصبوا الأرض بحرق الغابات والأدغال واستهلكوا الأرض نتيجة إسرافهم وقصر نظوهم فى فلحها ، ثم انصرفوا عنها ضرباً فى الأرض حتى وصلوا البحر الأبيض وجبال الأورال ، واتخذوا سبيلهم سرباً إلى سيبيريا ، وفى السهول المترامية الأطراف بلا نهاية كانت المدن كثيرة ولكنها صغيرة ، وكانت البيوت مبنية من الخشب والطين ، وكان مقدراً لها أن تحترق وتنقض على مدى عشرين سنة على الأكثر . وكانت الطرق غير معبدة وأقل إزعاجاً فى الشتاء حيث كانت تكسوها الثلوج وتملؤها الزحافات والأحذية العالية . وآثر التجار الأنهار على الطرق ، ونقلوا تجارتهم فى بطاء على الماء أو الجليد بين الشمال والجنوب ، مع بزنطة والمسلمين وعصبة الهانسا (وقد تكونت من بعض المدن الحرة فى شمال ألمانيا والدول المجاورة ، تكونت فى العصور الوسطى بقصد التجارة) . وربما كانت هذه التجارة المنتشرة هى التى تغلبت على النزعة الفردية لدى الأمراء وفرضت توحيد روسيا . وكان فاسيلى الثانى (١٤٢٥ - ١٤٦٢) الملقب باسم تمنى Temny - الأعمى - لأن أعداءه عمّأوا عينيه - هو الذى قضى على تمرد العصاة وألزمهم الطاعة ، عن طريق التعذيب وبتز الأطراف والجلد ، وترك لابنه روسيا قوية إلى درجة تضع معها نهاية لمخازى حكم التتار .

وصار إيفان الثالث هو (العظيم) ، لأنه هو الذى أنجز هذه المهمة ، ووجد روسيا . لقد خلق للشدائد ، وكان مجرداً من المبادئ الخلقية ، لا يتورع عن شيء ، حاد الذهن مكرراً حذراً عنيداً قاسياً ، وكان يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة ، وهو مستقر في مكانه في الكرملين . وكان يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقاباً وحشياً ، بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتز أطراف حتى أعضاء المجلس ، أو يقطع رأس طبيب أخفق في علاج ابنه ، وهكذا يمثل هذه الصرامة كان يسيطر على حاشيته ، حتى أن النساء ليغمى عليهن بمجرد نظرة منه . وأطلقت عليه روسيا اسم « الرهيب » حتى التفتت بحفيده .

وكانت إمارة نفجورد أيسر فتوحاته ، وكان ينظر في تطلع جشع إلى هذه السوق المزدهرة الخاضعة للضريبة ، ولقد حرصه تجار موسكو على القضاء على منافسيهم في الشمال (٧) . وسيطر الأمير العظيم على السهول الممتدة بين موسكو ونفجورد ، حيث كانت الجمهورية التجارية تشتري المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها ، ولم يكن على إيفان إلا أن يغلق هذا المخزن المورد للحبوب وتلك السوق ، لكي تقع المدينة الدولة في ضائقة وتقلص ، أو تخضع وتستسلم . وبعد ثمان سنوات توالى فيها الحرب والهدنة ، تنازلت الجمهورية عن استقلالها (١٤٧٨) ونقل ٧٠٠٠ من صفوة سكانها إلى سوزدال ، وطردت عصابة الهانسا ، وورث تجار موسكو أسواق نفجورد ، وورث أميرهم دخلها .

وما أن ضم إيفان مستعمرات الجمهورية المندثرة حتى بسط حكمه على فنلندة والمنطقة المتجمدة والأورال . وخضعت بسكوف في الوقت المناسب حفاظاً على الأشكال الجمهورية فيها تحت سيادة الأمير العظيم . وتلمست تفر أسباب الحماية عن طريق التحالف مع لتوانيا ، ولكن إيفان سار إلى المدينة بنفسه واستولى عليها دون أن يضرب ضربة واحدة ، وتبعها روستوف Rostov

ويااروسلاف Iaroslavl . ولما مات إخوة إيفان رفض أن تؤول مخصصاتهم إلى ورثتهم ، وضمها إلى ممتلكاته . والنحاز أخ له - أندريه - إلى لتوانيا فقبض عليه واعتقله ، ومات أندريه في السجن ، فبكي إيفان ، ولكنه صادر أملاكه . إن السياسة لا قلب لها .

وبدا أن التحرر من ربقة التتار مستحيل ، ولكن ثبت أنه أمر يسير . ذلك أن يقايا الغزاة المغول - الأتراك كانوا قد استقروا في ثلاث جماعات متنافسة متنافرة ، وتركزوا في سراي Sarai وقازان Kazan وفي القرم ، وكان إيفان يضرب كلا منها بالأخرى حتى وثق أنها لن تتحد ضده . وفي ١٤٨٠ امتنع إيفان عن دفع الجزية ، وقاد خان أحمد جيشاً كبيراً من الفولجا حتى ضفاف نهرى أوكا وأوجرا جنوب موسكو . وقاد إيفان جيشاً قوامه ١٥٠,٠٠٠ رجل إلى الضفاف المقابلة ، وواجه العدوان بعضهما بعضاً لعدة شهور دون أن تقع بينهما معركة . وتردد إيفان في أن يغامر بعرشه وحياته في رمية واحدة ، كما خشى التتار مدفعيته التي أدخل عليها تحسينات . ولما تجمدت الأنهار ، ولم تعد تحمى الجيوش بعضها من بعض ، أصدر إيفان أوامره بالانسحاب ، وبدلاً من تعقب الجيش المتسحب ، انسحب التتار كذلك ، حتى وصلوا إلى سراي (١٤٨٠) ، وكان انتصاراً هائلاً ولكنه مضحك . ومنذ ذلك الحين لم تدفع موسكو جزية إلى التتار ، وسمى الأمير العظيم نفسه الحاكم المطلق ، أى الذى لا يدفع الجزية لأحد . واستدرج الخانات المتنافسون إلى محاربة بعضهم بعضاً . وهزم أحمد وذبح ، وانقضى سلطان المغول في سراي ، واندثرت « القبيلة الذهبية » .

وبقيت لتوانيا ، ولم يطق الأمير العظيم ولا مطران موسكو الصبر على السلام ، ما دامت أواكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تهدد موسكو دوماً ، وتدعو الأرثوذكس إلى المسيحية اللاتينية . وزعم إيفان أن ثمة مؤامرة لاغتياله ، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص

المديريات المغرر بها (١٤٩٢) . فما كان من أمراء لتوانيا الذين استشعروا القلق في ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولندي إلا أن فتحوا أبوابهم أمام جيوش إيفان . وتوقف الاسكندر أمير لتوانيا العظيم في فدروشا **Vedrosha** وهزم (١٥٠٠) . ورتب البابا الاسكندر السادس هدنة لمدة ست سنوات . وفي نفس الوقت احتفظت موسكو بالأقاليم التي كسبتها - إلى الغرب من نهر سوز **Sozch** بما في ذلك شرنيجوف **Chernigov** حتى سمولنسك تقريباً . وكان إيفان الثالث قد بلغ آنذاك الثالثة والستين فترك تخليص البقية لحفده .

إن حكم إيفان الذى دام ثلاثاً وأربعين سنة يعدل في أهميته أى حكم آخر في تاريخ روسيا قبل القرن العشرين . وسواء كان مدفوعاً بشهوة المال وحب السيطرة أو بليمانه الراسخ بأن أمن الروس وازدهارهم يتطلبان توحيد روسيا ، فإن إيفان الثالث حقق لبلده ما كان يؤديه لويس الحادى عشر لفرنسا ، وهنرى السابع لإنجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، والإسكندر السادس للولايات البابوية ، ولقد كشف تزامن هذه الأحداث عن تقدم القومية والملكية ، الأمر الذى قضى على سلطان البابوية الأسمى فوق الأمم والقوميات . وفقد أبناء الطبقة العليا استقلالهم ، وأرسلت الإمارات الجزية إلى موسكو ، واتخذ إيفان لقب « ملك روسيا بأسرها » . ويحتمل أن زوجته الإغريقية أوصته بأن يتخذ كذلك لقب « قيصر » ، وهو لقب رومانى إغريقى . ولقد اتخذ النسر الإمبراطورى المزدوج شعاراً قومياً ، وادعى وراثته السلطة السياسية والدينية لبزنطة الغابرة ، واقتبست من بزنطة نظريات الحكومة وأعيادها ومراسمها ، وكذلك فعلت الكنيسة ، بوصفها من أدوات الدولة ، بعد أن دخلت إلى روسيا المسيحية البزنطية والأبجدية البزنطية الإغريقية وأشكال الفن البزنطى ، وبقدر ما كانت بزنطة شرقية لقربها من آسيا ، فإن روسيا التى كانت قد اصطبغت بالصبغة الشرقية بسبب حكم التتار لها ، أصبحت من وجوه كثيرة مماكة شرقية مغايرة للغرب غريبة عنه غامضة لديه .

٣ - إيفان الربيب

١٥٨٤ - ١٥٣٣

تابع فاسيلي الثالث إيفانوفتش ١٥٠٥ - ١٥٣٣ توحيد روسيا ، وضم
مولفيسك إلى مملكته ، وأرغم إمارتي ريبازان ونفجورد - سفروميسكي على
الاعتراف بسيادته . وقال أحد كتاب الحوليات الروس « ليس سوى
الأطفال الرضع هم الذين استطاعوا أن يكفكفوا الدمع ، عندما خضعت
الحكم فاسيلي (١٥١٠) جمهورية بسكوف التي كانت يوماً مزهوة بنفسها » ،
كانت روسيا آنذاك دولة أوربية كبرى . وتبادل فاسيلي الرسائل على قدم
المساواة مع مكسيمليان الأول وشارل الخامس وسليمان القانوني وليو العاشر .
وعندما حاول بعض أبناء الأرستقراطية أن يحدوا من استبداده كبح جماحهم
بكلمة احتقار واحدة هي « فلاحون » . ثم قطع رأس أحد النبلاء . ولما لم
ينجب من زوجته أولاداً ، فإنه طلقها وتزوج من هيلينا جلنسكي ، وهي
سيدة مصقلة بارعة مستبدة . وبعد موته صارت وصية على ابنها إيفان
الرابع فاسيليفتش البالغ من العمر ثلاث سنوات . وعند موتها عاود أعضاء
المجلس أبناء الطبقة العليا شغبهم ، وتولت أحزابهم المتناحرة زمام الحكم
تباعاً ، ونشروا الفوضى والخلل في المدن نتيجة عنفهم ، واستنزفوا في
الحرب الأهلية دماء الفلاحين الروس البؤساء العاجزين .

وفي غمرة هذه المنازعات كاد الملك الصغير « سيد روسيا بأسرها » أن
يكون مهملاً متجاهلاً بل محروماً بائساً في بعض الأحيان . ولما كان يبصر
بضروب الوحشية في كل مكان من حوله ، فإنه حسبها أسلوباً مقبولاً في
السلوك ، ومن ثم اختار أعنف ضروب الرياضة . ونشأ شاباً نكدا متقلب
للزواج متشككاً . وفجأة ، عندما كان بعدد ولداً في الثالثة عشرة من
عمره ، (١٥٤٤) أتى إلى كلابه أندريه شويسكي زعيم أحد أحزاب

النبلاء ، وتولى زمام الأمور في الدولة . وبعد ثلاث سنوات قام مطران موسكو بتتويجه قيصرأ ، ثم أمر القيصر بأن ترسل إليه نخبة من العذارى النبيلات من مختلف أنحاء المملكة ، واختار منهن أنستاسيا رومانوفا وتزوج منها ، ومن لقب أسرتها سوف يتحدد عما قريب لقب أسرة حاكمة .

وفي ١٥٥٠ دعا أول جمعية وطنية من جميع أنحاء روسيا ، واعترف أمامها بجميع أخطائه في شبابه ، ووعد بإقامة حكومة عادلة رحيمة . ولعله تحت تأثير الإصلاح في ألمانيا واسكنديناوه ، درست الجمعية اقتراحا بمصادرة أملاك الكنيسة لتدعيم الدولة . ورفض هذا الاقتراح ، ولكن اتخذ قرار آخر متصل به ، بمقتضاه استردت كل الأراضي المنقولة للكنيسة وغير الخاضعة للحجز ، كما ألغيت كل الهبات التي منحت للكنيسة أيام كان إيفان قاصراً . ولم يعد للأديار حق حيازة أية ممتلكات دون موافقة القيصر . وهذا بال رجال الدين نوعاً ما عندما عين إيفان الكاهن سلفستر مرشداً روحياً له ، واتخذ منه ومن ألكسيس أداشيف وزيرين له ، وبفضل هذين المعاوين القديرين كان إيفان في سن الحادية والعشرين سيداً على مملكة تمتد من سمولنسك إلى الأورال ، ومن المحيط المتجمد إلى بحر قزوين تقريباً .

وكان همه الأول تقوية الجيش ، والموازنة بين قوى النبلاء المعادين له ، عن طريق هيئتين مسئولتين أمامه : فرسان القوزاق ومشاة سترلتس Strieltsi(*) ، مزودة بالهركوبه (Harquebus) - نوع من الأسلحة النارية اخترع في القرن الخامس عشر . ونشأ القوزاق في هذا القرن من طبقة الفلاحين الذين كان مقامهم في جنوب روسيا بين المساحين والمسكوف يقتضيهم أن يكونوا دوماً على أهبة الاستعداد للقتال عند أول صيحة ، كما هيأ لهم

(*) مشتقة من معنى إطلاق النار . أما القوزاق فيحتمل أنها محرفة عن لفظة تركية

معناها مفامر .

فرصاً تتعذر مقاومتها لسلب القوافل التي كانت تنقل التجارة بين الجنوب والشمال . وجموع القوزاق الأصليون هم قوزاق نهر الدون في جنوب شرقي روسيا ، وقوزاق زابوروج Zaporogue في الجنوب الغربي ، وكانوا جمهوريات شبه مستقلة ، ومن الغريب أنه كان يسود بينهم نظام ديموقراطي ، حيث كان أرباب البيوت يختارون رئيساً تنفيذياً لجمعية منتخبة . وكانت كل الأرض ملكاً عاماً مشتركاً ، ولكنها تؤجر إلى الأسرات بصفة فردية لاستخدامها استخداماً موقوتاً ، وكانت الطبقات كلها متساوية أمام القانون^(٨) . وأصبح فرسان القوزاق ، بسبب اشتهارهم بالشجاعة الهائلة ، للدعامة الأولى لإيفان الرابع داخل البلاد وفي الحرب .

وكانت سياسته الخارجية بسيطة ، فهو يريد أن تربط روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين . وكانت كازان وإستراخان والقزم لا تزال في قبضة للتتار الذين كانوا لا يفتأون يطالبون موسكو بالجزية ، ولكن عبثاً . وكان إيفان على يقين من أن أمن روسيا ووحدتها يتطلبان امتلاكها لهذه الأجزاء ، والتحكم في نهر الفولغا حتى منابعه . وفي ١٥٥٢ قاد القيصر الشاب ١٥٠٠٠ رجل إلى أبواب كازان وحاصرها لمدة خمسين يوماً . ولكن المسلمين — وكان عددهم ٣٠٠٠٠ — قاوموا وصمدوا في عناد تحلوهم للروح الدينية وهاجموا أعداءهم في غارات متكررة ، وعندما أسر نفر منهم وعلقوا على أعواد المشاتي أمام الأسوار سدد لإخوانهم المدافعون إليهم السهام صائحين : « خبر هؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدي بني وطنهم المنظمة من أن يهاكوا بأيدي المسيحيين الدنسة^(٩) » . ولما وهنت عزائم المحاصرين وأصابهم القنوط بعد شهر من الإخفاق ، أرسل إيفان إلى موسكو في طلب صليب عجيب ، فما أن ظهرت هذه الأعجوبة أمام جنوده حتى ثارت حميتهم من جديد ، وكان الله يحارب مع الجانبين . وبث مهندس ألماني الألقام في الأسوار فانهارت ، واندفع الروس إلى المدينة صائحين « الله

معنا ، وأعملوا الذبح في كل من لم يباعوا بوصفهم رقيقا . وروى أن إيفان ذرف الدمع حسرة على المغلوبين قائلا : « إنهم ليسوا مسيحيين ، ولكنهم رجال » وأسكن إيفان فلول المسيحيين في الأطلال . وهتفت روسيا بأنه أول سلافي يستولى على معقل تترى ، واحتفلت بالنصر ، كما احتفلت فرنسا بصد المسلمين في معركة تور سنة ٧٣٢ . وفي ١٥٥٤ استولى إيفان على استراخان ، وأصبح نهر الفولجا قناة روسية تماما . وظلت القرم في يد المسلمين حتى ١٧٧٤ . ولكن قوزاق نهر الدون أحنوا رءوسهم آنذاك لحكم موسكو .

وما أن حرر إيفان حدوده في الشرق حتى ولى شطره متاهة نحو الغرب : وكان يراوده حلم تجارة روسية تندفق غربا وشمالا عبر الأنهار الكبرى إلى البلطيق ، وكان يحسد غرب أوروبا على التوسع الصناعى والتجارى ، وكان يلتمس للاقتصاد الروسى منفذاً يربط به نفسه بهذا التوسع . وفي ١٥٥٣ أرسل تجار لندن سير هيو ولفى Hugh Willoughby وريتشارد تشانسلى لإيجاد طريق في المنطقة المتجمدة حول اسكنديناوة وصولا إلى الصين ، فأبحرا من هاروك Harwich في ثلاث مراكب ، وهلك اثنان من الملاحين في الشتاء في لابلند ، ولكن تشانسلى وصل إلى الموقع الذى أسماه البريطانيون أركنجلسك ، على اسم الملاك ميكائيل : وشق تشانسلى طريقه وسط مئات الأخطار والصعاب إلى موسكو ، فعقد معه إيفان ، ثم مع أنطونى جنكنسن فيما بعد ، معاهدات تحول « شركة لندن والمسكوف » امتيازات تجارية خاصة في روسيا .

ولكن هذه المعاهدات كانت بالنسبة لإيفان مجرد ثقوب ، ولم تكن بابا أو منفذا إلى الغرب ، وأراد أن يستعجب فنيين من ألمانيا ، وحشد له من هؤلاء ١٢٣ في لوبك ، ولكن شارل الخامس رفض السماح لهم بالخروج . وكان النهر الكبير دويئا الجنوبي يجرى من قلب روسيا إلى البلطيق قرب

ريجا ، ولكنه يجرى عبر ليفونيا المعادية ، ولم تكن منابع دويتا والفلجا بعيدة بعضها عن بعض ، ومن ثم يمكن ربط النهرين بقنوات ، وهنا ، بحكم « القدر المقدور » كان الطريق المائى الذى يمكن أن يعوض روسيا عن عدم تناسب أراضيها المترامية الأطراف مع سواحلها ونفورها ، ومن ثم يمكن أن يتصل بحر البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسود ، كما يمكن أن يلتقى الشرق والغرب . وفى تبادل السلع والأفكار قد يستطيع الغرب أن يسدّد شيئاً من دينه الثقافى القديم للشرق :

وعلى ذلك فلان إيفان فى سنة ١٥٥٧ ابتكر ذريعة لمهاجمة ليفونيا ، وأرسل إليها بجيش تحت قيادة شاه على ، الذى كان أخيراً خان التتار على كازان . واجتاح الجيش البلاد بطريقة وحشية ، فأحرق الدور والمحاصيل ، واستعبد الرجال واغتصب النساء حتى الموت . وفى ١٥٥٨ استولى جيش روسى آخر على نارفا التى تبعد عن البلطيق بمائة أميال . واستنجدت ليفونيا اليائسة ببولندا والدانمارك والسويد وألمانيا : وارتعدت أوروبا الوسطى بأسرها فزعاً من مشهد الطوفان السلافى الذى وصل إلى الغرب ، كما وصل فى القرن السادس إلى نهر الإلب . واستأثر ستيفن باثورى حمية البولنديين وقادهم إلى الانتصار على الروس عند بولتسك (١٥٨٢) . ولما حلت الهزيمة بإيفان سلم ليفونيا إلى بولندا .

وقبل هذه النكسة الحاسمة بزمان طويل ، كان إخفاق حملات إيفان قد أدى إلى الثورة فى الداخل ، حيث كان التجار الذين كان إيفان يسعى إلى إثرائهم بفتح طرق جديدة للتجارة ، قد فقدوا صوابهم بسبب هذه الحرب المدمرة الباهظة التكاليف . وعارض انبلاء هذه الحرب لأنها لا بد أن ترحل بين دول البلطيق ، بسلاحها المتفوق ، ضد روسيا التى ما زالت إقطاعية فى تنظيمها السياسى والعسكرى . وفى أثناء الحرب وفيما قبلها كان إيفان قد ارتأب فى مؤامرات النبلاء ضد عرشه ، وفى أثناء مرض كاد يقضى عليه

(١٥٥٣) علم أن جماعة قوية من النبلاء كانوا يدبرون أن يبعدوا ، عند موته ، ابنه ديمتري ويتوجوا الأمير فلاديمير الذى كانت أمه تمنح الجيش عطايا كثيرة . وكان أقرب مستشاريه سلفستر وأداشف ضالعين مع النبلاء ، ولمدة سبع سنوات بعد الارتياح فيهما ، أبقي إيفان على هذين الموظفين في مواقع السلطة ، ثم طردهما في ١٥٦٠ ، ولكن دون عنف . ومات سلفستر في أحد الأديار ، وقضى أداشف نحبه في إحدى الحملات على ليفونيا ه وهاجر عدة نبلاء إلى بولندة وحملوا السلاح ضد روسيا ، وفي ١٥٦٤ لحق الأمير كوربسكى Kurbsky صديق إيفان الحميم والقائد العام ، بهؤلاء الهاربين ، زاعما أن القيصر يدبر قتله ، ومن بولندة أرسل كوربسكى إلى إيفان ما يصل إلى أن يكون إعلاناً للحرب عليه ، متهماً إياه بأنه مجرم مجنوم . وتدعى الأساطير أن إيفان عندما قرئ عليه الخطاب دق إحدى قدمى حامله بالمسامير في الأرض بضربة من العصا الملكية ، ولكن القيصر تنازل فرد على كوربسكى بدفع يقع في اثنتين وستين صفحة ، وكان رداً بليغاً مشوشاً ، عاطفياً مليئاً بمقتبسات من الكتاب المقدس ، عدد فيه دسائس النبلاء لخلعه . واعتقاداً منه بأنهم كانوا قد دسموا السم لأنستاسيا ، تساءل إيفان : « لماذا فرقم بينى وبين زوجتى ؟ ألم تأخذوا منى وليدى للصغير ؟ لم يحدث قط أن ذبح أحد من النبلاء . . . لقد فلتشت عبثاً عن رجل يستشعر الشفقة بى ، ولكنى لم أجد أحداً (١٠) » . وكتب كوربسكى في أخريات أيامه تاريخاً قاسياً عدائياً لإيفان ، وهو أهم مرجع لنا في إرهاب إيفان .

إن هذه المؤامرات ومغادرة البلاد توضح لنا أشهر حادث متميز في عهد إيفان . وفي ١٢ ديسمبر ١٥٦٤ غادر إيفان موسكو مع أسرته وأيقوناته وكنوزه ، مع قوة صغيرة من الجنود ، وسار إلى مقره الصيفى في اسكندروفسك . وأرسل إلى موسكو بيانين ، زعم في الأول أن النبلاء

والبيروقراطية والكنيسة تأمروا ضده وضد الدولة ، وأنه لذلك « مع أشد الأسف » اعتزل الآن العرش ، ليعيش في عزلة . أما البيان الثاني فقد أكد فيه لأهل موسكو أنه أحبهم وأن لهم أن يبقوا واثقين من نيانه الطيبة دوماً . والحق أنه نمسك بمحاربة العامة والتجار ضد الأرستقراطية ، وقد شهد بذلك ما قامت به الطبقتان الوسطى والدنيا آنذاك ، فقد انفجروا يرددون صيحات التهديد ضد النبلاء ورجال الدين ، مطالبين بأن يشخص إلى القيصر وفد من الأساقفة والنبلاء ، ليرجوه في العودة إلى العرش ، وتم ذلك وقبل إيفان « أن يتولى أمر الدولة من جديد » ، بشروط يحددها هو فيما بعد .

وعاد إيفان إلى موسكو في فبراير ١٥٦٥ ، ودعا الجمعية الوطنية من رجال الدين والنبلاء ، وأعلن أنه سيعدم زعماء المعارضة ويصادر أملاكهم ، وأنه من الآن فصاعداً سيتولى كل السلطة دون استشارة النبلاء أو الجمعية ، وأنه سينفى كل من يخالف أوامرته العالية ومراسيمه ، ولما كانت الجمعية تخشى ثورة الجماهير فقد استسلمت وانحلت ، وقرر إيفان أن روسيا سوف تنقسم في المستقبل إلى قسمين : الأول « زمستشينا Zemstchina أو مجموعة المقاطعات ، ويظل تحت حكم النبلاء ومجالسهم « الدوما » ، ويخضع نصريته لإجمالية يقرضها القيصر ، ويكون تابعاً له في الشؤون العسكرية والخارجية ، ويكون فيما عدا ذلك حراً يتمتع بحكم ذاتي . والقسم الثاني « أوبرشنيينا Oprichnina - الممتلكات المستقلة » يحكمه هو أى إيفان ، ويتكون من الأراضي التي يخصصها هو « للطبقة المنفصلة Oprichniki » التي يختارها القيصر للشرطة ولإدارة نصف المملكة هذا ، ولحمايته من الشعب ، ولتقوم بحمايته هو شخصياً ، ولتقدم له الخدمات العسكرية الخاصة به . واختير الموظفون الجدد - وكانوا في البداية ألفاً وبلغ عددهم في النهاية ستة آلاف ، اختيروا على الأخص من بين صغار أبناء النبلاء ، ولما لم يكن لديهم

أرض ، فقد كانوا على استعداد لتأييد إيفان مقابل الضياع التي منحهم إياها . واقتطع جزء من هذه الأراضي من أملاك التاج ، والجزء الأكبر منها من أملاك النبلاء الثوار التي صودرت . وبنهاية عصر إيفان كانت هذه « الممتلكات المستقلة — أوبرشينا » تشمل نصف روسيا تقريباً ، وكثيراً من موسكو وأهم طرق التجارة . وكان هذا الانقلاب مماثلاً لما حاوله بطرس الأكبر بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً : الارتفاع بطهقة جديدة إلى السلطة السياسية ، والارتقاء بالتجارة والصناعة في روسيا . وفي مثل هذا القرن الذي كانت فيه القوة العسكرية كلها من الوجهة العملية في قبضة الأرستقراطية ، تطالب المشروع شجاعة مفرطة في القيصر الذي لم يتزود إلا بجنده الخصوصيين ، وبالتأييد الهزيل الذي لا يعتد به من جانب التجار والجناهير . ويؤكد لنا بعض المعاصرين أن إيفان — في هذه الفترة الدقيقة — وهو آنذاك في سن الخامسة والثلاثين ، كان يمثل ابن العشرين (١) .

واتخذ إيفان آنذاك الاسكندر وفلسك مقراً دائماً ، وحولها إلى قلعة محصنة . وربما كان التوقر الذي انتاب بسبب ثورته ضد النبلاء بالإضافة إلى الإخفاق في الحرب الطويلة الأمد مع ليفونيا ، سيئاً في اعتلال عقله الذي لم يكن قط كامل الاتزان . ولقد ألبس حراسه غنارات سوداء ، وهي لباس الكهنة ، وقلنسوات ضيقة ، وأطلق على نفسه لقب رئيس الرهبان . ورتل مع فرقة المرتلين ، وشهد معهم القداس يومياً ، وكم خسر ساجداً أمام المذبح في حماسة حتى تكررت إصابات جبهته بالكدمات . وزاد هذا من الفزع الذي بثه في روسيا التي بدأت تحس نحوه بمزيج من التبجيل له والإشفاق عليه ، وحتى أفراد « الطبقة المنفصلة » Oprichniki كانت تمثل أدومه في ذلة وخشوع حتى أدانوا عليهم أنهم حاشيته أو بلاطه .

واقترن انقلاب إيفان بالإرهاب ، شأنه في ذلك شأن أي انقلاب آخر ، وقبض على معارضيه وأعدوا دون شفقة أورحة ، وجاء في عرض

لأحداث هذه السنوات (١٥٦٠ - ١٥٧٠) دونه أحد الرهبان ، ويحتمل أن يكون معاديا ، أن عدد قتلى غضبه بلغ ٣٤٧٠ . ويقول هذا العرض التاريخي أن الضحية كان في الغالب يعدم « مع زوجته » أو « مع زوجته وأطفاله » ، وفي حالة واحدة « مع عشرة من الرجال جاءوا لمساعدته (١٢) » . وأعدم الأمير فلاديمير مع أمه ، أما أولاده فقد أبقى إيفان على حياتهم ووفر لهم أسباب العيش . ويقال إن القيصر طلب إلى الرهبان أن يضلوا من أجل نفوس ضحاياهم . ودافع إيفان عن إعدامهم بأن هذا هو العقاب المعتاد لجريمة الخيانة وخاصة زمن الحرب . وقد سلم أحد ممثلي بولنده بهذه الحججة ، وتضرع إنجليزى شهيد شيئاً من هذه المجزرة قائلا : « ندعو الله أن نتسكن من تعليم ثوارنا العنيدين واحبهم نحو أمبرهم بالطريقة نفسها (١٣) » .

وجاءت ذروة هذا الإرهاب في نفجورد . وكان إيفان قبل ذلك بفترة وجيزة قد منح رئيس الأساقفة مبلغاً كبيراً من المال لإصلاح الكنائس ، وظن أنه كان بذلك محبوباً من رجال الدين هناك على الأقل . ولكنه أبلغ أنه قد وجدت وثيقة ، ليست بالضرورة غير مزيفة ، خلف صورة للعدراء في أحد أديار نفجورد ، وفيها عهد بالتعاون بين نفجورد وبسكوف مع بولنده لمحاولة خلع القيصر . وفي الثاني من يناير ١٥٧٠ انقضت على المدينة قوة عسكرية قوية يقودها الأوبرشنيكى ، وأعملت النهب والسلب في الأديرة ، وقبضت على ٥٠٠ من الرهبان والكهنة . وفي ٦ يناير وصل القيصر إلى هناك ، وأمر أن يجلد بالسياط حتى الموت كل من لم يستطع من رجال الدين هؤلاء أن يدفع فدية قدرها ٥٠ روبلا ، كما جرد رئيس الأساقفة من ثوبه وسجن . وجاء في « سجل أحداث نفجورد الثالث » أنه قد أعقب هذا مذبحة الأهالي التي دامت خمسة أسابيع . وفي بعض الأحيان كان خمسمائة فرد يذبحون في اليوم الواحد ، وتقول البيانات الرسمية أن عدد القتلى بلغ ٢٧٧٠ ، واحتج إيفان بأنهم ١٥٠٥ فقط . ولما استقر في الأذهان أن التجار ، وهم مثلهفون

على إعادة فتح باب التجارة مع الغرب ، قد شاركوا في المؤامرة ، فقد أحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة ، ودمرت بيوت التجار في الضواحي ، وحتى البيوت في المزارع المجاورة للمدينة لحرقها التدمير : وما لم يكن رواة الأحداث في الأديار قد بالغوا في وصف المذبحة ، فإنه يجدر بنا أن نعود بالذاكرة إلى عقاب شارل الجريء لثوار ليبيج ١٤٦٨ ، وأعمال السلب والنهب في رومه على يد جنود شارل الخامس ١٥٢٧ ن نجد أمثلة شبيهة بانتقام إيفان الوحشى . ولم تستعد نفجرد قط تفوقها القديم في الحياة التجارية في روسيا . واتجه إيفان بعد ذلك إلى بسكوف حيث حظر على جنوده السلب والنهب ، ثم عاد أدراجه إلى موسكو حيث احتفل في حفلة فكريية ملكية بإفلاته من مؤامرة خطيرة .

إن حكماً مثل هذا ممثلاً بالفن والشغب لا يكاد يساعد على التقدم الاقتصادى أو إنجاز الأعمال الثقافية . لقد انتعشت التجارة وقت السلم وانتكست زمن الحرب . وفي الأراضي المخصصة لطبقة الأوبرشنيكى ، وفي سائر الأراضي فيما بعد ، كان الفلاح ربيطاً قانوناً بالأرض ، على أساس أنه وسيلة للنموض بالزراعة المستمرة فيها (١٥٨١) على أن نظام الرق الذى كان نادراً في روسيا قبل ١٥٠٠ ، صار في ١٦٠٠ قانوناً من قوانين الأرض . وكانت الضرائب باهظة فاحشة ، واندفع التضخم المالى بشدة ، فكان الروبل في ١٥٠٠ يساوى ٩٤ ، وفي ١٦٠٠ يساوى ٢٤ من الروبلات في ١٩١٠ (١٤) . وليس بنا من حاجة إلى تتبع الهبوط إلى أبعد من ذلك ، إلا لنعلم ، كدرس من دروس التاريخ ، أن النقود هى آخر شىء يجدر بالإنسان أن يدخره .

وأرغم إسراف الأسر القصير النظر في الإنجاب وإرهاق التربة ، الناس على هجرة متواصلة لا تنهدأ إلى أراض بكر . فلما اجتاز المهاجرون جبال الأورال وجدوا أمامهم مملكة للتتار سكانها من قبائل الشكير المسلمة

Bashkirs وقبائل أوستياك (قبائل من الفنلنديين والماجيار في غرب سيبيريا) . تعرف عاصمتها باسم سيبير Sibir (وهي من ألفاظ القوزاق) . وفي ١٥٨١ جند سيمين ستروجانوف ٦٠٠ من القوزاق وأرسلهم تحت قيادة إرماك تيهوفيتش لغزو هذه القبائل ، وقد تم له ذلك ، وأصبحت سيبيريا الغربية جزءاً من المملكة الروسية المتضخمة . أما إرماك الذي كان من زعماء قطاع الطرق فقد مجدته الكنيسة الأرثوذكسية ، وضمته إلى قائمة القديسين .

وكانت الكنيسة هي الحاكم الحقيقي لروسيا ، لأن خشية الله كانت سائدة في كل مكان ، على حين كان سلطان إيفان محدوداً . وكانت قواعد الطقوس الدينية ، إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق ، تقيد الجميع ، حتى القيصر نفسه ، وكان الكهنة يراقبون هل غسل يديه بعد مقابلته لسفراء الدول من خارج نطاق الأرثوذكسية . وكانت الصلاة وفق الطقوس الرومانية الكاثوليكية غير مرمخص بها ، أما البروتستانتية فقد تسامحوا معها على أساس المشاركة في العداء للبابا في رومة . وكان إيفان الرابع - مثل هنري الثامن - يزهو بعلمه في اللاهوت ، وانغمس مرة في مناقشة عامة في الكرملين مع كاهن لوثرى من بوهيميا ، ويجب أن نسلم بأنه ، وهو أعنف القياصرة ، أدار المناقشة في كياسة أكثر مما بدا في المناوعات الدينية في ألمانيا لمعاصرة (١٥) . ولكن إيفان لم يتصرف بمثل هذه الكياسة مع رجل لاهوتي آخر ، ذلك أنه ذات يوم أحد في سنة ١٥٦٨ أثناء الصلاة في كنيسة الصعود ، رفض فيليب مطران موسكو أن يمنح إيفان البركة التي توصل إليه فيها ، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات ولكن دون جدوى ، ولما سأل أتباعه عن سبب لهذا الرفض ، بدأ فيليب بعدد جرائم إيفان وفسوقه ، فصاح القيصر : « هدى من روعك وامنحني البركة » فأجاب المطران : « إن سكوتى يوقعك في الخطيئة ويستوجب هلاكك » . وغادر إيفان المكان دون أن يمنح البركة . وظل فيليب شهراً تعروه الدهشة والعجب والقلق ،

ولكن لم يمس فيه بسوء . وبعده دخل أحد خدم القيصر الكاتدرائية وقبض على المطران وساقه إلى أحد السجون في تفر . ولا يعلم مصيره علم اليقين ، ولكن الكنيسة الروسية تؤيد القول بأنه أحرق حياً . وفي ١٦٥٢ ضم إلى قائمة القديسين ، وبقيت رفاته حتى ١٩١٧ موضع إجلال وتبجيل في كنيسة صمود العذراء .

وظلت الكنيسة تنتج معظم الأدب والفن في روسيا . ودخلت الطباعة في سنة ١٤٩١ ، ولكن اقتصر المطبوع طوال هذا العهد على كتب الصلوات وكان زعيم العلماء آنذاك هو المطران مكاريوس ، الذي شرع في ١٥٢٩ ، بمعونة بعض السكرتيرين في جمع ما تبقى من آداب بلده في اثني عشر مجلداً ضخماً ، ومرة أخرى نرى أن معظمها كان دليلاً تماماً . وفي الكثير الغالب يتعلق بالآديار ووقائع التاريخ حسب ترتيب حدوثها . والف ملفستر معلم الاعتراف لإيفان كتاباً مشهوراً هو « كتاب الأسرة » ، بمثابة دليل للاقتصاد المنزلي والسلوك ، والخلاص الأبدي ، ولما نلاحظ فيه حث الزوج على أن يضرب زوجته برفق ، وتعليمات دقيقة لآداب البصق والمخاط (١٦) . ولم يكن إيفان نفسه ، كما تدل رسائله ، أقل كتاب هذا العصر براعة وقوة .

وكان أروع إنتاج فني روسي في عهد إيفان هو كنيسة « بازل المبارك » التي لا تزال قائمة بعيداً عن الكرملين في أحد أطراف الميدان الأحمر . ولدى عودة القيصر من حملاته الظافرة ضد كازان وأستراخان (١٥٥٤) شرع في بناء ما أسماه كاتدرائية « شفاعة العذراء » وهي التي نسب إليها انتصاراته بحكمة . وحول هذا المقام المتوسط من الحجر ، شيدت فيما بعد سبعة معابد من الخشب خصصت لقديسين كان إيفان قد تغلب على أعدائه في أيام أعيادهم . وتوج كل معبد منها بقبة رشيقة مزدانة بالرسوم ، وكانت القباب كلها بصلية الشكل ، وإن اختلفت زخرفة كل منها . وأضنى آخرها وهو

الذى أقيم للقديس بازل في ١٥٨٨ : أضفى اسمه في وقت لاحق ، على هذه المجموعة الرشيدة الفاتنة . وتنسب أسطورة لا يمكن التغاضي عنها هذه العمارة إلى أحد الإيطاليين . وتروى كيف أن إيفان فقاً عبقريه لثلاثينافس هذه التحفة الفنية الرائعة . ولكن اثنين من الروس : بارما وبوستنيكوف هما اللذان وضعوا التصميم ، ولكنهما اقتبسوا بعض حركات عصر النهضة في زخرفتها فحسب (١٧) . ويوم أحد السعف من كل سنة ، كجزء من حكمة الدولة ، سار سادة موسكو ورجال الدين فيها في مركب رهيب إلى هذه الكاتدرائية ، على حين امتلأ المطران صهوة جواد مزود بأذان صناعية ، ليقلد الحمار الذي قيل إن السيد المسيح كان يركبه عند دخوله أورشليم ، وسار القيصر على قدميه يقرء حصان المطران في تواضع وخشوع ممسكاً بلجامه ، وكانت تحف بالموكب الأعلام والصلبان والأيقونات وحملات المباخر ، على حين ردد الأطفال عبارات الشكر والثناء تضرعاً إلى السماء لتبارك الحياة في روسيا .

وما أن وافى عام ١٥٨٠ حتى بدا أن إيفان قد انتصر على كل أعدائه . وكان قد بقي على قيد الحياة بعد وفاة عدد من الزوجات ، وبني بزوجة سادسة . وفكر في اتخاذ زوجة أخرى عن طريق المضارة الودية (١٨) (الزواج باثنتين في وقت واحد) . وكان له أربعة أولاد ، مات أولهم في طفولته ، وكان الثالث فيودور يعاني من تخلف عقلي . أما الرابع ديمتري ، فزعموا أنه كان بنوبات صرع . وفي أحد أيام شهر نوفمبر ١٥٨٠ أنب القيصر زوجة ابنه الثاني « إيفان » وضربها ، لما بدا له من أنها ترتدى ثوبا يتنافى الحشمة والوقار . فأجهضت ، فما كان من ابن القيصر إلا أن وجه اللوم إلى أبيه . فضرب القيصر ابنه في سورة الغضب دون ترو بالعصا الملكية على رأسه فمات الابن لتوه من أثر الضربة . فجن جنون القيصر ندما على فعلته ، وقضى أيامه وليلالي بصرخ صراخاً عالياً من الحزن والأسى . وكان يقدم

تنحيه عن العرش صباح كل يوم ، ولكن حتى أعضاء المجلس أنفسهم أصبحوا الآن يؤثرونه على أبنائه : وعاش إيفان ثلاث سنين بعد ذلك ، ثم أصابه مرض غريب ، جعل جسمه يتورم وتنبعث منه رائحة مثقنة . وفي ١٨ مارس ١٥٨٤ قضى نحبه وهو يلعب الشطرنج مع بوريس جودونوف ، وتناثرت الإشاعات تتهم بوريس بأنه دس له السم ، وأعد المسرح لأوبرا عظيمة في تاريخ القياصرة .

ويجدر بنا ألا ننظر أن إيفان الرابع كان مجرد غول متوحش . ونظراً لطول قامته وقوته كان يمكن أن يكون وسيماً ، لولا أنفه العريض المسطح الذي كان يعلو شارباً منتشراً ولحية كثة حمراء . لقد ترجمت خطأ لفظة Groznyi بلفظة الرهيب Terrible والأرجح أنها تعني « المرعب » ، Awesome ، مثل لفظة أغسطس التي أطلقت على القياصرة (الرومان) ، وقد أطلق على إيفان الثالث نفس اللقب كذلك . وفي نظرنا ، وحتى في نظر معاصريه القساة ، كان إيفان الرابع قاسماً تواقاً إلى الانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز ، وقاضياً لا يستشعر الرحمة : لقد عاصر محاكم التفتيش في أسبانيا ، وإحراق سرفيتس^(١٩) ، وعادة هنري الثامن في ضرب العنق ، واضطهاد الملكة ماري ، وما بحة سانت برثلمي . ويقال إنه عندما سمع بهذه المذبحة أنكر همجية الغر^(٢٠) (ولو أن أحد الباهوات رحب بالمذبحة وامتنحها) . لقد كان ثمة أشياء تثير غيظه وحققه ، وتذكي النار في مزاج سريع الانفعال أكسبته الوراثة والبيئة عنفاً : ويقول شاهد عيان إنه كان في بعض الأحيان يرغب من فمه - كما يفعل الحصان^(٢١) - نتيجة مضايقة صغيرة أو الزعاج يسير ، ولقد اعترف القيصر بخطاياہ وجرائمه بل بالغ فيها أحياناً ولم يكن على أعدائه إلا أن ينتحوا منها اتهاماتهم له .

(*) Servetus ١٥١١ ، ١٥٥٣ طبيب وعالم لاهوت أسباني أحرق وهو مشدود

إلى خازوق في جيف لاثامه بالزندقة .

وأكب على الدرس والتحصيل فى حماسة ؛ وجعل من نفسه أحسن متعلم من غير رجال الدين فى بلده وفى زمانه ؛ وكان يتميز بروح المرح والدعابة ، ويضحك ضحكات عالية بملء شقيقه ، ولكن غالباً ما كانت ابتسامته تنم على الدهاء الخفيف . غطى شروعه بالنيات والمقاصد الرائعة ، فكان يريد أن يحمى الفقير والضعيف من الغنى والقوى ، ويحافى التجار والطبقات الوسطى كبحاً لجماع الأرستقراطية الإقطاعية المشاكسة ، كما كان يرغب فى فتح باب للتجارة والأفكار على الغرب ، ويزود روسيا بطبقة جديدة من الإداريين الذين لا يتقيدون — كما تنفيد أعضاء المجلس — أبناء الطبقة العليا — بالأساليب العتيقة الجامدة ، ويحرر روسيا من ربة التتار ، وينتشلها من وهدة للفوضى إلى الوحدة ؛ وكان القيصر همجياً يناضل نصلاً وحشياً ليرقى سلم الحضارة .

وأخفق إيفان لأنه لم ينضج قط إلى حد السيطرة على النفس . وكادت أن تنسى فى غمرة الانقلاب تلك الإصلاحات التى كان قد خططها ؛ وترك الفلاحين خاضعين لملاك الأرض خضوعاً أشد وأنكى من ذى قبل . وأوصد بالحروب أبواب التجارة ، وساق الرجال القادرين إلى أسلحة العدو ، وشطر روسيا إلى قسمين متناحرين ، وسار بها إلى الفوضى . . وضرب لشعبه مثلاً مفسداً للقسوة المتسمة بالورع وللأهواء الجامحة ؛ وقتل أحسن أبنائه مقدرة وكفاية . وأسلم عرشه إلى شخصية ضعيفة أدى عجزها إلى الحرب الأهلية ؛ لقد كان إيفان واحداً من كثيرين من رجال عصره ، الذين يمكن أن يقال عنهم إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط .

الفصل الثلاثون

عبقرية الإسلام

١٢٥٨ - ١٥٢٠

صمد العالم الإسلامى من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، مثل تلك الحملات الدينية العنيفة التى أخضع بها فيما بعد البلقان ، وحول ألفاً من الكنائس إلى مساجد . ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات ، نقول دفعت بملوك أوروبا وفرسانها ورعاها ضد قلاع المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر وتونس . وعلى الرغم من إخفاق هذه الهجمات آخر الأمر ، فإنها أضعفت نظام هذه الدول الإسلامية ومواردها إضعافاً خطيراً . وكان الصليبيون قد نجحوا فى أسبانيا حيث هزم المسلمون وأخرجوا ، ولكن بقاياهم تجمعوا فى غرناطة التى تأخر قدرها المحتوم بعض الوقت ، وكان النورمانديون الأشداء قد أخذوا صقلية من المسلمين . ولكن أين هذه الجراح والتمزيق من انقضااض المغول الوحشى المدمر (١٢١٩ - ١٢٥٨) على بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ؟ وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية ، المدينة تلو الأخرى ، للسلب والنهب والمذابح والحريق - بخارى ، سمرقند ، بلخ ، ليسانبور ، الرى ، هراة ، بغداد . وأسقطت الحكومات الإقليمية والمحلية ، وأهملت القنوات وتركزت للرمال التى تذروها الرياح ، وأكهرت التجارة على الفرار ، ودمرت المدارس والمكتبات ، وتشتت الدارسون ورجال العلم أو ذبحوا أو استعبدوا . وتحطمت روح الإسلام لنحو قرن من الزمان

ثم انبعثت من جديد في بطنه ، ثم اكتسح تبار بتمورلنك غربي آسيا بدمار جديد ، وشق الأنراك العثمانيون طريقهم عبر آسيا الصغرى إلى البسفور ، ولم تعرف حضارة أخرى في التاريخ مثل هذه الكوارث عدداً وانتشاراً وشمولاً .

على أن المغول والتتار والأنراك أتوا بدمهم الحديد ليحل محل أنهار الدماء البشرية التي كانوا قد سفكوها . وكان الإسلام صار مترفاً فاتر الحمّة ، وكانت بغداد - مثل القسطنطينية - فقد فقدت إرادتها في امتشاق الحسام للدفاع عن النفس ، وأغرم الناس هناك بالحياة اللينة الهينة الرخية إلى حد الإشراف على الموت ، إن تلك الحضارة الرائعة - مثل الحضارة البيزنطية ، أُنِعت لتدوى وتذبل . ولكنها كانت غنية - مثل اليونان القديمة وإيطاليا النهضة - إلى حد القدرة على تمدين غزاتها ، بفضل ما أنقذ من شتاتها وذكرياتها ، وأنشأت فارس تحت حكم خانات المغول حكومة مستنيرة وأنتجت أدباً جيداً وفناً عظيماً ، وشرفت التاريخ بعالم جليل هورشيد ندين . وفيما وراء النهر ، بنى تيمورلنك وعمر ، بشكل مؤثر ، قدر ما كان قد خرب ودمر . ووسط حملات السلب والنهب التي كان يشنها ، توقف ليكرم حافظ الشيرازي : وفي الأناضول كان الأتراك فعلاً متحضرين . وكان الشعراء بينهم من الكثرة قدر كثرة المحنليات أو الخليلات . وفي مصر استمر المحاليات في إقامة الأبنية بناء العمالة الجبارة . وفي غربي إفريقيا أنجب الإسلام فيلسوفاً مؤرخاً ، كان يبدو إلى جانبه أعظم علماء المسيحية المعاصرة بمثابة حشرات صغيرة تقع في الشرك وتموت جوعاً وسط عناكب الفلسفة النصرانية في العصور الوسطى . وفي نفس الوقت كان الإسلام ينتشر في الهند إلى أقصى الشرق .

١ - الأيلخانات في فارس

١٢٦٥ - ١٣٣٧

عندما سار ماركو بولو في ١٢٧١ عبر فارس ليرى الصين على عهد قبلاى خان ، وجد نفسه وسط إمبراطورية المغول . ولم يكن التاريخ قد سجل من قبل قط مملكة مترامية الأطراف مثلها . ففي الغرب لامست شواطئ نهر الدنيير في روسيا ، وفي الجنوب شملت القرم والعراق وفارس والتبت والهند حتى ضفاف نهر الكنج . وفي الشرق طوقت الهند الصينية والصين وكوريا ، وفي الشمال كان يقع موطنهم الأصلي منغوليا . وفي كل هذه البلاد تعهد حكام المغول الطرق ، ونهضوا بالتجارة ، وقاموا على حماية السائحين والمسافرين ، وأطلقوا حرية العبادة لمختلف العقائد .

لقد أسس هولاكو حفيد جنكيز خان ، بعد تدمير بغداد ١٢٥٨ ، عاصمة جديدة اسمها المراغة شمال غربي فارس . ولما مات ١٢٦٥ أصبح ابنه « أباقا » خان أو أمير فارس ، وخضع خضوعاً غير ثابت لقبلاى خان ، على بعد الشقة بينهما . ومن هنا بدأت أسرة الأيلخانية التي حكمت فارس والعراق حتى ١٣٣٧ . وكان أعظم أفراد هذه الأسرة هو غازان خان ، الذي كاد أن يكون أقصر رجال جيشه قامة ، ولكن إرادته كانت أقوى من أسلحتهم . وطرح غازان ولاءه للخان الأكبر في منغوليا أو الصين وجعل من دولته مملكة مستقلة ، واتخذ من تبريز عاصمة لها ، وقدم للإمام الرسل من الصين والهند ومصر وإنجلترا وأسبانيا : وقد أصلح الإدارة ، وثبت العملة ، وحى الفلاحين من ملاك الأرض ومن اللصوص ، وساد الرخاء بدرجة تذكر ببغداد في أزهى أيامها : وشيد في تبريز مسجداً ومدرستين وأكاديمية للفلسفة ومرصداً ومكتبة ومستشفى . ووقف دخول أراض معينة ، وفقاً دائماً للإتفاق على هذه المنشآت ، ووفر لها أعظم العلماء والأطباء ورجال

العلم في دلك العصر . وكان هو نفسه واسع الثقافة . وكان يعرف عدة لغات ، واضح أن من بينها اللاتينية^(١) . وشيد لنفسه مقبرة بلغت من الفخامة والضعامة مبلغاً ظن معه أن موقه (١٣٠٤) كان بمثابة دخوله ظافراً منتصراً إلى مقر أشرف وأعظم .

ووصف ماركو بولو تبريز بأنها « مدينة عظيمة متألقة » . وقال عنها فرا أودريك Fra Oderic (١٣٢٠) « لأنها أجمل مدينة في العالم للتجارة ، فهنا توجد أية سلعة بكميات وفيرة . . . » ويقول المسيحيون هنا « إن للدخل الذى كانت تدفعه المدينة لحاكمها يفوق ما تدفعه فرنسا كلها للملكها »^(٢) هذا بالإضافة إلى « المباني الأنيقة والمساجد الفخمة » ، « وأروع الحمامات في العالم »^(٣) . وقدر أودريك أن عدد سكانها يبلغ مايقرب من الأنفس .

وتابع أوبخايتو السياسة المستنيرة التى انتهجها أخوه غازان . وشهد عصره بعضاً من أروع العمارة والزخرفة في تاريخ فارس ، وإن سيرة قاضى قضائه رشيد الدين فضل الله لتوضح ازدهار التعليم والثقافة والآداب في هذا العصر . وولد رشيد الدين سنة ١٢٤٧ في همدان ، وربما كان أبواه من اليهود ، كما قال أعداؤه ، مستشهدين بسعة اطلاعه وعلمه بالشرعية الموسوية . ولقد خدم رشيد الدين الخان أباقا كطبيب له ، وغازان بوصفه كبيراً للوزراء ، وأوبخايتو بوصفه صاحب بيت المال . وشيد في إحدى الضواحي شرق تبريز حياً جديداً أسماه « ريع الرشيد » ، وهو مركز جامعى فسيح ، وفي رسالة له محفوظة في مكتبة جامعة كمبرج يصف هذا المركز فيقول :

« لقد شيدنا نزلاً شاهقاً يناطح السحاب ، و ١٥٠٠ حانوت

تفوق الأهرام في رسوخها ، و ٣٠٠٠٠ منزل فاته كما

شيدت فيها الحمامات الصحية والحدائق الغناء والمخازن والمطاحن ومصانع النسيج والورق . ونزع الناس من كل حذب وصوب إلى هذا الربع ، وكان من بينهم مائتان من قراء القرآن ، وزودنا بالمساكن ٤٠٠ آخرين من العلماء ورجال اللاهوت ورجال القانون وعلماء الحديث ، في شارع سعى « شارع العلماء » . وأجرينا على هؤلاء جميعاً رواتب يومية وأرزاقاً ومخصصات سنوية للملابس ، ومبالغ من المال لشراء اللصايون والخلوى . وأتينا كذلك بألف طالب ، وأصدرنا الأوامر بصرف الأرزاق والمخصصات اليومية لهم ، حتى يتفرغوا في راحة وأمان ، لطلب العلم ونفع الناس به . كما حددنا كذلك ، من من الطلبة ، وكم منهم يدرسون مع كل أستاذ أو معلم . وبعد التحقق من صلاحية كل طالب وقدرته على فرع الدراسة الذي يريد التخصص فيه ، أمرناه بأن يتعلمه .

وأولينا عنايتنا ورعايتنا بصفة خاصة ويطارق شتى ، لخمسين طبيباً داهرا جاءوا من الهند وأندونيسيا ومصر وسوريا . فأمرنا بأن يترددوا على دار الشفاء كل يوم ، وأن يتعهد كل منهم عشرة طلاب صالحين لدراسة الطب ، ويدربهم على ممارسة هذا الفن الجليل . كما أمرنا بأن يعهد إلى أطباء النظارات والجراحين وأطباء العظام الذين يعملون بدار الشفاء ، بخمسة من أبناء موظفينا وحاشيتنا ليتعلموا طب العيون والجراحة وطب العظام . ولكل هؤلاء الرجال شيدنا حياً خلف دار الشفاء . . . سعى « شارع الأطباء » . كذلك استقرت كل جماعة من أرباب الحرف ورجال الصناعة الذين أتينا بهم من مختلف البلاد ، في شارع سعى باسمها « (٤) » .

وخلق بنا أن يتولانا أشد العجب والدهشة لرجل وجد ، مع إسهامه النشط
إدارة شئون المملكة ، من الوقت والمعرفة ما استطاع معه تدوين خمسة
كتب في اللاهوت ، وأربعة في الطب وفي نظم الحكومة ، وكتاباً من عدة
مجلدات في تاريخ العالم . وفوق ذلك يؤكد لنا أحد المسلمين المعجيين أن
رشيد الدين استطاع أن يخصص لتأليفه فترة ما بين صلاة الفجر وشروق
الشمس . ومهما يكن من أمر فإن هناك أياماً تتلبد فيها السماء بالغيوم حتى
في أذربيجان . وقضى رشيد الدين سبع سنين في كتاب « جامع التواريخ »
ونشره في مجلدين ضخمين ، ويقتضى نشره بالإنجليزية سبع مجلدات . وضمنه
بيانات جوهريّة عن المغول من جنكيزخان إلى غازان ، وعن مختلف الدول
والأسرات الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربيّه ، وعن فارس واليهود
قبل بعثة الرسول وبعدها ، وعن الصين والهند ، مع دراسة مستفيضة لبوذا
والبودية ، مع موجز مبسط لأعمال وأفكار ملوك أوروبا وبابواتها وفلاسفتها ،
ويشهد كل الذين قرأوا هذه المجلدات - ولو أنها لم تترجم بعد إلى أية لغة
أوربية - بأنها أقيم عمل في النثر الأدبي في فارس . ولم يستفد رشيد الدين
من محفوظات حكومته فحسب ، ولكنه استخدم كذلك علماء من الصين
ليؤمنوا له المعاهدات الصينية وغيرها من الوثائق ، ويبدو أنه قرأها مع غيرها
من المراجع العربية والعبرية والتركية والمغولية ، كل في لغته الأصلية (٥) .

ورغبة في نقل هذه المجموعة الوافية من التواريخ إلى الأعقاب رغم الزمن
والحرب ، أرسل رشيد الدين نسخاً من هذا الكتاب إلى المكتبات هنا وهناك ،
وترجم إلى العربية ووزع هـ وخصص أموالاً لكتابة نسخة بالعربية وأخرى
بالفارسية في كل عام ، لإهدائها إلى إحدى المدن في العالم الإسلامي . على أن
كثيراً من هذا الكتاب مع مؤلفاته الأخرى قد ضاع ، وربما يرجع هذا إلى
الكارثة السياسية التي حلت به . ذلك أنه في سنة ١٣١٢ أشرك الأمير أوبلجابتو
على شاه مع رشيد الدين في الإشراف على بيت المال ، وفي زمن « أبي سعيد ،

الذى خلف أوجابتو ، نشر على شاه مختلف الاتهامات ضد زميله رشيد الدين ، وأغرى الخان بأن رشيد الدين وابنه إبراهيم كانا قد دسا السم لأوجابتو . فعزل المؤرخ (رشيد الدين) وسرعان ما أعدم (١٣١٨) وهو فى سن السبعين ، مع أحد أبنائه ، وصودرت ممتلكاته ، وحرمت مؤسساته من العطايا والمنح ، ونهبت ضاحية « ربع رشيد » ودمرت .

وقام أبو سعيد بترضية متأخرة ، ذلك أنه عين ابنا آخر من أبناء المؤرخ وزيراً له ، ونهج غياث الدين سبيل الحكمة والعدالة فى إدارة دفة الحكومة . وأعقب موت أبى سعيد فترة من الفوضى ، ووضعت نهاية لحكم أسرة الأيلخانية ، وانقسمت مملكتهم إلى ولايات صغيرة دمرتها الحرب ، وخلصها الشعر .

٢ - حافظ الشيرازى

١٣٢٠ - ١٣٨٩

ما كان أكثر من ينظم القصيد فى فارس . وكان الملوك يكرمون الشعراء الذين لم يتقدم عليهم فى الخطوة بهذا التكريم والتبجيل إلا الخطايا والحفاظون والقواد . وفى زمن حافظ طبقت الآفاق شهرة عشرين من الشعراء ، وذاع صيتهم من البحر المتوسط إلى نهر الكنج ، ومن اليمن إلى سمرقند ، ولكنهم جميعاً ، على أية حال ، أحنوا رموسهم لإجلالاً لشمس الدين محمد - المشهور باسم حافظ الشيرازى - وأكبدوا له أنه بز « الشيخ سعدى » الشاعر الرخيم نفسه . وارتضى حافظ هذا التقدير ، وأخذ يحدث نفسه فى احترام قائلاً :

« قسما بالقرآن الذى تعبى فى صدرك يا حافظ ، لم أرقط أجمل من شعرك » (٦) .

« وحافظ » لفظة معناها « التذكور » الذى يحفظ ويتذكر ، وهو لقب

أطلق على كل من حفظ القرآن كله — مثل شاعرنا — ولم يعرف تاريخ ميلاده ، وأبواه غير معروفين . وسرعان ما أقبل على الشعر : وكان أول من رعى الشاعر واحتضنه هو « أبو إسحق » الذى عينه غازان خان حاكماً على جنوب إيران . وأولع أبو إسحق بالشعر أيما ولع ، وأهمل شئون الحكومة . ولما جاءه النذير بأن بعض القوات المعادية تعدل للعدا لمهاجمة عاصمته « شيراز » ، قال إنه لسفيه ذلك الرجل الذى يضيع مثل هذا الربيع الجميل فى الحرب . ولكن قائداً متبلداً الشعور هو « مبارز الدين محمد بن المظفر » استولى على شيراز وقتل أبا إسحق (١٣٥٢) ، وحرّم شرب الخمر وأغلق كل حانة فى المدينة . وفى هذا كتب حافظ مرثية حزينة قال فيها :

« رلو أن الخمر تبعث السرور ، والريح تنشر أريج الورد ،

لا تشربوا الخمر على أنغام القيثارة لأن المحتسب يقظ .

وخيثوا الطاس فى أكمام عباءتكم المرقعة ،

لأن الزمن يسفك الدماء ، كما ينسكب الخمر من عين الإبريق الدامعة ،

واغسلوا بدموعكم ما تلتطخ بالخمر من أرديتكم

لأن هذا موسم الورع وزمن التقشف والتعفف » (٧) .

ولما وجد خليفة ابن المظفر أن تحريم الخمر أمر غير عملى ، أو تبين أن

شاربى الخمر أسلس قياداً وأيسر حكماً من المتطهرين المنزمتين ، أعاد فتح

أبواب الخانات ، وخلد حافظ اسمه .

وسار شاعرنا على تقاليد الفرس فى نظم كثير من القصائد فى الخمر ،

واعتبر فى بعض الأحيان أن زجاجة من الخمر « تسمو على تقبيل العذارى » (٨) .

ولكن حتى الكروم تجف وتذوى بعلي ألف مقطع من الشعر ، وسرعان

ما تبين حافظ أن الحب ، عذرياً كان أو عملياً ، لا يستغنى عنه الشعر .

« هل تعرف ما هو الحظ السعيد ؟ إنه الظفر بنظرة إلى غادة
هيفاء ، إنه التماس صدقة منها في زقاقها ، وازدراء أبهة الملك » (٩) .
وبدا له الآن أن الحرية ليست حلوة مثل حلوة العبودية في الحب .

« إن عمرنا قصير ، ولكن طالما أننا قد نفوز

بالمجد وهو الحب ، فلا تحتقر

الإصغاء إلى توسلات القلب ،

فإن سر الحياة سوف يبقى فيما وراء العقل ،

فاهجر عملك إذن وقبل حبيبته الآن .

إني لأمنح العالم كله هذه النصيحة الغالية ،

عندما تتفتح أزهار الربيع ، وتهجر الريح الطاحون

وتزلق برفق لتقبل الغصن المورق .

أى حسناء شيراز ، امنحني أمنية الحب ،

ومن أجل شامتك — تلك الحبة من الرمل العالقة

بصفحة خد من اللؤلؤ — سوف يمنحك حافظ

كل بخارى ، وكل سمرقند .

آه لو دخلت مع القدر في رهان مرة ،

لحاولت برمية واحدة ، مهما كان الثمن ،

لألتقط أنفاسي ، أيها الحب اجمع بيننا ،

فا حاجتي بعد ذلك إلى الجنة ،

إن الذى خلق غداثر شعرك من ذهب وفضة ،

وجمع بين الوردة الحمراء والوردة البيضاء

وأسلم إليهما خدك في شهر العسل

أليس بقادر على أن يمنحني الصبر ، وأنا ابنه (١٠) .

ويبدو أنه آخر الأمر ، قد هدأت نفسه بالزواج ، فلو فسرنا قصائده
الرقيقة تفسيراً صحيحاً ، فإنه وجد زوجة وأنجب عدة أطفال ، قبل أن
يحزم أمره بين الفسء والخمر . ويبدو أنه في بعض أشعاره يرثيها ويتألم لفراقها :

« سيدتى ، يا من حولت بيتى

إلى فردوس حين حلت به ،

من أخص القدم إلى قمة الرأس كان ثمة ملك

من عند الله أحاطها بعنايته ، كانت طاهرة ، مبرأة من الإثم ،

جميلة المحيا مثل القمر ، عاقلة ،

وعيناها ذواتى النظرة العطوفة الناعمة

كافتنا تشعان فتنة لا حدود لها

ثم حدثنى قلبى : هنا سوف يستقر بي المقام !

فإن هذه المدينة تنفّس بحبها فى كل ركن منها .

ولكنها نقلت إلى عالم بعيد قصى ،

للأسف لم يعرفه قلبى ، واأسفاه أيها القلب المسكين !

إن نجماً خبيثاً شريراً أعمل أثره

فأرخى قبضة يدي التى كانت تمسك بها ، ووحدها بعيداً

رحلت من كانت تسكن فى صدرى » (١١) .

ومهما يكن من أمر فقد ألف المقام ، وركن إلى العزلة الهادئة ، وقلما
ارتحل إلى خارج شيراز ، وقال إنه يترك لقصائده أن تجوب الأرض بدلا
من شخصه ، وكم دعى إلى بلاط كثير من الملوك والأمراء . وأقع للحظة
وجيزة بقبول دعوة من السلطان أحمد بالإقامة فى القصر الملكى فى بغداد (١٢) ،

واكن حبه لشيراز أبقاه حبساً بها ، وكان يشك في أن بالحنة نفسها مثل هذه الأنهار الفاتنة أو مثل هذه الورود الحمراء في شيراز . وكان بين الحين والحين يوجه قصائد المديح إلى أمراء الفرس في عصره أملاً في عطايا أو جوائز تخفف من ألم الفقر الذي كان يعاني منه ، لأنه لم يكن في فارس ناشرون لينقلوا نفثات الإبراع عبر البحار ، وكان على الفنان (أى الشاعر) أن ينتظر على أبواب النبلاء والملوك . والحق أن شاعرنا « حافظ » كاد أن يرحل يوماً إلى الخارج ، ذلك أن أحد أمراء الهند لم يبعث إليه بالدعوة فحسب ، بل زوده كذلك بالمال اللازم لنفقات الرحلة ، فأقنع حافظ ووصل إلى هرمز على الخليج الفارسي ، وكان على وشك الركوب في السفينة فهبت عاصفة هوجاء حولته عن عزمه ، وحببت إليه الاستقرار . فعاد أدراجه إلى شيراز ، وبعث إلى الأمير الهندي بقصيدة يدلل من شخصه .

ويضم ديوان حافظ ٦٩٣ قصيدة معظمها غنائية ، وبعضها رباعيات ، وبعضها الآخر شذرات غير واضحة المعنى . وهى أصعب في ترجمتها من أشعار دانتى ، زاخرة بقواف كثيرة مما يجعل منها في الإنجليزية شعراً غير مصقول محط الوزن ، كما تعج بالإشارات والتلميحات المبهمة التى كانت تبهج عقول الناس في ذاك الزمان ، ولكنها الآن ثقيلة على السمع فى الغناء ، والأفضل أن توضع نثراً فى الغالب :

وكاد الليل أن ينصرم ، حين جذبني أريج الورود ، فدلفت إلى الحديقة ، مثل العنديل ، أفقش عن بلسم اللحمى التى انتابت .
وهناك فى الظل تألفت وردة ، وردة حمراء كأنها مصباح محجب ، فحدقت النظر فى محياها ،

إن الوردة فاتنة لجرد أن وجه محبوبتى فاتن . . . وماذا يكون غير المروج ، والتسيم الذى يهب فى الحديقة ، إذا لم يكونا

لحد محبوبتي الذي يشبه الخزامى (التيوليب) ؟
وفي ظلمة الليل حاولت أن أطلق قلبي من رباط غداثر شعرك
ولكني أحسست بلمسات خدك ورشفت رحيق شفقتك ، وضمتك
إلى صدرى . ولفنى شعرك وكأنه لهب . وأصمقت شفقى
بشفقتك ، وأسلمت قلبي ونفسى لك كأنهما فدية (١٣) .

وكان حافظ إحدى النفوس الموهوبة الصادية المنهوكة ، إذ تستجيب
وتتأثر - عن طريق الفن والشعر والمحاكاة والرغبة شبه اللاواعية ، تستجيب
وتتأثر بالجمال إلى حد الرغبة في عبادته ، فترغب بالعينين وبالألفاظ
وبأطراف الأنامل ، أن تعبد أى شكل جميل ، سواء كان نحتاً على حجر
أو رسماً أو آدمياً أو زهرة ، ونعاني في صمت مكبوت كلما ألم بها الجمال ،
ولكن هذه النفوس أيضاً تجد فيما تفاجأ به كل يوم من فتنة أو سحر أو جمال
جديد ، بعض المغفرة لقصر عمر الجمال ولسلطان الموت . ولذلك خلط
حافظ التجديف بالعبادة ، وانساق في هرطقة غاضبة حتى في الوقت الذي
كان فيه يثني على « الواحد الأحد الخالد » وهو المصدر الذي يفيض منه كل
جمال على الأرض .

والتمس كثير من الناس أن يصفوا عليه احتراماً ووقاراً ، بتفسير خمره
بأنها نشوة روحية ، وحافاته بأنها أديار ، ولهبه بأنها « النار المقدسة » :
صحيح أنه أصبح متصوفاً وشيخاً ، وارتدى ملابس الدراويش ، ونظم
قصائد صوفية غامضة ، ولكن معبوداته الحقيقية كانت الخمر والمساء والغناء ،
وبدأت حركة المحاكاة بوصفه زنديقاً كافراً ، ولكن أفلت منها بالتوسل بأن
قصائد الهرطقة كان يقصد بها أن يعبر عن آراء أحد المسيحيين ، لا عن آرائه
هو . ومع ذلك كتب يقول :

« أيها المتخمس ، لا تظن أنك بمنجاة من خطيئة الكبرياء ؛

فليس الفرق بين المسجد وكنيسة الكفار سوى الغرور (١٤) »

والكافر هنا بطبيعة الحال هو المسيحى : وبدأ فى بعض الأحيان لحافظ
أن « الإله » ما هو إلا شىء اختلقته آمال الإنسان :

« وهذا الذى يسوقنا فى هذه الأيام التى تمر كوميض البرق ،
هذا الذى نعبده رغم معرفتنا بمن يقنيه أو يذبجه ،
أنه هو نفسه قد يتولاه الحزن والأسى ، لأننا حين نفد
سيخفى هو أيضاً فى هذا اللهب نفسه » (١٥) .

ولما مات حافظ كانت عتميدته مشكوكاً فيها ، وكان مذهب المتعة عنده
لاصقاً به إلى حد الاعتراض على تشييع جنازته فى احتفال دينى ، ولكن
أصدقائه أنقذوا الموقف بتفسير أشعاره بالحجاز والاستعارة . وجاء بعد ذلك
جبل دفن رفاقه فى حديقة أطلقوا عليها « الحافظة » تزدان بورود شيراز ،
وتحقق نبوءة الشاعر بأن قبره سيكون « مزاراً يحج إليه عشاق الحرية من
جميع أنحاء العالم » ، وعلى لوح مقبرة حافظ المصنوع من المرمر نقشت
إحدى قصائده ، وهى عامرة بالروح الدينية العميقة أخيراً . وفيها :

« أين أنباء الوحدة ؟ حتى أنهض
من التراب ، سوف أصبحو لأرحب بك !
إن نفسى مثل الطائر الزاجل ، حنيناً منها إلى الجنة ،
سوف تصحو وتتوجع من شرور العالم التى أطلقت من عقالها .
وعند ما يهتف بى صوت حبك لأكون عبداً لك
سوف أصبحو إلى ما هو أعظم كثيراً من السيادة
على الحياة والعيش ، والزمن والعمر الثانى .
صب يا لئلى من سحب نعمتك الهادية
شأبيب الرحمة التى تسرع إلى قبرى ،

قبل أن أنهض ، مثل التراب الذى تلغوه الرياح من مكان إلى مكان ،
إلى ما وراء علم الإنسان .

وعندما تعرج بقدميك المباركتين إلى قبري ،
سوف تحضر بيدك الخمر والإغراء إلى ،
ولسوف يرن صوتك في طيات ملاءق الملفوفة ،
ولسوف أنهض وأرقص على غناء قيثارتك .
ورغم شيخوختي ، ضمنى ليلة إلى صدرك ،
لئلا ، عندما ينبثق الفجر ليوقظني ،
بنضارة الشباب في خلدي ، من بين أحضانك سوف أنهض .
انهض ! دع عيني تسرح وتمرح في نعمتك العظيمة !
أنت الهدف الذي حاول كل الناس الوصول إليه ،
أنت المحبوب الذي يعبدّه حافظه ، ووجهك
سوف يأمره أن ينبعث من الدنيا ومن الحياة ويصحو (١٧)

٣ - تيمور

١٣٣٦ - ١٤٠٥

عرفنا أول ما عرفنا عن التتار أنهم قوم رحل من آسيا الوسطى ، وأنهم
أنسباء وأقرباء ، وجيران للمغول ، وشاركوهم في الحملات على أوروبا .
ووصف كاتب صيني من القرن الثالث عشر تحدرهم ، وصفاً كثير الشبه
بما صور به المؤرخ جوردانيز أمة الهون قبل ذلك بألف سنة ، فالتتار قصار
المقامة ، كرهوا الطلعة والمحبا للغرباء عنهم ، يجهلون القراءة والكتابة ،
مهرة في الحرب ، يسددون سهامهم دون أن تطيش من فوق ظهر جواد
مسرّع ، ويحافظون على استمرار جنسهم أو عرقهم بالمواظبة على تعدد
للمزوجات . وكانوا في هجراتهم وحملاتهم ينقلون معهم كل متاعهم وأمراتهم
- الزوجات والأولاد والجمال والخيول والغنم والكلاب ، ويرعون الحيوانات

فما بين المعارك ، ويتغذون بلحومها وألبانها ، ويتخذون الملابس من جلودها . وكانوا يأكلون بنهم وشراهة عند توافر المؤن ، ولكن كانوا يحتملون الجوع والعطش والقيظ والقر ، « يصبر أكثر من أى شعب آخر فى العالم » (١٧) . وكانوا يتسلحون بالسهم المكسوة أطرافها أحياناً بالنفط الملتب ، وبالدفاع ، وبكل معدات العصور الوسطى للحصار ، ومن ثم كانوا أداة صالحة مستعدة لكل من كان يحلم بتأسيس إمبراطورية منذ كان فى المهد صبيّاً .

وعند ما مات جنكيزخان (١٢٢٧) وزع ملكه على أبنائه الأربعة : فأعطى جغتاي الإقليم المحيط بسمرقند ، وحدث أن أطلق اسم هذا الابن على قبائل المغول أو التتار التى حكمها . وولد تيمور (أى الحديد) ، فى مدينة « كesh » فى بلاد ما وراء النهر ، لأمر إحدى هذه القبائل . وطبقاً لما رواه كلافيجو Clavijo أذى « سوط الله » الجديد هذه المهمة منذ نعومة أظفاره : فنظم عصابات من صغار اللصوص لسرقة الغنم والماشية من المراعى المجاورة (١٨) . وفقد فى إحدى هذه المغامرات أصبعيه الوسطى والسبابة من يده اليمنى ، وفى مغامرة أخرى أصيب بجرح فى عقبه ، ومن ثم عرج ببقية أيام حياته (١٩) فلقبه أعداؤه Timur-i-Lang أى تيمور الأعرج ، ولكن الغربيين غير المدققين ، مثل مارلو حرفوا هذا الاسم إلى Tamburlane أو Tamerane . وقد وجد تيمور فسحة من الوقت لتلقى قليل من التعليم ، وقرأ الشعر ، وعرف الفرق بين المبادئ والانحلال . ولما بلغ سن السادسة عشرة ولاه أبوه زعامة القبيلة . وآوى إلى أحد الأديار ، لأن هذا الرجل العجوز (الوالد) قال عن الدنيا إنها ليست « أفضل من زهرية من الذهب مليئة بالثعابين والعقارب » (*) وقيل إن الوالد نصح ابنه أن يرعى الديانة دوماً ،

(*) هذا ، على أية حال ، منقول من مذكرات تيمور (٥ ، ١) المظنون أنه أملاها

فى أعوامه الأخيرة ، ولكن يشك فى صحتها .

واتبع تيمور هذه الوصية إلى حد تحويل الرجال إلى مآذن (تكديس بعضهم فوق بعض للتشكيل بهم) .

وفي سنة ١٣٦١ عين خان المغول « خوجه الياس » حاكماً على بلاد ما وراء النهر ، وعين تيمور مستشاراً له ، ولكن الشاب النشيط لم يكن قد نضج بعد لممارسة فن الحكم ، وتشاجر بعنف مع سائر موظفي خوجه الياس . وأجبر على الهروب من سمرقند إلى الصحراء . . . فجمع حوله عدداً من المحاربين الشبان ، وضم عصبته إلى عصابة أخيه الأمير حسين الذي كان في مثل ظروفه . وتجولوا من مكن إلى مكن ، حتى تهجرت أجسامهم ونفوسهم بسبب الأخطار والنشرد والفقر ، إلى أن واثامهم بعض الخط حين استخدموا لقمع فتنة في سيستان Sistan ، وما أن اشتد عود الأخوين حتى أعلنوا الحرب على خوجه الياس وخلعاه وذبجاه . وأصبحا حاكين في سمرقند على قبائل جغتاي (١٣٦٥) ، وبعد ذلك بخمس سنوات تأمر تيمور على ذبح الأمير حسين ، وأصبح السلطان الوحيد .

وتروى سيرة حياته المشكوك فيها ، عن عام ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) : « دخلت عامي الثالث والثلاثين ، ولما كنت دوم قلق البال لا يقر لي قرار ، فقد كنت تواقاً إلى غزو بعض البلاد المجاورة » (٢٠) . وكان يقضي أيام الشتاء في سمرقند ، وقل أن انقضى ربيع دون أن يخرج فيه إلى حملة جديدة . وقد لقن المدن والقبائل في بلاد ما وراء النهر أن تتقبل حكمه طواعية أو سلباً لا حرباً . وفتح ~~نهر~~ ^{نهر} ~~إيران~~ ^{إيران} وسيستان ، وأخضع المدينتين الغنيتين هراة وكابول ، وأحبط المقاومة والتمرد بما كان ينزل من عقاب وحشى . ولما استسلمت مدينة سبزاوار Sabzawar بعد حصار كلفه كثيراً ، أسر ألفين من رجالها ، « وكدسهم أحياء ، الواحد فوق الآخر ، وضرب عليهم بنطاق من الآجر والطين ، وأقام منهم مثذنة ، حتى إذا استيقن الرجال جبروت غضبه ، لا يعود يغوهم شيطان الصلف والكبرياء » . وهكذا روى القصة مادح

معاصر (٢١) . وغفلت مدينة زيريه Zirih عن هذه الحقيقة وأبدت مقاومة ، فأقام الغازي من رؤس أبنائها عدداً أكبر من المآذن . واجتاح تيمور أذربيجان واستولى على لورستان وتبريز ، وأرسل فنانيهما إلى سمرقند . واستسلمت أصفهان في ١٣٨٧ وارتضت بقاء حامية من التتاريها ، فلما غادر تيمور المدينة انقض السكّان على الحامية وذبحوا رجالها . فعاد تيمور بجيشه وانقض على المدينة وأمر كل فرد في جيشه أن يأتيه برأس واحد من الفرس . وقيل إن سبعين ألفاً من رموس الأصفهانيين علقت على أسوار المدينة أو أقيمت منها أبراج تزين الشوارع (٢٢) . فلما سكن روع تيمور وهدأت نفسه خفض الضرائب التي كانت المدينة تدفعها لحاكمها ، ودفعت سائر مدن فارس الفدية دون ضجة .

وتقول أسطورة أطرف من أن تصدق ، إنه في شيراز في ١٣٨٧ ، دعا تيمور أشهر مواطني المدينة إلى المثل بين يديه ، وقرأ عليه غاضباً سطوراً (من الشعر) كانت قد قدمت فيها مدينتا بخارى وسمرقند من أجل الحال في خد سيدة ، وقيل إن تيمور شكاً غاضباً وهو يقول : « إني بضربات سيفي اللامع الصقيل أخضعت معظم الأرض المعهورة لأزين بخارى ، وسمرقند ، مقرر حكومتى ، وأنت أيها التمس الحقيق تريد أن تبيعهما من أجل شامة سوداء في خد سيدة تركية في شيراز ! » وتؤكد الرواية أن حافظ النخى أمير وقال : « وأسفاه أيها الأمير ، أن هذا التبذير هو سبب لبؤس الذى ترانى فيه » . واستساخ تيمور هذا الجواب فأبقى على حياة الشاعر ومنحه هدية سنوية . ومما يؤسف له أن أحداً من كتاب سيرة تيمور المتقدمين لم يورد ذكر هذه الحادثة الطريفة (٢٣) .

وعند ما كان تيمور في جنوبي فارس جاءتة الأنباء بأن طقطميش خان لقبيلة الذهبية انتهر فرصة غيابه ليفزو بلاد ما وراء النهر ، بل حتى ليعمل السلب والنهب في المدينة الجميلة بخارى التي قدرها حافظ بنصف خال على

خذ سيدة ، فسار تيمور ألف ميل إلى الشمال (تصور مشاكل التمويل في مثل هذه المسيرة) ، ورد طقطميش إلى القوبلجا ، وسار جنوباً وغرباً ، وأغار على العراق وجورجيا وأرمينية ، وهو يذبح في طريقه كل السادة الذين دمعهم بأنهم « شيوعيون مضللون » (٢٤) . واستولى في ١٣٩٣ على بغداد بناء على طلب سكانها الذين لم يعودوا يحتملون جور سلطانهم أحمد بن أويس . ولما رأى تدهور العاصمة أمر معاونيه بإعادة بنائها ، وفي نفس الوقت أضاف إلى حريمه نخبة من الزوجات ، وإلى حاشيته واحداً من أشهر الموسيقيين ، ولجأ السلطان أحمد إلى بايزيد الأول سلطان العثمانيين في بروسه . وطلب تيمور تسليم السلطان أحمد ، فرد بايزيد بأن هذا أمر يخدش تقاليد الضيافة عند الأتراك .

وكان من الممكن أن يتقدم تيمور إلى بروسه ، لولا أن طقطميش عاود غزو بلاد ما وراء النهر . فاكسح التتارى المهتاج جنوبي روسيا ، وبينما كان لقطميش مخبئاً في البرية ، اجتاح مدينتى القبيلة الذهبية : سراى واستراخان . ولما لم يجد تيمور أية مقاومة ، تقدم بحيشه غرباً من القبلجا إلى الدون ، وربما كان من خطته أن يضم روسيا كلها إلى مملكته . وأقسام الروس في البلاد أنصلاوات في حرارة وحمية ، وحملت « عذراء فلاديمير » إلى موسكو ، بين صفوف الضارعين الراكعين وهم يصيحون : « يا أم الإله ، خلصى روسيا » . وساعد فقر السهوب على إنقاذها . ولما وجد تيمور أنه لا غناء في هذه السهول الجرداء ولا شيء فيها يمكن سلبه ، ارتد إلى الدون وقاد جنوده المنهكين الجوع إلى سمرقند (١٣٩٥ - ١٣٩٦) .

وتجمع كل الروايات على أنه كان في الهند ثروات تشتري مائة روسيا ، وأعلن تيمور أن حكام المسلمين في شمال الهند شديداً التسامح مع الهندوس الوثنيين الذين يجب عليهم اعتناق الإسلام أو تحويلهم إليه . وسار تيمور ، وهو في الثالثة والستين من العمر على رأس جيش قوامه ٩٢٠٠٠ رجل

(١٣٩٨) : وعلى مقربة من دطى التقي بجيش سلطانها محمود ، فهزمه ،
وذبح مائة ألف (؟) مسجين ، ونهب العاصمة ، وجلب معه إلى سمرقند
كل ما استطاعت جنوده ودوابه أن تحمل من ثروات الهند الأسطورية :

وفي ١٣٩٩ ، ولم تكن قد سحيت من ذاكرته قصة أحمد وبايزيد
الأول ، تقدم مرة ثانية ، وعبر فارس إلى أذربيجان ، وخلق ابنه
المبذر المضيع الذى كان حاكماً عليها ، وشنق الشعراء والوزراء الذين كانوا
قد أغروا الشاب بالانغماس فى اللهو ، واجتاح جورجيا . ولما دخل آسيا
الصغرى حاصر سيواس ، واغتاط لطول مقاومتها ، فدفن أربعة آلاف
جثدى مسيحي أحياء — أو أن مثل هذه القصص من دعاية الحرب ؟ ورغبة
منه فى حماية جناح جيشه عند مهاجمة العثمانيين ، أرسل رسولا إلى مصر
مقترحاً ميثاق عدم اعتداء ، ولكن سلطان المماليك أودع الرسول السجن ،
واستأجر سفاحاً لقتل تيمور . وباء المشروع بالإخفاق . وبعد إخضاع
حمص وحلب وبعليك ودمشق ، سار الترى إلى بغداد التى طردت كل
الموظفين الذين عينهم هو . واستولى عليها بثمان باهظ ، وأمر جنوده
البالغ عددهم عشرين ألفاً بأن يحضر إليه كل منهم رأس واحد من الأهالى :
وتم له ما أراد — أو هكذا قيل : أغنياء وفقراء ، رجالاً ونساء ، شيئاً
وشباناً ، فكلهم دفعوا ضريبة الرأس هذه ، وكدست رءوسهم على شكل
أهرام مروعة أمام أبواب المدينة (١٤٠١) . وأبقى الغزاة على مساجد
المسلمين وعلى أديار الرهبان والراهبات ، وسلبوا ودمروا ما عداها تدميراً
تاماً ، حتى العاصمة التى كانت يوماً مدينة زاهرة باهرة لم تعد سيرتها
الأولى إلا فى أيامنا هذه بفضل زيت البترول .

وإذ يقن آنذاك تيمور أنه يمكنه أن يطحن على ملكه عن اليمين وعن
الشمال ، أرسل إلى بايزيد إنذاراً نهائياً للتسليم . ولكن سلطان الأتراك
الذى زادت ثقته بنفسه يفضل انتصاره فى معركة نيقوبوليس ١٣٩٦ ،

أجاب بأنه سوف يسحق جيش التتار ويتخذ من زوجة تيمور الأثيرة جارية له (٢٥) والتحم أقدر قائدين في زمانهما في أنقرة ١٤٠١ ، وأرغمت استراتيجية تيمور أعداءه الأتراك على القتال بعد أن أرهقهم وأهلك قواهم طول السير . وهزم الأتراك هزيمة منكرة وأخذ بايزيد أسيراً . وابتهجت القسطنطينية ، وظل العالم للمسيحي بمنجاة من الأتراك لمدة نصف قرن بفضل التتار . وواصل تيمور سيره في اتجاه أوروبا إلى بروسه وأحرقها ، وحمل معه من المدينة المكتبة البيزنطية والأبواب الفضية . وتقدم نحو البحر المتوسط ، وانتزع أزمير من أيدي فرسان رودس ، وذبح السكان ، وأقام في إفسوس . وارتعد العالم المسيحي فرقا مرة أخرى ، وقدمت جنوه التي كانت لا تزال تحتفظ بخيوس وفوشيا وميتلين خضوعها ودفعت الجزية . وأفرج سلطان مصر عن رسول ملك التتار ، وانخرط في الزمرة الممتازة ، زمرة التابعين الخاضعين لسلطان تيمور . وعاد تيمور أدراجه إلى سمرقند ، وهو أقوى حكام عصره ، حيث امتد مملكته من أواسط آسيا إلى النيل ومن المسفور إلى الهند . وبعث إليه هنرى الرابع ملك إنجلترا بالتهنئة ، كما أوفدت إليه فرنسا أسقفاً يحمل الهدايا . وأرشد إليه هنرى الثالث ملك قشتالة بعثة شهيرة برئاسة روى جونزاليز كلافيجو .

وإنما لمدينون لمذكرات كلافيجو بمعظم ما نعلمه عن بلاط تيمور . فقد غادر قادس في ١٣ مايو ١٤٠٣ ، ومر بالقسطنطينية وطرايزون وأرضروم ، وتبريز وطهران (التي وردت الآن لأول مرة على لسان أحد الأوربيين) ونيسابور ، ومشهد ، حتى وصل سمرقند في ٣١ أغسطس ١٤٠٤ . وكان قد توقع لسبب ما ، أن هناك قوماً من السفاكين الكرمانج الطلعة . وما كان أشد دهشته لكبر عاصمة تيمور وازدهارها ، وفخامة المساجد والقصور ، وسلوك ساداتها وعاداتهم الحميدة ، وثراء البلاط وترفيه ، واحتشاد للفنانين والشعراء حول تيمور احتفاء به وتكريماً له .

وكانت المدينة آنذاك قد مضى على بنائها أكثر من ألفى عام ، وكانت تضم نحو مائة وخمسين ألف نسمة مع « مجموعة من أعظم الدور وأجملها » ، مع كثير من القصور « التي تظللها الأشجار » ، بهذا كله رجع كلافيجو أن سمرقند « أكبر من أشبيلية » ، هذا بخلاف الضواحي المترامية . وكان الماء يرفع إلى البيوت من نهريجى بالقرب من المدينة ، وكست مياه الرى المنظمة الخلفية بالخرصة . وتضيق الهواء بغير البساتين والكروم . وتوافرت المراعى للأغنام والماشية ، ونمت المحاصيل الكثيرة . وكان فى المدينة مصانع للمدافع والدروع والأقواس والسهام والزجاج والخزف ، والمنسوجات المتناهية فى اللامعان بما فيها « القرمزى » وهو الصباغة الحمراء ، ومنه اشتقت اللفظة الإنجليزية *Crimson* . وكانت المدينة تضم التتار والأتراك والعرب والفرس والعراقيين والأفغانيين والكرجيين واليونان والأرمن والكاثوليك والنساطرة والهندوس ، ممن يعملون فى الخوانيت أو فى الحقول ، ويسكنون فى بيوت من الطوب أو من الطين أو الخشب ، أو يسرحون ويمرحون فى المدينة على ضفة النهر ، كل يمارس شعائره الدينية فى حرية تامة ، ويدعو لعقيدته المتعارضة مع سائر العقائد . وكانت تحف على جوانب الشوارع الرئيسية الأشجار والخوانيت والمساجد والمدارس والمكتبات ، وكان هناك مرصد ، وكان ثمة جادة رئيسية عريضة تقطع ، فى خط مستقيم ، المدينة من أحد طرفها إلى الطرف الآخر ، وكان القطاع الرئيسى من هذا الطريق العام مغطى بالزجاج (٢٦) .

وفى ٨ سبتمبر استقبل إمبراطور التتار كلافيجو ، الذى مر بساحة فسيحة « نصبت فيها خيام كثيرة من الحرير » ، وسراقات مطرزة بالحرير ، وكانت الخيمة هى المسكن المألوف لدى التتار ، وكان لثيمور نفسه فى هذه الساحة خيمة يبلغ محيطها ٣٠٠ قدم ، كما كان هناك أيضاً قصور ذوات أرضية من الرخام أو القرميد ، مزودة بأثاث متين مرصع بالأحجار

الكريمة ، وكله مصنوع أحياناً من الفضة أو الذهب . ووجد كلا فيجو ملك التتار جالساً القرفصاء على وسائد من الحرير « تحت مدخل أجمل قصر » قبالة نافورة يندفع منها عامود من الماء الذى انصب فى حوض يتحرك فيه التفاح بلا انقطاع . وكان تيمور يرتدى عباءة من الحرير ويلبس قبعة عالية واسعة مرصعة بالياقوت والآلء . وكان هذا العاهل طويل القامة نشيطاً يقظاً ، أما الآن وهو فى سن الثامنة والستين ، فقد كان منحنيّاً ضعيفاً متوجعاً ، وكاد أن يكون كفيفاً . وكان يستطيع بشق النفس أن يرفع جفنيه ليرى السفير .

وحصل تيمور من الثقافة على ما يمكن أن يحتمله رجل عمل ، فقرأ التاريخ ، وجمع الفن والفنانين ، وصادق الشعراء والعلماء ، واستطاع عند الاقتضاء أن يتحلى بأجمل العادات . واستوى غروره مع قدرته ، مما لم يتفوق فيه أحد عليه فى زمانه ، وقدر تيمور على العكس من قبصر ، أن القسوة جزء ضرورى من الاستراتيجية ، ولكنه ، إذا صدقنا ضحاياها ، غالباً ما يبدو آثماً متهماً بالقسوة لمجرد الانتقام . فإنه حتى فى إدارته المدنية كان يسرف فى الحكم بالإعدام ، حتى على محافظ اتبع سياسة الظلم فى المدينة ، أو على جزار تقاضى للحم ثمناً أكثر مما ينبغى (٢٧) . إنه نفذ سياسة القسوة والعنف بوصفها ضرورية لحكم شعب لم يألف القانون بعد . وبرر مذابحه على أنها وسيلة لإرغام القبائل المخالفة للقانون والنظام على اتباع النظام ومتطلبات الأمن فى دولة موحدة قوية . ولكنه مثل سائر الغزاة والمناجمين أحب القوة لذاتها ، وأحب الغنائم والأسلاب من أجل العظمة التى يمكن أن تغطى الغنائم تكاليفها .

وفى ١٤٠٥ شريح فى فتح منغوليا والصين ، يراوده حلم لإنشاء دولة تضم نصف العالم ، وتربط بين البحر المتوسط وبحر الصين . وكان جيشه يتألف من مائتى ألف من الرجال الأشداء . ولكنه قضى نحبه فى أثار

Ottar على الحدود الشمالية من مملكته ، وكانت آخر أوامره أن يتابع جيشه سيرة ، ولبرهة بسيطة تقدم بجواده الأشهب المسرج ، دون أن يمتطيه صاحبه ، وهو يسير الهويناء في خطى متزنة — تقدم الحشد . ولكن جنوده كانوا على يقين من أن عقل قائلهم وإرادته كانتا تشكلان نصف قوتهم . فعادوا على عجل إلى أوطانهم وهم في حداد على موت القائد ، وقد كتب لهم الخلاص من هذه المهمة . وشيد له بنوه في سمرقند مقبرة فخمة هي « مقبرة الأمير » ، وهي عبارة عن برج تعلوه قبة ضخمة بصولية الشكل ، مكسوة واجهتها بالآجر ذي الطلاء الأزرق الجميل الفيروزي المائل للخضرة .

وتحطمت إمبراطورية تيمور بموته ، وكادت الأقاليم الغربية أن تنهار في الحال . وكان لازماً أن يقنع أولاده بالشرق الأوسط . وكان أعقل أفراد أسرة تيمور هو شاه رخ الذي رخص لابنه أولوج في أن يحكم بلاد ما وراء النهر من سمرقند ، على حين حكم الوالد نفسه خراسان من هراة ، وتحت حكم خليفتي تيمور هذين أصبحت العاصمتان مركزين متنافسين على ازدهار التثاق وثقافتهم ، ازدهاراً وثقافة تعدلان أياً من مثيلتهما في أوروبا في ذات العصر (١٤٠٥ — ١٤٤٩) : وكان شاه رخ قائداً قديراً يحب السلام ، وقد شجع الفنون والآداب ، وأسس في هراة مكتبه ذاتعة الصيت ، وقال أحد أمراء أسرة تيمور « إن هراة هي جنة الدنيا » (٢٨) . أما أولوج بك فقد رعى رجال العلم ، وشيد في سمرقند أعظم مرصد في ذلك العصر . وقال أحد كتاب السير المنحقين من المسلمين :

« كان عالماً ، عادلاً ، بارعاً ، نشيطاً ، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك ، على حين أنه في علوم البلاغة كان شديد التدقيق . وسمت مكانة رجال العلم في عصره إل ذروتها . وفي الهندسة فسر أدق المسائل ، أما في علم الظواهر الكونية

(الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطلمبوس . ولم يجلس على العرش ملك مثله قط حتى اليوم . وسجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأولين . وأسس في سمرقند كلية لا يمكن أن يوجد لها في الأقاليم المتاخمة السبعة مثيل من حيث جلالها ومكانتها وقيمتها « (٢٩) » .

ولكن هذا النموذج الفريد للرعاية قتل في ١٤٤٩ بيد ابن غير شرعى له . واستمرت هذه الثقافة العالية التي تميزت بها أسرة تيمور على عهد السلطان « أبو سعيد » والسلطان « حسين بن بيتره » في هراة حتى نهاية القرن الخامس عشر . وفي ١٥٠١ استولى مغول الأوربك على سمرقند وبخارى ، وفي ١٥١٠ انتزع الشاه الصفوى هراة وبابور ، وفر آخر حكام أسرة تيمور إلى الهند وأسس هناك أسرة مغولية جعلت من دلهي الإسلامية عاصمة رائعة في مثل روعة رومه على عهد أسرة مديتشي .

٤ - المماليك

١٣٤٠ - ١٥١٧

بينما كان الإسلام في آسيا يعاني الغزو المتكرر والثورات ، استغل سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) مصر التي سادها استقرار نسبي إذ ذاك . وقضى الموت الأسود على ازدهار البلاد لفترة من الزمن ، ولكن في أثناء هذه القلبات استمر المماليك يوفقون بين الإدارة القادرة والمصالح الفنية من جهة والاختلاسات والفظائع من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فلمنه في ١٣٨١ بدأت بالسلطان الملك الناصر بن برقوق أسرة المماليك للبرجية التي ساد عهدها الترف والدسائس والعنف والانحلال الاجتماعي ، وخفضوا قيمة النقد ، حتى على غير عادة الحكومات . وفرضوا الضرائب الباهظة على ضروريات المعيشة ، وأساءوا استغلال احتكار الدولة

للسكر والفلفل . وفرضوا في الإسكندرية رسوماً باهظة على تجارة أوروبا مع الهند ، مما دعا تجار الغرب إلى البحث عن طريق إلى الهند حول أفريقيا . وخسرت مصر على مدى جيل بعد رحلة فاسكوداجاما (١٤٩٨) كثيراً من نصيبها الذي كان يوماً هائلاً ، من التجارة بين الشرق والغرب ، وأوقعت هذه الكارثة الاقتصادية البلاد في حالة من الفقر المدقع إلى درجة أن السلطان سليم الأول لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، حين أنهى حكم المماليك ، وجعل من مصر ولاية عثمانية .

وظلت القاهرة من ١٢٥٨ حتى ١٤٥٣ أجمل وأزهى مدن العالم الإسلامي وأكثرها ازدهاماً بالسكان . ووصفها ابن بطوطة وصفاً رائعاً في ١٣٢٦ ، وقال عنها ابن خلدون الذي زارها ١٣٨٣ إنها « عاصمة الكون ، جنة الدنيا ، مكتظة بجميع أجناس البشر ، عرش الملكية ، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة والرهبنات والأديار والكلليات ، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة ، جنة يرويهما النيل حتى ليبدو أن الأرض تقدم ثمارها إلى الناس على سبيل الهدية والتمجيد » (٣٠) - وربما كان الفلاحون المتوكون يعترضون على هذا .

وعكست مساجد مصر في ذلك العصر قساوة الحكم أكثر مما عكست ألوان السماء . فلم يكن هنا إيوانات أو بوابات من الطوب المصقول أو القرميد الملون ، كما كان الحال في آسيا الإسلامية ، بل كانت هناك جدران حجرية ضخمة جعلت من المسجد قلعة أكثر منه بيتاً للعبادة . وكان مسجد السلطان في حسن (١٣٥٦ - ١٣٦٣) عجيبة عصره ، ولا يزال أفخم آثار الفن المملوكي . وذهب المقرئزي المؤرخ إلى أنه « فاق كل ما بنى من مساجد » (٣١) ولكنه كان قاهرياً محباً لوطنه . وتروى أسطورة غير مؤكدة كيف أن السلطان جمع مشاهير المهندسين من بلاد كثيرة ، وطلب إليهم أن يذكروا له أعلى صرح على البسيطة ، وأمرهم بأن يشيدوا صرحاً أعلى منه ، فذكروا له قصر خسرو الأول في مدينة طيسفون (مدينة بابلية على نهر دجلة) الذي يرتفع الجزء الباقي من منخله ١٠٥ من الأقدام فوق سطح الأرض . فبنى العمال

جدران المسجد بالحديد ، بعد أن سرقوا حجارة الأهرام المتهدمة ، على ارتفاع مائة قدم ، وزادوا فوقها لإفريزاً (كورنيش) بارتفاع ١٣ قدماً وشيدوا في أحد الأركان مثلثة بارتفاع ٢٨٠ قدماً . وإن هذا المبنى الشاهق ليترك انطباعاً في نفوس الغربيين ، ولكنه قل أن يسر الناظرين منهم . ومهما يكن من شيء فإن أهل القاهرة كانوا فخورين به ، إلى حد أنهم ابتدعوا أو استعاروا خرافة تقول بأن السلطان قطع يد المهندس حتى لا يصمم تحفة رائعة تضارع هذه ، وكأن المهندس يصمم بيده ! وكانت مساجد المقابر أكثر فتنة وجذباً للأنظار ، رغم الغرض الذي بنيت من أجله ، وقد بناها سلاطين المماليك خارج أسوار القاهرة لتضم رفاتهم . من ذلك أن السلطان الظاهر برقوق الذي بدأ حياته عبداً شركسياً ، انتهى أمره في مجد صامت ، راقدًا في مقبرة من أفخم هذه المقابر .

وكان قايتباي أعظم البناة بين المماليك البرجية ، فالبرغم من أن الحرب مع الأتراك أنهكته ، فقد دبر الأموال لتشييد المباني النفيسة في مكة والمدينة والقدس ، وجدد في القاهرة قلعة صلاح الدين والجامع الأزهر ، وشيد نزلا مشهوراً بزخارفه العربية المصنوعة من الحجر ، وبنى داخل العاصمة مسجداً ذا زخارف منسقة . وتوج قايتباي أعماله في أخريات أيامه ، بمسجد تذكاري من الجرانيت والرخام ، ذي زخرفة رائعة ومثلثة عالية ذات شرفات : وقبة مزينة بنقوش هندسية ، مما جعل هذا المسجد مأثرة من المآثر الأقل قيمة للفن الإسلامي .

وانتشرت الفنون الصغيرة في عهد المماليك . وصنع النقاشون على العاج والعظام والحشب ألفاً من المنتجات الجميلة ، من صناديق الأتلام إلى المنابر ، وهي منتجات كان يتخيلها الذوق ، ويقوم على تنفيذها العمل المتواصل والمهارة . وحسبك في هذا أن تلقى نظرة على منبر مسجد قايتباي خارج أسوار المدينة في متحف فيكتوريا وألبرت . وبلغ التطعيم بالذهب والفضة

ذروته أيام هذه الأسرات الدموية . أما مصانع الخزف المصرى التى كانت قد ابتدعت ألفاً من البدع والأشياء الغربية فى آلاف السنين للسحيفة فى القدم ، فإنها أخرجت الآن للعالم الزجاج المطفى بلينا ومصابيح المساجد والكؤوس والزهرجات المزدانة بالظهور أو الزخرفة التشكيلية من المينا الملونة ، والمرصعة بالذهب أحياناً . وبمثل هذه الطرق وبكثير غيرها لا يحصى العدد ، خلعت الفنانون المسلمون على الجمال شكلاً خالداً ، وبذلك عوضوا عن وحشية ملوكهم أو كفروا عنها .

٥ - العثمانيون

١٢٨٨ - ١٥١٧

يبدأ التاريخ بعد اختفاء الأصول . فلا أحد يعرف أين نشأ الأتراك . « فذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا قبيلة فنلندية أوجرية Finno-Ugric (شعب أسوي شرق الأورال) من الهون » وأن اسمهم يعنى « نخوذة » وهى فى إحدى اللهجات التركية Durko . وقد شكلوا لغاتهم من اللغتين المغولية والصينية ، وأدخلوا بعد ذلك ألفاظاً فارسية أو عربية ، وهذه اللهجات التركية هى الوسيلة الوحيدة لتصنيف المتكلمين منهم بوصفهم أتراكاً . واتخذت واحدة من هذه العشائر اسمها من اسم زعيمها ساجوق . ونمت بالنصر تلو النصر ، وتكاثرت سلالتها ، وحكموا فى القرن الثالث عشر فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى وفرت عشيرة أخرى من أقرباء العشيرة الأولى ، بقيادة زعيمها طغرل ، أر ، من خراسان فى نفس القرن ، حتى لا يكتسحها طوفان المغول . واستخدمها ساجوق أمير قونية بآسيا الصغرى ، فى الأعمال الحربية ، وأقطعها جزءاً من الأرض لرعى ماشيتها .

وفى ١٢٨٨ (٢) مات أرطغرل ، فاختر ابنه عثمان ، وهو إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، ليخلف أباه ، ومنه اشتق اسم « العثمانيين » . ولم

يطلقوا على أنفسهم اسم الأتراك قبل القرن التاسع عشر ، بل أطلقوه على الشعوب شبه الهمجية في تركستان وخراسان . وفي ١٢٩٠ رأى عثمان أن السلجوقيين أضعف من أن يقفوا في طريقه ، فأعلن نفسه أميراً مستقلاً على ولاية صغيرة في الشمال الغربي من آسيا الصغرى ، وفي ١٢٩٩ تقدم بقواته غرباً إلى بنى شبر . ولم يكن عثمان قائداً عظيماً ، ولكنه كان مثابراً صبوراً ، وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مكون من رجال ألفوا في ديارهم ركوب الخيل أكثر مما ألفوا السير على الأقدام ، رجال أرادوا أن يغامروا بحياتهم الشاقة من أجل الأرض أو الذهب أو النساء أو السلطان ، وكانت تقع بينهم وبين بحر مرمرية مدن بزنطية ناعسة سيئة الحكم هزيلة الدفاع . فحاصر عثمان واحدة منها وهي بروسه ، وأخفق أول الأمر في الاستيلاء عليها ، ولكنه عاود الكرة بعد الكرة ، حتى استسلمت المدينة أخيراً لابنه أورخان ، في الوقت الذي كان يرقد فيه عثمان على فراش الموت في بنى شبر (١٣٢٦) :

وانتخذ أورخان من بروسه ، التي تقلدست برفات أبيه ، عاصمة جديدة للعثمانيين . وساقته الرغبة في المزيد من السلطان إلى البحر المتوسط ، المركز العتيق للتجارة والثروة والمدنية . وفي نفس العام الذى سقطت فيه بروسه ، انتزع نيقوميديا التي صارت فيما بعد أزميد ، وفي ١٣٣٠ استولى على نيقية التي أصبحت أنزنيق ، وفي ١٣٣٦ استولى على برجاموم التي أصبحت برجامه . وكانت تلك المدن العريقة في القدم والتي تفوح منها رائحة التاريخ ، مراكز للحرف والتجارة ، وقد اعتمدت في المواد الغذائية والأسواق اللازمة لها على الجماعات الزراعية المحيطة بها والتي كان العثمانيون قد استولوا عليها في ذلك الحين ، وكان على هذه المدن أن تعيش على هذه البقاع الداخلية أو أن تموت جوعاً . فلم تقاوم طويلاً ، لأنها كانت قد عانت من ظلم حكامها البزنطيين ، كما سمعت بأن أورخان لم يثقل الكواهل بالضرائب ، وأنه رخص في حرية العقيدة - وكان كثير من هؤلاء المسيحيين في الشرق الأدنى مراطقة مرهقين :

نساطرة أو من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وسرعان ما ارتضى العقيدة الإسلامية جزء كبير من الأراضي المفتوحة ، وهكذا تحول الحرب المشاكل اللاهوتية ، على حين كانت هذه المشاكل قبل الحرب تقف حاجزة محيرة . ومذوسع أورخان ملكه على هذا الشكل ، فقد اتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين . وعقد أباطرة بيزنطة أواصر السلام معه ، واستأجروا جنوده ، وسمحوا لابنه سليمان فى بناء معاقل على أرض أوروبا . وقضى أورخان نخبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره ، بعد أن خلد ذكره بين جوانح شعبه .

وكون خلفاؤه من بعده أسرة قل أن يوجد لها فى التاريخ مثيل ، فى هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة الوحشية ، والإخلاص الرفيع للأدب والعلوم والفنون . وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ، ولا كان أمياً فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة فى المداد على الوثائق ، على غرار القتلة المغمورين . ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة لإجرامية فاشلة ضده ، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه ، وأرغم آباء الثوار على قطع رعوس أبنائهم (٣٢) . ودرب مراد جيشاً لا يكاد يقهر ، وفتح معظم أراضي البلقان ، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقل من تلك التى عرفوها على عهد السيطرة المسيحية .

وورث بايزيد الأول عرش أبيه فى ميدان القتال فى قوصوه (١٣٨٩) . ذلك أنه بعد أن قاد الجيش إلى النصر أمر بإعدام أخيه يعقوب الذى كان قد قاتل ببسالة فى ذلك اليوم العصيب . وأصبح قتل الإخوة على هذا النحو قاعدة منتظمة عند سلاطين آل عثمان بعد الجلوس على العرش ، طبقاً للمبدأ " للقاتل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق ، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحمل أن يطالبوا بالعرش . وأحرز بايزيد لقب

« بلدرم أى الصاعقة » ، لسرعته فى خططه الحربية ، ولكن أعوزه فن الحكم الذى يتميز به أبوه ، وأضاع بعض طاقته الجبارة فى المغامرات النسائية ، وقدم ستيفن لازارفنش ، حاكم الصرب من قبل السلطان ، أخته لتنضم إلى حريم السلطان ، وأصبحت هذه السيدة دسبوانا زوجته الأثيرة لديه ، وغرست فيه الولع بشرب الخمر وإقامة المتآدب السخية ، وربما أضعفت عن غير عمد حيويته كرجل . وتأتى غروره وكبرياؤه حتى سقطه . وبعد أن هزم بايزيد فرسان أوربا فى نيقوبوليس ، أطلق سراح كونت نفرز Nevers مع دعوة ممتازة للمبارزة ، رواها أو عدل فيها فروسار Froissor ، قال :

« أى جون ، إني أعلم جيداً أنك سيد عظيم فى بلدك ، وأنت ابن سيد عظيم . أنت شاب يافع ، وربما تلاقى بعض اللوم أو العار لأنك وقعت فى هذه المغامرة فى بداية عهدك بالفروسية ، وأنت تخلصاً من اللوم وإنقاذاً لشرفك ، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتى . ولو ساورنى الشك أو الخوف قبل رحيلك ، لأجبرتكَ على أن تقسم بشريعتك وعقيدتك ، أنك لا أنت ولا أحد من زمرك ، سوف تشهر السلاح ضدى ولكنى لن أؤمك أو ألزم أحداً من أتباعك بمثل هذا القسم أو الوعد . ولكنى سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك وإلى مسراتك ، لتجتمع من القوة ما تشاء ، ولا تدخر وسعاً ، وأخرج إلى قتلى ، ولسوف تجدنى دوماً على أهبة الاستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك . . . وأطلع من تشاء على هذا الذى أقول لك ، فإني قادر على القتال ، ومستعد على الدوام للتوغل فى العالم المسيحى » (٣٣) .

يما أسر تيمورلنك السلطان بايزيد عامله بكل إجلال واحترام ،

على الرغم من الرسائل المهمة التي كانا قد تبادلها على مدى عام ، وأمر تيمور بفلأ أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه ، وأكد له أنه سيبقى على حياته ، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة للحاشية ، ولكن عندما حاول بايزيد الحرب ، احتجز في غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز ، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد . ومرض بايزيد ، فهدأ تيمور تلك أحسن الأطباء لمعالجته ، وأرسل السيادة دسبوانا لتسهر على رعايته ومواساته ، ولم تجد هذه المساعدات شيئاً لبعث القوى الحيوية في السلطان العظيم . مات بايزيد بعد عام من هزيمته .

وأعاد ابنه محمد الأول تنظيم حكومة العثمانيين وقوتهم ، وعلى الرغم من أنه فقاً عني أحد المطالبين بالعرش وقتل آخر ، فإنه اكتسب لقب السيد المهذب ، بفضل ساوكة الكيس اللطيف وحكمه العادل ، وسنوات السلم العشر التي منحها للعالم المسيحي ، وكان لمراد الثاني مثل هذه المشارب ، فأثر الشعر على الحرب ، ولكن عندما نصبت القسطنطينية مزاحماً له ليخلعه ، ونقضت المجر عهد السلم ، أثبت مراد الثاني في واريه (١٤٤٤) أنه قائد كأحسن ما يكون القواد : ثم عاد إلى مغنيسلي في آسيا الصغرى ، حيث عقد مرتين في كل أسبوع اجتماعاً للشعراء والعلماء ، وقرأ الشعر وتحدث في العلوم والفلسفة . وافتضت ثورة في أدرنه عودته إلى أوروبا ، فأخذها ، وقهر هونياد في قوصوه . وعندما مات في ١٤٥١ ، بعد أن قضى في الحكم ثلاثين عاماً ، وضعه المؤرخون المسيحيون في مصاف أعظم حكام عصره ، وقد أمر في وصيته بأن يدفن في بروسه في مصلى متواضع غير مسقوف ، « حتى تنزل عليه رحمة الله وبركاته مع شروق الشمس والقمر ، وسقوط المطر والندى على جبدته » (٣٤) .

وتساوى محمد الثاني مع أبيه في الثقافة والفتوحات والفتنة السياسية وطول الحكم ، وليس في العدل ولا في النبيل . فنقض المعاهدات الوثيقة ،

ولطخ انتصاراته بالمذابح غير الضرورية . وكان يتسم في مفاوضاته واستراتيجيته بدهاء الشرق . وسئل يوماً عن خطته فأجاب : « لو أن شعرة من لحيتي عرفت لانتزعها »^(٢٥) . وتحدث السلطان بخمس لغات ، وكان واسع الاطلاع في عديد من الآداب ، بارعاً في الرياضيات والهندسة ورعى الفنون ، وأجرى معاشات على ثلاثين شاعراً عثمانياً ، وبعث بالهدايا الملكية إلى شعراء في فارس والهند . وجاء بعده في المرتبة الثانية كمنصهر للأدب والفن وزيره الأكبر محمود باشا ، فأعان هو وسيدته كثيراً من الكليات والمؤسسات الدينية ، حتى أطلق على السلطان « أبوالأعمال الخيرية » . وكان محمد أيضاً « أبا الانتصارات » ، فقد خرت التوسطنطينية له ولمدافعه ، وبفضل مدافعه أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأمام جيوشه ودبلوماسيته وقعت دول البلقان في أسر العبودية . ولكن هذا الفاتح الذي لا يقاوم ، لم يتغلب على نفسه أو يكبح جماحها : فما أن بلغ الخمسين حتى كان قد أنهك قواه بكل ألوان الإفراط الجنسي ، ولم تجد العقاقير نفعا في تجديد حيويته ، حتى أدرجه حريمه آخر الأمر في عداد الأغوات . وقضى نحبه في سن الواحدة والخمسين في اللحظة التي بدا فيها أن جيشه على وشك غزو إيطاليا وضمها إلى العالم الإسلامي .

وأدى النزاع بين أبنائه إلى تولي بايزيد الثاني العرش . ولم يكن بالسلطان الجديد نزوع إلى الحرب ، ولكن عندما استولت البندقية على قبرص وتحدثت سيطرة الأتراك على شرق البحر المتوسط ، أفاق السلطان وضلل مخادعته بميثاق للسلام ، حتى بنى أسطولا من ٢٧٠ سفينة ودمر أسطول البندقية بعيداً عن شواطئ اليونان . وأغار جيش تركي على شمال إيطاليا حتى وصل غرباً إلى فيشنزا (١٥٠٢) . فتوسلت البندقية لعقد الصلح ومنحها بايزيد شروفاً سخية ، ثم ركن إلى الشعر والفلسفة من

جديد . وخلعه ابنه سليم وجلس على العرش (١٥١٢) ولم يابث بايزيد أن مات ، وقيل إنه مات مسموماً .

إن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة ، فإن الطباع والأشكال السائدة في عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذي يليه ، والذي يضيق ذرعاً بالتقاليد ، ويتحرق لهماً إلى التجديد : فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية ، وهذه تلد الواقعية ، وهذه تأتى بالتأثرية ، كما تدعو فترة الحرب إلى عقد (عشر سنوات) من السلم كما أن السلم الذي يطول أمده يدعو إلى الحرب العدوانية . فقد ازدري سليم الأول بسياسة السلم التي انتهجها والده . وكان سليم قوى الجسم قوى الإرادة ، عزوفاً عن المسرات وأسباب المتعة ، ولوعاً بالصيد والقنص وحياة العسكر ، واستحق لقب « العبوس » لأنه شق تسعة من ذوى قرياه منعاً لأية فتنة أو تمرد ، وشن الحرب تلو الحرب من أجل الفتح والغزو . ولم تزعجه إغارة اسماعيل الصفوى شاه فارس على الحدود التركية . فمقطع سليم على نفسه جهداً بأن يشيد ثلاثة مساجد ضخمة في القدس ، وبودا ورومه ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس (٣٦) . وإذا أثار النعرة الدينية في شعبه إلى حد القتال . فإنه تقدم نحو اسماعيل ، واستولى على تبريز ، وجعل من شمالى أرض الجزيرة ولاية عثمانية . وفى ١٥١٥ حول مدافعه ورجاله الانكشارية إلى الممالك ، وضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلى مملكته (١٥١٧) وحل من القاهرة إلى القسطنطينية أسيراً مكرماً هو « خليفة المسلمين » وهو أكبر مقام دين عند المسلمين . وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك — مثل هنرى الثامن — أصحاب السلطة الدينية كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة) . وفى أوج مجده قواته وعظمتها ، جهز سليم لغزو رودس والعالم المسيحى . فلما تمت كل الاستعدادات ، أصيب بالطاعون فتضى عليه (١٥٢٠) . وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقاً لتقدم سايم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر — أمر الكنائس المسيحية بإقامة الصلوات شكراً لله .

٦ - الأدب الإسلامى

١٤٠٠ - ١٥٢٠

نظم سليم العبوس نفسه قصائد من الشعر المفقى ، وورث ابنه سليمان القانونى ديواناً ملكياً ضم قصائده المجموعة ، مثل ما ورثه لإمبراطورية تمتد من الفرات إلى الدانوب والنيل ، وإنك لترى اثنى عشر من السلاطين وكثيراً من الأمراء ، من بينهم الأمير جم الذى أجزل أخوه . الثانى العطاء للوك المسيحية وبابواتها ليحتجزوا الأمير فى معتقل لائق ، نقول إنك لترى هؤلاء السلاطين والأمراء بين ٢٢٠٠ شاعر عثمانى طبقت شهرتهم الآفاق فى القرون الستة الأخيرة (٣٧) . واقتبس معظم هؤلاء الشعراء من الفرس أشكال شعرهم وأفكاره ، وفى بعض الأحيان لغته ، وواصلوا ، فى معين من القصيد لا ينضب : تمجيد عظمة الله ، وحكمة الشاه أو السلطان ، وارتعاد شجرة السرو حسداً عند ما يقع نظرها على السيقان النخيلة الناصعة البياض للحيية . وقد ألفنا الآن نحن فى الغرب هذه المفاتن إلى حد أننا لم نعد تهتز لهذه التشبيهات المائلة . ولكن « الأتراك الفطعاء » الذين كانت نساوهم متدثرات من الأنف إلى أخمص القدم بشكل كله لإغراء ، اهتزوا إلى الأعماق بهذه الإيحاءات الشعرية ، وهذا الشعر الذى غيرت ترجمته من طبيعته ، والذى لا يؤثر فينا ولا يحرك فينا شعرة ، كان يحفزهم إلى التقى والورع وإلى نعدد الزوجات وإلى الحرب .

ولما لمختار فى خيال ساذج ، من بين ألف من الموتى الحالدين ، ثلاثة أسماء لا تزال غريبة غير مألوفة لدى المجتمعات المحلية فى الغرب . من هؤلاء أحمدى ، وهو من سيواس (المتوفى ١٤١٣) الذى نهل أول ما نهل من الأستاذ الفارسى النظامى ، وقد كتب أحمدى « اسكندرنامه » أى كتاب الإسكندر ، وهو ملحمة ضخمة فى أسلوب قوى غير مصقول ، لم تتناول

قصة غزو الفرس للإسكندر فحسب ، ولكن تضمنت كذلك تاريخ الشرق الأدنى وديانته وعلومه وفلسفته من أقدم العصور إلى عهد بايزيد الأول : ويجدر بنا أن نكف عن الاقتباس لأن الترجمة الإنجليزية أشبه شئ ، بكابوس يحثم على الصدر . أما شعر أحمد باشا (المتوفى ١٤٩٦) فقد ابتهج به السلطان محمد الثانى إلى حد أنه عين الشاعر وزيراً له . ولكن الشاعر وقع فى غرام خادم جميل من حاشية الإمبراطور الذى كان به مثل هذا الميل ، فما كان منه إلا أن أمر بإعدام الشاعر . وأرسل أحمد إلى مولاه قصيدة غنائية تفيض رقة ، حتى أن محمداً وهبه الغلام ، ولكنه نفى الاثنين إلى بروسه (٣٨) . وهناك آوى أحمد إلى داره شاعراً شاباً قدر له فى الحال أن يبره ، ونظم نجاتى (المتوفى ١٥٠٨) ، وكان اسمه الحقيقية عيسى - نظم قصيدة غنائية مدح محمد الثانى ، وربطها فى عمامة صنى السلطان وزميله فى لعبة الشطرنج ، ودفع فضول محمد الثانى به إلى الوقوع فى الشرك ، وفض الليفة وقرأ النصيدة ، واستدعى ناظمها وعينه موظفاً فى القصر المكي . وأبقاه بايزيد الثانى ناعماً بالخطوة والثراء . وكتب نجاتى الذى انتصر بشكل بطولى على الازدهار والنجاح ، بعض القصائد الغنائية التى تستحق أعظم الثناء والتقدير فى الأدب العثمانى .

ومهما يكن من أمر ، فإن فطاحل الشعر الإسلامى كانوا لا يزالون من الفرس . وكان بلاط حسين ببقرة فى هراة يعج بالعنادل المغردة ، حتى أن وزيره مير على شيرنواى شكاً قائلاً : « لو أنك مددت قدميك لرفست بهما ظهر شاعر » : فرد عليه شاعر آخر بقوله : « وكذلك تفعل أنت لو سحبتهم (٣٩) » . وكان مير على شير (المتوفى ١٥٠١) ، إلى جانب معاونته فى حكم خراسان ، ورعايته للأدب والفن ، وذويوع صيته فى رسم المنمنمات والباحين - نقول كان شاعراً فحلاً ، فكان ميسيناس وهوراس زمانه فى وقت معاً . ومن فيض رعايته المستتيرة استمد العرن والسلوى المصوران جهزاد

وشاه مظفر ، والموسيقىون قول محمود وشائقى نائى وحسين يودى ، والشاعر
الإسلامى الكبير فى القرن الخامس عشر ملا نور الدين عبد الرحمن جامى
(المتوفى ١٤٩٢) .

ووجد جامى فى حياته الطويلة الهادئة فسحة من الوقت ليهكتسب شهرته
عالماً ومتصوفاً وشاعراً . فشرح باعتباره من رجال الصوفية ، فى ثرقيق ،
الفكرة الصوفية القديمة ، وهى أن الاتحاد البهيج بين النفس البشرية وبين
الحبيب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لا يأتى إلا إذا أيقنت النفس أن الإنسان
ليس إلا وهماً وسراباً ، وأن كل الأشياء فى الدنيا هى مجموع من الأشباح
العابرة التى تتلاشى فى ضباب الفناء . ومعظم قصائد جامى عبارة عن تصوف
منظوم شعراً ، مزوج بشيء من الحسية الجذابة . ويقص علينا سامان وأبسال
حكاية طريفة تشير إلى أن الحب الإلهى يسمو على الحب الدنيوى . وسلمان
هو ابن شاه يون (أبونيا) وقد ولد من غير أم (وهذا شيء أصعب بكثير
من التوالد العذرى) وقد تولت تربيته الأميرة الحميلة أبسال التى افتتنت به
حين بلغ الرابعة عشرة من العمر ، وقد غرت قابله وأمرته بما اصطنعت من
أسباب التجميل والتطرية .

« أحاطت سواد عينها بسواد الإثم
حتى تحولت إلى ليل وهو فى وضوح النهار ،
وزينت وزججت الحواجب فوقهما .
لتصبيه إذا ضل هناك ، وشعرها الذى يتضوع منه المسك
صففته فى لفائف أفعوانية كثيرة
كمن فيها « الإغراء » فوق خدها
الذى أضاعت وردة بندى قرمزى
ووضعت هناك حبة دقيقة من المسك
لتوقع فى الشرك طائر هذا القلب الحبيب

وقد نمر أحياناً فتطلق ضحكة تكسر بها
ياقوتة شفيتها اللتين تحفظان بينهما اللآلى
أو تنهض وكأنها على عجل ، فتقعق خلاخياها الذهبية ،
وعلى نداءاتها المفاجئة ، تأتي
تحت قدميها الفضييتين بالتاج الذهبي ، (١٠) .

وهو تاج الأمير وريث العرش بلا منازع ، ويستسلم الأمير دون عناء
لهذه المغريات ، ولبعض الوقت ينعم الاثنان — الولد والسيدة في حب
مشبوب . فيؤنب الملك هذا الشاب على مثل هذا العبث ، ويأمره أن ينجو
بنفسه إلى الحرب والحكم . ولكن سلمان بدلا من ذلك يهرب مع أبسال
على ظهر جمل ، « وكأنهما لوزتان حلوتان في قشرة واحدة » ، حتى إذا
وصلا إلى البحر صنعا قارباً وسارا به « شهراً » وأتيا إلى جزيرة مكسوة
بالخضرة ، مليئة بالأزهار العطرة والطيور المغردة ، والثمار والفاكهة التي
تنساقط تحت قدميهما بكثرة . ولكن في جنة عدن هذه يتحرك ضمير الأمير
فيؤنبه ، ويفكر في مهام الملك التي أغفلها ، ويحث الأمير محبوبته أبسال
على العودة معه إلى يون ، ويحاول أن يدرّب نفسه على الاضطلاع بأعباء
الملك ، ولكنه موزع بين الواجب والجمال ، إلى حد أنه كاد آخر الأمر أن
يجن ، وانضم إلى أبسال في محاولة للانتحار ، فبئيا محرقة ، وقفزا إليها ،
وبدكل منهما في يد الآخر ، وأنت النيران على أبسال ، ولكن سلمان يخرج
سالماً ولم يحترق . والآن وقد تطهرت نفسه ، فإنه يرث العرش ويشرفه .
وكل هذا مجاز يفسره جامي بأن الملك هو الله ، وسلمان هو النفس البشرية ،
وأبسال هي نشوة الشهوة ، والجزيرة السعيدة هي جنة الشيطان التي تضل
فيها النفس عن مصيرها الإلهي ، أما المحرقة فهي نار تجربة الحياة ، التي
تتلاشى فيها الرغبات الشهوانية ، أما العرش الذي ترقى إليه النفس المطهرة
فهو عرش الله . ومن العسير أن نعتقد أن شاعراً استطاع أن يصور هاتين

المراة بهذا الشكل الحساس ، يمكن أن يطلب إلينا اجتنابها اللهم إلا بين
الفينة والفينة .

وفي جراءة عوض عنها ما تخضت عنه نجاسر جامى فعالج ، شعراً ،
من جديد ، الموضوعات الأثيرة لدى اثني عشر من الشعراء قبله :
يوسف وزليخة ، ليلى والمجنون . وفي تصدير فصيح يعيد تقرير النظرية
الصوفية : نظرية الجمال الإلهي والجمال الدنيوي :

في « القفر البدائي » ، حيث لم تعط الحياة أية علامة على
وجودها ، ورقد الكون مخبئاً منكراً نفسه ، كان ثمة شيء .
إنه الجمال المطاق يظهر نفسه لنفسه فقط ، وينوره هو وحده .
مثل أجمل النساء في غرفة زفافها المخنوقة بالأسرار ، كان ثوبها نقياً
لا تشوبه أية شائبة ، ولم تعكس أية مرآة وجهها ، ولم يمر
المشط قط بخصلات شعرها ، ولم يحرك النسيم العطر قط شعرة
واحدة منها ، ولم يأو قط أى عندليب على صفحة خدها الوردى ..
ولكن الجمال لا يطيق أن يبقى مجهولاً . انظر إلى زهرة التوليب
فوق قمة الجبل ، وهي تنفذ في الصخر فرعها الغض لأول بسمه
من بسمات الربيع : . كذلك الجمال الأبدى أتى من الأماكن المقدسة
للأسرار ليشع في كل الآفاق وفي كل النفوس ، وثمره شعاع واحد
انطلق من هذا الجمال الأبدى ، واخترق الأرض والسموات ، ومن ثم
تكشف وظهر في مرآة المخلوقات ، وأصبحت كل ذرات الكون
بمناياها تعكس كل منها ناحية من نواحي العظمة الأبدية .
وسقط شيء من تألقها على الوردة والعندليب ، فأصابهما شيء
من جنون الحب البائس وانتقدت حماسهما ناراً ، وجاء ألف من
الفراشات لتهلك في اللهب . وهي التي أضفت على قركنعا لمعانه
الساطع الذي أصاب زليخة بالمجنون (١) .

إن جأى يهبط من علياء سمائه ليصف جمال الأميرة زليخة في تكرار وإسهاب يتقدان حماسة ، حتى إلى حد وصف « حصن العفة والملمس الحرام فيها » .

وكان نهداها بمثابة كرتين من نور بالغ النقاوة أو فتاعتين تفقران حديناً من نافورة كافور ، أو رمانتين صغيرتين تنموان على غصن واحد ، لا يستطيع أى طامع جرىء أن يمسهما بأصبعه (١٢) .

إن زليخة ترى يوسف فى المنام ، فتقع فى غرامه لأول ظهوره . ولكن أباه يزوجه من وزيره بوتيغار . ثم ترى يوسف بشخصه رأى الغين معروضاً للبيع فى سوق الرقيق فتشتريه وتغريه ، ولكنه يرفض صداقتها والتفاهم معها ، فيصيبها الهزال ويموت الوزير ، ويحل يوسف محله ، ويتزوج زليخة ، وسرعان ما ينتاب الهزال الاثنين ، إلى حد الموت آخر الأمر . إن حب الله فقط هو الحقيقة وهو الحياة ، إنها قصة قديمة ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يركن إلى هذه المواعظ ؟

٧ — الفن فى آسيا الإسلامية

فى كل البقاع التى وصل إليها الإسلام من غرناطة إلى دلهى وسمرقند ، استخدم الملوك والنبلاء العباقرة والعبيد لبناء المساجد والمقابر ، والرسم على الآجر وإحراقه ، ونسج الجرائر والسجاجيد وصبغها ، وطرق المعادن . والحفر على الخشب والعاج ، وزخرفة المخطوطات بالألوان المائية والخط . واستمسك الخانات والجمهوريون والعثمانيون والمماليك ، وحتى الأسرات للصغيرة التى حكمت الأجزاء الضعيفة من العالم الإسلامى ، استمسكوا جميعاً بالتقاليد الشرقى ، وهو تلطيف السلب بالشعر ، وتلطيف القتل بالفن .

وفى قرى الريف وفى قصور المدن أخرجت الثروة جمالا ، ونعمت قلة
محظوظة بقرب أشياء تغرى اليد بلمسها ، وتغرى العين بالنظر إليها .

وكان المسجد لا يزال مجمع الفن الإسلامى . فالطوب والقرميد أكسبها
المنذنة جمالا شاعريا ، وأبواب الخزف المزخرف جعلت من ضوء الشمس
ألواناً براقة ، وأبرز المنبر الأشكال المتعرجة المحفورة أو التطعيم المعتمد
فى الخشب ، ووجهت فخامة المحراب قلوب المصلين إلى مكة . وقدمت
المصبات والثريات مشكاتها المعدنية لإجلالا وولاء لله . وجعل السجاد من
الأرض البلاط مكاناً ليناً يهياً لركبتي المصلى سجوداً وثيراً . وغلفت
المصاحف المذهبة بالحرير الثمين . وعجب كلا فيجو « من المساجد الجميلة
المزدانة بالآجر الأزرق والذهبي (٤٣) » ، وفى أصفهان أقام أحد وزراء
أولجايتو فى مسجد الجمعة محراباً بات فيه الحصص العادى من مقائن الزخرفة
العربية ^{والتي تسمى} . وشيد أولجايتو نفسه فى « سلطانية » ضريحاً فخماً
(١٣١٣) أراد أن ينقل إليه رفات على والحسين (كان الخان أولجايتو
شيعياً) . ولكن خطته أخفقت إخفاقاً محموداً ، فإن عظام الخان ووريت
التراب فى هذا الضريح المهيب . وتنسم أطلال المسجد فى فارامين (١٣٢٦)
بالضخامة والجلال .

وأولع تيمور بالبناء ، وسرق أفكار العمارة ، كما سرق الفضة والذهب
من ضحايا أسلحته . وآثر الضخامة بوصفه فاتحاً ، وكأنما هى رمز
للى إمبراطوريته وللى إرادته ، ومثل محدثى الثراء أغرم باللون وأسرف
فى الزخرفة . وافتن بالآجر الأزرق المطلى فى هراة ، فاستقدم بخزافين
من فارس إلى ممرقند ليكسوا بالطوب اللامع واجهات المساجد والقصور
فى عاصمته . وسرعان ما أشرقت المدينة وتألقت بالخزف الفخم . ولحظ
فى دمشق قبة بصلية الشكل تنبعج فوق القاعدة ثم يستدق طرفها إلى أعلى
حتى يصبح مديبا ، فأمر مهندسيه أن يأخذوا تصميمها وأبعادها قبل أن

تسقط في الحريق العام ، وتوج سمرقند بمثل هذه القباب ، ونشر هذا الطراز بين الهند وروسيا ، حتى إنك لتراه سافداً من تاج محل إلى الميدان الأحمر . ولما عاد من الهند أحضر معه الفنانين والصناع المهرة : فأقاموا له في ثلاثة أشهر مسجداً ضخماً هو « مسجد الملك » له بوابة ارتفاعها مائة قدم ، وسقف مرفوع على ٤٨٠ عموداً من الحجر . وشيد لأخته « تشوشوك بيكا » ضريحاً لتدفن فيه ، أصبح تحفة العمارة في عصره^(٤٤) . وعندما أمر ببناء مسجد تخليداً لذكرى زوجته الأثيرة لديه ، ببى نخازون ، أشرف على البناء بنفسه ، وألقى باللحوم إلى العمال في الحفائر ، ونفح الصناع المهرة المجتهدين بالنقود ، وحشهم أو أجبرهم على العمل ليل نهار ، حتى أقبل الشتاء وتوقف البناء ، وأخذت حماسته .

وأنجز خائفاه فناء أكثر نضجاً . ففي « مشهد » على الطريق بين طهران وسمرقند استخدمت « جوهر شاد » زوجة « شاه رخ » المغامرة ، المهندس المعماري قوام الدين في بناء المسجد الذي يحمل اسمها (١٤١٨) ، وهر أروع نتاج الهندسة الإسلامية الفارسية وأغناه بالألوان^(٤٥) . وفيه تحيط المآذن المزودة بالفوانيس الرائعة بالضريح وكأنها تحرسه ، وتؤدي أربعة مداخل فخمة إلى فناء رئيسي ، كسبت واجهة كل منها بأجر من الخزف المزخرف ، « لا مثيل لها من قبل ومن بعد »^(٤٦) — تحفة الزمان — تتحدى اللون في مائة شكل من الزخرفة العربية « الأرابسك » والرسوم الهندسية والحركات الزهرية والخط الكوفي الفخم ، وأضفت شمس فارس على هذا مزيداً من البريق والتألق . وفوق الجزء الجنوبي الغربي من الرواق ذي الأعمدة المؤدى إلى حرم المسجد ارتفعت مئذنة من الآجر الأزرق تناطح السماء ، وعلى الباب بحروف بيضاء على أرضية زرقاء نقش إهداء الملكة ، وهو إهداء يفيض فخراً وتقى :

« إن عظمتها العريقة في المجد ، شمس سماء الطهارة والعفة ...

جواهر شاد ، خلد الله عظمتها وأدام طهارتها ! من مالها الخاص ،
ولغير آخرتها ، ومن أجل اليوم الذى يحاسب فيه المرء على
ما قدمت يداه ، تقرباً إلى الله وشكراً له سبحانه . . . شيدت
هذا المسجد الجامع العظيم ، هذا البيت المقدس ، فى عهد الساطان
المعظم ، سيد الحكام ، والد نائب الملك ، شاه رخ ، أدام الله
ملكه وإمبراطوريته ! وزاد على أهل الأرض صلاحه وعدله
وكرمه ! (٧٧) .

ولم يكن مسجد جواهر شاد إلا واحداً من جملة مباني جمعات من مشهد
رومة « المذهب الشيعى » ، وهناك على مدى ثلاثين جيلاً ، شيد أتباع
الإمام الرضا مجموعة كبيرة من العمارات تأخذ فخامتها بالألباب ، ذوات مآذن
جميلة وقباب فاخرة ، ومدخل كسيت واجهاتها بالآجر اللامع أو بصفائح
الفضة أو الذهب ، وساحات تعكس سيفسائوها الزرقاء والبيضاء أو خزفها
المزخرف أشعة الشمس . وهنا فى ها المنظر العريض الخلاب بأشكاله
وألوانه ، استخدم الفن الفارسى كل سحره ليمجد أحد أولياء الله الصالحين
ويرهب الحاج الزائر حتى يعمر قلبه بالتقوى والإيمان .

ومن أذربيجان إلى أفغانستان ارتفع فى هذا العصر فى أرض الإسلام
ألف مسجد : ذلك أن بيوت العبادة لها من القيمة الكبيرة لدى الإنسان
ما لفاكهة الأرض ، ولكن عندنا نحن أهل الغرب ، المحصورين فى خلایا
المعقل ، لا تعنى هذه الأضرحة إلا أسماء جوفاء ، بل قد يزعجنا أن نحياها
ونكرمها بتلك الانحناءات الجافة المقتضبة . وماذا يعيننا أن جواهر شاد قد
حصلت لرفاتها الطاهرة على مقبرة جميلة فى هراه ، وأن شيراز جددت
عمارة مسجدتها الجامع فى القرن الرابع عشر ، وأن يزد واصفهان قد أضافتا
محرابين فاخرين إلى مسجدي الجمعة فيهما ؟ الحق أننا بعيدون جداً ، من
حيث الزمان والمكان والتفكير ، إلى حد لا نشعر معه بهذه العظمة والجلال ،

كما أن هؤلاء الذين يقيمون الصلاة في تلك المساجد لا يستهويهم كثيراً اجتراعاتنا القوطية أو الصور الحسية في عصر النهضة ، على أنه جدير بنا مع ذلك أن نتأثر ونحن وقوف على أطلال الجامع الأزرق في تبريز (١٤٣٧ - ١٤٦٧) ونستعيد في الذاكرة الفخامة التي اشتهر بها يوماً خزفه الأزرق المزخرف وزخرفته العربية الذهبية ، كما لا يغيب عن أذهاننا أن محمد الثاني وبايزيد الثاني شيدا في القسطنطينية (١٤٦٣ - ١٤٩٧) مساجد تكاد تنافس عظمة كنيسة أياصوفيا . وقد اقتبس العثمانيون التصميمات البيزنطية والأبواب الفارسية والقباب الأرمينية وأفكار الزخرفة الصينية ، ليشكلوا مساجدهم في بروسه ونيقيا ونيقوميديا وقونية . لقد كان الفن الإسلامي لا يزال في أوجه في هندسة العمارة على الأقل .

ونعمة فن واحد فحسب استطاع أن ينهض وبصمد أمام فن العمارة في الإسلام : (كما صمد داود أمام جوليات - التوراة ، صموئيل الأول ، الإصحاح ١٧ : ٤ ، ٤٩) . فربما حظى الخطاطون ورسامو المنمنمات الصابرون الذين زخرفوا الكتب بأصغر وأدق زخارف وصور وخطوط رمزية بالفرشاة أو القلم - ربما حظى هؤلاء بنصيب من التكريم والإجلال أكثر مما حظى به بناء المساجد . وقد رسمت الصور الحائطية ، ولكن لم يبق من نتاج هذه الفترة شيء منها . ورسمت صور الأشخاص ، ولم يبق منها إلا القليل . وامتلأ العثمانيون علانية لتعاليم الكتاب المقدس والقرآن في تحريم نحت الصور الشخصية ، ولكن محمد الثاني استقدم جنتيل بلاني من البندقية إلى القسطنطينية (١٤٨٠) ليرسم صورته ، وهي المعلقة الآن في المتحف الوطني في لندن . كما توجد نسخ من صورة زعموا أنها لتيমور . على أن المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، بصفة عامة ، آثروا تقاليد الفن الصيني على المحظورات التي جاءت بها الشريعة الإسلامية . فأدخلوا من

الصين على الزخرفة الفارسية التين والعنقاء وأشكال السحاب وهالات القداسة والوجوه الشبيهة بالأقمار ، وزاوجوا بينها . بطريقة خلاقية ، وبين الأساليب الفارسية في اللون الشفاف والخط الجالس . وكانت الأساليب المختلطة متباعدة إلى حد بعيد ، فإن رسامي المنمنمات الصينيين والفرس ، على حد سواء ، رسموا لطبقة الأرستقراطيين الذين يجتمل أن ذوقهم كان رفيعاً جداً ، والأرجح أنهم حاولوا إرضاء الخيال والجواس أكثر من تمثيل الأشكال الموضوعية .

وكالت المراكز العظمى للزخرفة الإسلامية في هذا العصر هي تبريز وشيراز و هراة . ويحتمل أنه قد جاء من تبريز في عهد الأيلخانات ، للورقات الخمس والخمسون من كتاب « شاه نامه » ، (كتاب الملوك للفردوسي) - وهي من عمل رسامين مختلفين في القرن الرابع عشر . ولكن رسم المنمنمات الفارسية بلغ الذروة في هراة على عهد التيموريين ، وقد استخدم شاه رخ طائفة كبيرة من الفنانين ، وأسس ابنه بيسنقر ميرزا كلية خاصة بالخط والمنمنمات . ومن ملرسة هراة هذه جاءت الشاهنامه (١٤٢٩) وهي معجزة اللون البراق والجمال الدافق ، وهي الآن محفوظة بعناية في مكتبة قصر جلستان في طهران ، وتكاد لا يحسبها أحد إلا لإجلالا وتعظيماً . إن رويتها لأول مرة أشبه شيء باكتشاف قصائد كيتس (الشاعر الإنجليزي Keats) .

وكان كمال الدين بهزاد ، هو كيتس الزخرفة الحقيقي أو رافائيل الشرق ، لقد عركته تجارب الحياة ، وويلات الحرب وتقلباتها ، فنعكس هذا كله بالفن ، ولد بهزاد في هراة حوالي سنة ١٤٤٠ ، ودرس في تبريز ، ثم عاد إلى هراة ليرسم للسلطان حسين بن بقره ، ووزيره المتعدد الجوانب (شاعر وموسيقى ومصور) مير علي شيرنواي . وعندما أصبحت هراة مركزاً للأوزبك ولحملات الصفويين ، قصد بهزاد ثانية إلى تبريز . وكان من بين أوائل المصورين الفرس الذين وقعوا على أعمالهم ، ولكن بقايا فنّه قليلة فعلا

ومتباعدة . وثمة منمنمتان في دا. الكتب المصرية بالقاهرة تمثلان « بستان
سعدى » وتعرضان حلقة لبعض رجال الدين يتدارسون فيها أسرارده .
وتحمل المخطوطة تاريخ سنة ١٤٨٩ ، أما العبارة المكتوبة في نهايتها فتقول
« رسمها العبد المذنب بهزاد » . ويضم متحف فريز في واشنطن صورة
« شاب يرسم » ، وهى نسخة منقولة عن جنتيل بلينى وقعها بهزاد ،
وفىها تكشف الأنامل الرقيقة عن الفنانين الرسام والمرسوم كليهما ، وليس من
الحق كثيراً أنه هو الذى رسم المنمنمات الموجودة فى المتحف البريطانى ؛
وهى نسخة مخطوطة « المنظومات الخمس » للشاعر نظامى ، وفى نفس الخزانة
توجد مخطوطة « ظفر نامه » أى سجل انتصارات تيمور .

ومن العسير أن تفسر هذه البقايا شهرة بهزاد المنقطعة النظير . لأنها تتم
على إدراك حسى للأشخاص والأشياء : وعلى حرارة اللون ومداه ، وعلى
حيوية فى التنفيذ تشملها جميعاً دقة رقيقة فى التخطيط . ولكنها لا تكاد توازن
بالمنمنمات التى رسمت لدوق برى Berry ، قبل ذلك بقرن من الزمان تقريباً ،
ومع ذلك فإن معاصرى بهزاد أحسوا بأنه كان قد أحدث انقلاباً فى الزخرفة
بنماذجه الأصيلة فى التأليف ، ومناظره الطبيعية الزاهية وصور شخصه
المفصلة بعناية التى تكاد تقفز إلى الحياة . وعنه قال المؤرخ الفارسى خواندمير
الذى كان يقارب الخمسين من العمر حين مات بهزاد (حوالى ١٥٢٣) ،
ربما بدافع التحيز لصداقته له : « إن براعته فى التصوير والتصميم قد طمست
ذكرى غيره من مصورى العالم . إن أنامله الموهوبة بمزايا خارقة تحت صور
سائر الفنانين من بنى آدم » (٤٨) . وجدير بنا أن يهذب من ثقتنا أن نفكر
ملياً فى أن هذا قد كتب قبل أن يرسم ليوناردو دافنسى « العشاء الأخير »
ويرسم ميكلائجلو « سقف كنيسة سستين » ، وقبل أن يرسم رافائيل « غرف
الفايتكان » . ومن المحتمل أن خواندمير لم يكن قد سمع بأسمائهم قط .

وانحط فن الخزف في هذه الحقبة عما كان عايمه في عهد سلاجقة الري وكاشان ، أما مدينة الري فقد تركتها الزلازل وغارات المغول أثراً بعد عين ، وأما كاشان فقد خصصت معظم أفرانها لصناعة الطوب ، على أن مراكز جديدة للخزف قامت في سلطانية ويزد وتبريز وهرات وأصفهان وشيراز وسمرقند ، وكان الخزف المزخرف الفسيفسائي آنذاك هو الإنتاج المفضل : فصنعت بلاطات صغيرة من الخزف ، رسمت كل منها بلون معدني واحد ، وطابت فأصبحت ذات بريق يتطلب أشد العناية لبقائه . وحين كان حاة الفن في يسر وثناء استخدم البناعون الفرس هذا الخزف المزخرف ، لا للمحارب والزخرفة فحسب ، بل استخدموه كذلك في تغطية سطوح كبيرة من أبواب المساجد أو جدرانها ، وثمة نموذج أخاذ في محراب مسجد بابا قاسم (حوالي ١٣٥٤) في متحف متروبوليتان للفن في نيويورك .

واحتفظ صناع المعادن في الإسلام بمهارتهم ، فصنعوا الأبواب والثرعات البرونزية للمساجد من بخاري إلى المغرب (مراكش) ، ولو أن شيئاً منها لم يضارع تماماً « أبواب الجنة » التي صنعها جيمز Ohiberti (١٤٠١ — ١٤٥٢) في بيت المعمودية بفلورنسه ، وقد صنعوا أحسن أسلحة العصر — الخوذات المخروطية الشكل لكي تجعل الضربات الهاوية تنحرف ، والدروع من الحديد البراق مطعمة بالفضة والذهب والسيوف المرصعة بالنقوش الذهبية أو الأزهار المصنوعة من الذهب . كما صنعوا النقود الجميلة ، كما صنعوا الرسوم النافرة أو الميداليات الكبيرة مثل تلك التي عليها صورة جانيبة لحمد الفاتح البدين القصير ، وشمعدانات برونزية كبيرة حفر عليها الخط الكوفي الفاخر أو الأشكال الزهرية ، كما صبر وزينوا المباخر ومحفظة الكتابة والمرايا وعلب الجواهر والمحجرات والقوارير والأباريق والطشوت والصواني ، بل حتى المقص والقرجار كانوا يزينونها بالنقوش بطريقة فنية . ومثل هذا التفوق مشهود به للفنانين والصنا المهرة

المسلمين الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ، أو الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة : أو الذين حفرُوا العاج أو الخشب أو رصعوه . والنسيج الباقى للآن عبارة عن قطع أو أجزاء صغيرة . ولكن المنمنمات تصور لنا تشكيلة واسعة من المنتجات الجميلة من الكتان الرفيع فى القاهرة إلى الخيام الحريرية فى سمرقند . والحق أن الذى أثار بسرعة حسد أوروبا ، هم أولئك المزخرفون الذين صمموا الأنماط والطرز المعقدة ولكنها مع ذلك منطقية : القماش المقصب (البروكار) والقטיפه والخرائر ، للمغول والتيموريين ، بل حتى البسط التركية . وفيما يسموئه الفنون الصغرى قناد الإسلام العالم .

٨ — الفكر الإسلامى

أفلت شمس العلم والفلسفة وضاع مجدهما ، لأن الدين كان قد كسب معركته ضد هما ، فى الوقت الذى كان فيه يتراجع ويستسلم فى الغرب المرائق . وكان الذين يحظون بالشرف الرفيع هم رجال الدين وللدراويش والنسك والأولياء ، أما العلماء فقد قصدوا إلى استيعاب نتائج أبحاث أسلافهم ، أكثر مما قصدوا إلى إدماع النظر فى الطبيعة لآمن جديد . وكان خسر تقدم أو محاولة نشيطة فى الفلك الإسلامى فى سمرقند حين صاغ راصد النجوم فى مرصد أولوج بك فى سنة ١٤٣٧ الجداول الفلكية التى حظيت بأعظم التقدير فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر . وقاد ملاح عربى مزود بجداول وخريطة عربية ، فاسكودا جاما من أفريقية إلى الهند فى المرحلة التاريخية التى وضعت نهاية لسيطرة الإسلام الاقتصادية (٤٩) .

وفى الجغرافيا أنجب المسلمون شخصية عظيمة فذة فى هذا العصر . ففى سنة ١٣٠٤ ولد فى طنجة محمد أبو عبد الله بن بطوطة الذى طاف بدار الإسلام — العالم الإسلامى — لمدة أربع وعشرين سنة ثم عاد إلى المغرب

ليقضى نخبه في فارس . وإن يوميات هذا الرحالة لتوحى بمدى انتشار الإسلام الواسع ، فهو يذهب إلى أنه قطع في رحلته ٧٥٠٠٠ ميل (أكثر من أى إنسان آخر قبل عصر البخار) . كما زعم أنه رأى غرناطة وشمال أفريقيا وتمبكتو ومصر والشرقين الأدنى والأوسط وروسيا والهند وسيلان والصين . وأنه رار كل حاكم مسلم في هذا العصر . وفي كل مدينة كان يقدم احتراماته أولاً إلى العلماء ورجال الدين ثم بعد ذلك إلى الملوك والحكام . ولما لرى الزعة الإقليمية عندنا منعكسة عليه حين يعدد « الملوك السبعة العظام في العالم » . وكلهم مسلمون فيما عدا واحداً صينياً (٥٠) . إنه لا يصف الأشخاص والأماكن فحسب ، بل يصف كذلك حيوان كل منطقة ونباتها والمعادن والأطعمة والأشربة والأسعار في مختلف البلاد . وكذلك المناخ ومظاهر الطبيعة والعادات . والأخلاق والطقوس الدينية والمعتقدات ، وهو يتحدث بكل إجلال عن السيد المسيح والسيدة العذراء : ولكنه يشعر ببعض الارتياح والرضا حين يشير إلى أن « كل حاج يزور كنيسة القيامة في القدس يدفع رسوماً للمسلمين » (٥١) . وعندما عاد إلى فارس روى كل تجاربه ومشاهداته ، فأنزلة سامعوه منزلة القصاص . ولكن الوزير أمر أحد سكرتيريه بتدوين ما أملاه ابن بطوطه من مذكرات . وضاع الكتاب وكاد أن ينسى . حتى وجد أخيراً أثناء الاحتلال الفرنسي الحديث للجزائر .

وفيما بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٣٥٠ كان أعظم الكتاب إنتاجاً في التاريخ الطبيعى من المسلمين . فكتب محمد الدميرى بالقاهرة كتاباً في علم الحيوان يقع في ١٥٠٠ صفحة وكان الطب لا يزال قلعة سامية ، (أى عامياً برز فيه الجنس السامى) . فكانت المستشفيات كثيرة في العالم الإسلامى . وشرح طبيب من دمشق هو علاء الدين بن النفيس الدورة الدموية الرئوية (١٢٦٠) قبل سرفيتس (طبيب أسباني : القرن ١٦) بنحو ٢٧٠ سنة ،

ونسب طبيب من غرناطة هو ابن الخطيب « الموت الأسود » إلى مرض معد ، وأشار بالحجر الصحي للمصابين — معارضاً بذلك قول رجال الدين بأنه انتقام إلهي من خطايا الإنسان وآثامه . واشتمل بحثه « في الطاعون » (حوالي ١٣٦٠ على هرطقة مشهورة : « يجب أن يكون من القواعد المقررة لدينا أن أى برهان مأخوذ من تقاليد « أتباع محمد » ينبغي أن يخضع للتعديل إذا تعارض تعارضاً واضحاً صريحاً مع الدليل الذى تأتى به الحواس (٥٣) » .

وكان العلماء والمؤرخون كثيرين مثل الشعراء . وكانوا يكتبون باللغة العربية وهى لغة الاسبرانتو فى العالم الإسلامى ، كما جمعوا فى كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف وبين النشاط السياسى والإدارى . ومثال ذلك أبو الفداء الدمشى ، فقد اشترك فى اثنى عشرة حملة حربية ، وكان وزيراً للملك الناصر فى القاهرة ، ثم عاد إلى سوريا حاكماً على حماه ، وجمع مكتبة ضخمة ، وألف مجموعة من الكتب تعتبر قمة مآلاتها فى هاتيك الأيام . وفاق بحثه فى الجغرافيا « تقويم البلدان » فى اتساع مداه ، أى مؤلف أوربى من نوعه فى عصره ، وقد قدر فيه أن الماء يغطى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وأشار إلى أن السائح حول العالم يكسب أو يفقد يوماً فى مسيره غرباً أو شرقاً ، وكان كتابه « المختصر فى أخبار البشر » هو التاريخ الإسلامى الأساسى المعروف لدى الغرب .

ولكن الاسم اللامع فى كتابة التاريخ فى القرن الرابع عشر هو عبد الرحمن ابن خلدون ، فهنا نجد رجلاً ذا وزن وقيمة حتى فى أعين أهل الغرب رجلاً عركته التجارب والسياحة وفن الحكم الذى مارسه عمياً ، وهو مع ذلك حسن الاطلاع على الفن والأدب والعلوم والفلسفة فى عصره ، يكاد يحيط بالجوانب الإسلامية فى هذا كله فى « تاريخ للعالم » . وإن موالده مثل هذا الرجل فى تونس (١٣٣٢) وارتفاع مكانته هناك ، ليوحيان إلينا

بأن ثقافة شمالى أفريقية لم تكن مجرد صدى للإسلام فى آسيا ، بل كان لها طابع وحيوية خاصتان بها ، وتقول سيرة حياة ابن خلدون : « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته ... » .

وقضى الموت الأسود على أبويه وعلى كثير من المعلمين ، ولكنه تابع دراسته « إلى أن شددت بعض الشيء » (٥٤) ، وهذا ضرب من الوهم يتميز به الشباب . وعين فى العشرين من عمره سكرتيراً لسلطان تونس ، ثم لسلطان فاس فى الرابعة والعشرين ، وفى سن الخامسة والعشرين دخل السجن . ثم انتقل إلى غرناطة وأرسل سفيراً إليها لدى بطرس القاسى فى أشبيلية . وعندما عاد إلى أفريقية أصبح الوزير الأول للأمير أبى عبد الله فى « بجاية » ولكن كان لزمّاً عليه أن يفر لينجو بنفسه عندما خاع سيده وقتل . وأرسلته مدينة تامسان فى سنة ١٣٧٠ مبعوثاً لها إلى غرناطة ، ولكن اعتقاله فى الطريق إليها أحد أمراء المغرب العربى ، وبقي ابن خلدون أربع سنوات فى خدمة هذا الأمير ثم لجأ إلى حصن بالقرب من وهران ، وهناك (١٣٧٧) كتب « مقدمة تاريخه » وهى مقدمة « لتاريخ العمران » . ولما كان فى حاجة إلى كتب أكثر مما استطاعت وهران أن تمدّه بها فإنه عاد إلى تونس ، ولكن هناك تألب عليه أعداء من ذوى النفوذ فيها ، فانتقل إلى القاهرة (١٣٨٤) ، وكانت شهرته كعالم قد طبقت الآفاق ، وازدحم حوله الطلاب حين كان يحاضر فى الجامع الأزهر ، وأجرى عليه السلطان برقوق راتباً « كما كانت عادته مع العلماء » (٥٥) . وعين قاضياً للمالكية ، فطبق القوانين بصرامة شديدة وأغلق الملاهى مما أدى إلى هجوه وعزله من منصبه ، فاعتزل الحياة العامة ثانية . ثم أعيد إلى منصب قاضى القضاة ، وصحب السلطان ناصر الدين فرج فى حملة ضد تيمور ، وهزمت القوات المصرية ، فالتمس ابن خلدون ملجأ له فى دمشق ، وحاصرها تيمور ،

وكان مؤرخنا آنذاك فى سن الشيخوخة ، فرأس وفداً يلتبس من التترى المنتصر شروطاً لينة رفيقة وأحضر - مثل أى مؤرخ آخر ، مخطوطة تاريخه معه ، وقرأ على تيمور الجزء الخاص به وسأله أن يصحح له معلوماته . وربما كان قد تعتمد مراجعة الصفحات قبل ذلك هذا الغرض نفسه . ونجحت الخطة . وأطاق تيمور سراحه ، وما لبث أن عاد ابن خلدون مرة أخرى قاضياً للقضاة فى القاهرة ، ومات وهو فى هذا المنصب ، فى سن الرابعة والسبعين (١٤٠٦) .

وألف ابن خلدون وسط هذه الحياة القلقة موجزاً عن فلسفة ابن رشد . وأبحاثاً فى المنطق والرياضيات ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ البربر ، وشعوب الشرق ، والكتب الثلاثة الأخيرة فقط هى الباقية . وهى تشكل فى مجموعها « تاريخ العالم » (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السطان الأكبر) . والمقدمة واحدة من الروائع فى الأدب الإسلامى وفى فلسفة التاريخ . فهى إنتاج « حديث » إلى درجة مذهلة لعقلية عاشت فى العصور الوسطى . ويرى ابن خلدون أن التاريخ « فرع هام من الفلسفة » (٥٦) ، وينظر نظرة عريضة واسعة إلى مهمة المؤرخ :

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال : مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » (٥٧) . (ص ٣٣ من مقدمة ابن خلدون طبعة كتاب الشعب - القاهرة ١٩٦٩) .

واعتقاداً منه بأنه أول من كتب التاريخ بهذه الطريقة ، فإنه يسأل
القارىء الصغح عن أية أخطاء لم يكن فى الإمكان تجنبها فيقول :

« وأنا من بعدها موقن بالقصوريين أهل العصور ، معترف
بالعجز عن المضاء فى هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء ،
والمعارف المتسعة القضاء . فى النظر بعين الانتقاد ، لابعين
الارتضاء ، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء .
فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة ،
والحسنى من الإخوان مرتجاة . والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة
لوجهه الكريم ، وهو حسبى ونعم الوكيل » (٥٨) . (المصدر
السابق ، ص ١٠) .

ثم هو يأمل فى أن يكون كتابه هذا عوناً على الأيام الخالكة التى
تنبأ بها :

« وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ،
وتحول العالم بأسره . وكأنه خلق جديد ونشأه مستأنفة ، وعالم
محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق
وأجياها ، والعوائد والنحل لأهلها ، ويقفوا مسلك المسعودى
لعصره ، ليكون أصلاً يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده » (٥٩) .
(المصدر السابق ، ص ٣١) .

ويخصص ابن خلدون بعض صفحات يملؤها الزهو والفخر ، يشير
فيها إلى أخطاء بعض المؤرخين . ويحس بأنهم ضلوا فى مجرد ترتيب
الأحداث ترتيباً زمنياً ، وقل أن ارتفعوا إلى مستوى إيضاح الأسباب
والنتائج . وتقبلوا الخرافة بمثل الارتياح الذى تقبلوا به الحقيقة تقريباً ،
وقدموا إحصاءات مبالغ فيها ، وفسروا أشياء كثيرة جداً بقوى خارقة

للطبيعة ، أما بالنسبة له ، فهو يعنزم أن يعول كلية على العوامل الطبيعية في تفسير الحوادث . ولسوف يحكم على ما يكتبه المؤرخون في ضوء التجارب الراهنة للجنس البشرى ، ويرفض أى حدث مزعوم يعتبر الآن مستحيل انقوع . فإن التجربة يجب أن تفصل في صحة التقاليد أو فسادها (٦٠) . وكان منهجه في « المتقدمة » هو أن يعالج أولاً فلسفة التاريخ ، ثم يتناول أشغال الناس ومهنتهم وبراعاتهم ، وأخيراً يعرض لتاريخ العلوم والفنون ، وهو يدون في مجلدات متعاقبة التاريخ السياسى لمختلف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، متممداً التضحية بوحدة الزمان في سبيل وحدة المكان . ويقول ابن خلدون إن الموضوع الحقيقي للتاريخ هو الحضارة ، كيف تنشأ ، وكيف يحتفظ بها وكيف تنمى الآداب والعلوم والفنون ، ولماذا تبلى (٦١) ، فالإمبراطوريات — مثل الأفراد — لها حياة ولها مسارات خاصة بها . إنها تنشأ وتنضج وتضمحل (٦٢) فما هى أسباب هذا التعاقب ؟

والأحوال الأساسية في هذا التعاقب هى أحوال جغرافية . ذلك أن للمناخ تأثيراً عاماً ولكنه أساسى . فالشمال البارد ينتج آخر الأمر ، حتى في أناس أصلهم من الجنوب ، جلدًا أبيض اللون وشعرا خفيفاً ، وعيوناً زرقاء وميلاً إلى الباردة . أما الأقاليم المدارية فتنتهى بمرور الزمن إلى الجلاء الأسمر والشعر الأسود ، « وتغلب الروح الحيوانية » ، وخفة في العقل والمرح وسرعة التنقل بين المسرات مما يؤدي إلى الغناء والرقص (٦٣) . ويؤثر الطعام في الخلق . فالغذاء الثقيل المكون من اللحوم والتوابل والحبوب بسبب بلادة الجسم والعقل ، والاستسلام السريع للقحط أو العدوى . أما الغذاء الخفيف ، مثل هذا الذى تتناوله شعوب الصحراء ، فإنه يساعد على رشاقة الأجسام وصحتها ، وعلى سلامة العقول . وعلى مقاومة المرض (٦٤) . وليس ثمة تفاوت فطرى في القدرة الكامنة بين شعوب الأرض : فإن تقدمهم

أو تأخرهم تحدده الأحوال الجغرافية ، ويمكن تغييره بتغيير هذه الأحوال ، أو بالهجرة إلى مكان آخر (٦٥) .

أما الأحوال الاقتصادية فهي أقل قوة فقط من الجغرافية . ويقسم ابن خلدون المجتمعات إلى رحل ومقيمة أو مستقرة تبعاً لوسائل الحصول على القوات ، ويعزو معظم الحروب إلى الرغبة في الحصول على مصادر للغذاء أكثر وفرة . فالقبائل الرحل لابد أن تغزو إن عاجلاً أو آجلاً ، الجماعات المستقرة المتوطنة ، لأن هؤلاء الرحل مرغمون بحكم ظروف حياتهم على التمسك بالصفات الحربية مثل الشجاعة وقوة الاحتمال والجلد والتماسك . وقد يدمر الرحل حضارة ، ولكنهم لا يستطيعون إقامة حضارة تط . فإن الشعب المقهور يمتص دماء الرحل وثقافتهم . ولا يستثنى من ذلك العرب الرحل . والحرب أمر طبيعي طالما أن الشعب غير قانع أبداً لآمد طويل بما لديه من غذاء . إن الحرب هي التي تنشئ السلطان السياسي وتجده ، ومن ثم كانت الملكية هي الشكل المألوف للحكومة . وقد سادت في كل حقبة التاريخ تقريباً (٦٦) . وقد تنشئ السياسة المالية مجتمعاً أو تهدمه ، فإن فرض الضرائب الباهظة أو دخول الحكومة إلى مجال الإنتاج والتوزيع ، يمكن أن يخدم أو يقضى على الحوافز والمغامرة والمنافسة ، ويقتل البقرة الحلوب التي تدر الدخل (٦٧) . ومن جهة أخرى فإن الإفراط في تركيز الثروة قد يمزق المجتمع إرباً بإذكاء نار الثورة (٦٨) .

وثمة قوى معنوية في التاريخ : وفي تماسك الناس تدعيم للإمبراطوريات ، وأفضل وسيلة لتأمين هذا هو غرس عقيدة واحدة وممارستها . ويتفق ابن خلدون مع البابوات ومحاكم التفتيش والمصالحين الدينيين البروتستانت على عقيدة واحدة .

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب . والتغلب إنما يكون

بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه . قال تعالى : لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا ، حصل التنافس وقشا الخلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضيد ، واتسع نطاق الكلمة لذلك ، فعظمت الدولة ، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبالله التوفيق ، لا رب سواه (٦٩) . (المصدر السابق ص ١٤٢) .

وليس الدين عوناً في الحرب فحسب ، بل إنه كذلك خير عون على النظام في المجتمع ، وعلى اطمئنان النفس وهدوء البال عند الناس فرادى ولا يتأتى هذا إلا بعقيدة دينية تتقرر بلا مسائلة ولا جدال . إن الفلاسفة ليبتدعون مئات الأساليب ، ولكن واحداً منهم لم يقع على بديل للدين ، كمرشد ومصدر إلهام للبشر في حياتهم « وما دام أن الإنسان لا يستطيع فهم الدنيا ، فإن من الخير له أن يتقبل العقيدة التي ينقلها إليه مشرع ملهم تلقى الوحي ، يعرف ما فيه خيرنا ونفعنا أكثر مما نعرف نحن ، ويشرع لنا ما ينبغي علينا أن نؤمن به وما ينبغي علينا أن نفعل (٧٠) ، وبعد هذه المقدمة الرشيدة ينتقل مؤرخنا الفياسوف إلى تفسير للتاريخ قائم على المذهب الطبيعي .

إن كل إمبراطورية تمر بأطوار متعاقبة :

١ — تحط قبيلة متنقلة منتصرة رحالها لتعمر بها أناء الله به عاينها من فتح رقعة من الأرض أو ولاية . « إن أقل الأقوام حضارة أعظمها فتوحاً » (٧١) .

٢ - وكلما ازدادت العلاقات الاجتماعية تعقيداً ، اقتضى الأمر سلطة أكثر تركيزاً بغية المحافظة على النظام ، فيصبح الرئيس القبلي ملكاً .

٣ - وفي هذا النظام المستتب ، تنمو الثروة ، وتساعد المدن ، ويرتقى التعليم والآداب ، وتجد الفنون من يرعاها ، وتبرز شمس العلوم والفلسفة . ويؤذن التوسع في سكنى المدن والحياة الناعمة بفضل الثراء ، ببداية الاضمحلال .

٤ - إن المجتمع الذى أثرى يبدأ في إثارة المسرة والترف والدعة على العمل أو المغامرة أو الحرب ، ويفقد الدين سيطرته على خيال الإنسان وعقيدته ، وتنحط الأخلاق والسلوك ، وينتشر الشذوذ الجنسي ، كما تنحط الفضائل والأعمال الحربية ، ومن ثم يكون الاتجاه إلى استخدام الجنود المرتزقة للدفاع عن المجتمع ، ومثل هؤلاء تعوزهم حماسة الروح للوطنية والعقيدة الدينية ، وكأن الثروة التي لا يحسن الدفاع عنها تغرى بمهاجمتها ملايين الجياع المضطربين فيما وراء الحدود :

٥ - إن الحملات الخارجية أو الدسائس الداخلية ، أو كليهما معاً ، تسقط الدولة (٧٢) . تلك كانت دورة الزمن بالنسبة لروم ، والمرابطين والموحدين في أسبانيا ، والإسلام في مصر وسوريا والعراق وفارس ، وهي تجرى دائماً على هذا المنوال (٧٣) .

تلك هي قلة قليلة من آلاف الأفكار التي جعلت من « مقالة ابن خلدون » أشهر نتاج فلسفي في القرن الذى عاش فيه . وكان لابن خلدون أفكاره الخاصة به في كل شيء تقريباً ، فيما عدا الدين الذى يرى أنه ليس من الحكمة أن يكون فيه مبتكراً . وعلى حين أنجز عملاً ضخماً من أمهات الكتب في الفلسفة يصرح بأن الفلاسفة خطيرة ، وينصح قراءه بأن يتركوها وشأنها (٧٤) ، ويحتمل أنه قصد ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) واللاهوت ، أكثر مما قصد

الفلاسفة بمعناها الأوسع ، كتحاوله لرؤية أحوال الإنسان من وجهة نظر أكثر شمولاً . إنه يتحدث في بعض الأحيان كما يتحدث أبسط امرأة عجوز في السوق ، فيسأل بالمعجزات والسحر ، و « العين الشريرة » ، والخواص الغامضة لحروف الهجاء ، ونبوءات الأحلام ، والأمعاء ، أو طيران الطيور (٧٥) . وهو مع ذلك يعجب بالعلوم ، ويقر بتفوق اليونان على المسلمين في هذا المضمار ، ويرثي لتدهور الدراسات العلمية في الإسلام (٧٦) . ويستنكر الكيمياء القديمة — ويعترف بشيء من الإيمان بالفلك (٧٧) .

وثمة سقطات معينة أخرى يجدر إيرادها . ذلك أنه على الرغم من ابن خلدون كان رحب الأفق ، قدر رحابة الإسلام ، إلا أنه شاطر الإسلام كثيراً من تحديدهاته ، فلم يجد في مجلدات مقدمته الثلاثة إلا سبع صفحات للكلام عن المسيحية . ولم يورد ذكر اليونان والرومان وأوروبا في البصور الوسطى إلا عرضاً . وعندما دون تاريخ شمال أفريقية ومصر الإسلامية والشرقين الأدنى والأوسط ، اعتقد بذلك أنه قد روى « تاريخ الشعوب » (٧٨) . وهو في بعض الأحيان جاهل جهلاً مريباً يؤخذ عليه ، فيذهب إلى أن أرسطو كان يعلم من رواق وسقراط من دن (٧٩) . إن كتابته الفعلية في التاريخ تتخلف كثيراً عن مقدمته النظرية ، ومجلداته عن البربر والشرق عبارة عن سجل جاف موحش لأنساب الأسرات وتسلسلها ، ودسائس القصر ، والحروب الصغيرة . ومن الواضح أنه قصد أن تكون هذه المجلدات تاريخاً سياسياً فحسب ، وكتب المقدمة بوصفها تاريخاً للثقافة ، ولو أنها على الأرجح نظرة عامة في الثقافة .

ولكى نستعيد تقديرنا وإجلالنا لابن خلدون ، حري بنا أن نتساءل فقط عن أى عمل مسيحي فلسفي في القرن الرابع عشر يمكن أن يضارع « المقدمة » . وربما كان بعض المؤلفين القدامى قد تناولوا جانباً من هذا الميدان الذي طرقة ابن خلدون . وكان أحد أبناء جلدته ، وهو المسعودي (المتوفى ٩٥٦) قد

عالج في كتاب مفقود الآن ، تأثير الدين والاقتصاد والسلوك والبيئة على شخصية الشعب وقوانينه ، كما تناول أسباب الاضمحلال السياسي (٨٠) . ومهما يكن من أمر فقد أحس ابن خلدون ، وله بعض الحق ، أنه خاق علم الاجتماع . إننا لا نستطيع ، في أي أدب كان قبل القرن الثامن عشر ، العثور على فلسفة للتاريخ ، أو على منهج لعلم الاجتماع ، يمكن أن يبارى في قوته ومداه ودقة تحليله منهج ابن خلدون . إن رائد فلسفة التاريخ في عصرنا قد حكم على مقدمة ابن خلدون بأنها أعظم تأليف من نوعه أنتجه عقل بعد في أي زمان أو مكان (٨١) . وقد يقارن به كتاب هربرت سبنسر « مبادئ علم الاجتماع » ١٨٧٦ - ١٨٩٦ ، ولكن كان لسبنسر معاونون كثيرون . إننا على أية حال قد نتمفق مع مؤلف ممتاز مشهور في تاريخ العاوم « على أن أهم مؤلف تاريخي في العصور الوسطى » (٨٢) هو مقدمة ابن خلدون .

الفصل الحادي الثلاثون سليمان القانوني

١٥٢٠ — ١٥٦٦

١ - الإسلام في أفريقية : ١٢٠٠ — ١٥٦٦

إنه من العسير علينا ، نحن المحصورين في العالم المسيحي ، أن ندرك أنه منذ القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ، كان الإسلام متفوقاً على أوروبا من النواحي الثقافية والسياسية والعسكرية . وحتى في أيام اضمحلاله في القرن السادس عشر ، ساد من دهمي وما وراءها حتى كازابلانكا ، ومن أدرنه إلى عدن ، ومن تونس إلى تمبوكتو . ويحدثنا ابن بطوطة الذي زار السودان ١٣٥٣ أنه وجد هناك حضارة مشرفة تحت راية الإسلام ، وكتب بعد ذلك مؤرخ من السود هو عبد الرحمن السعدي (١٦٥٠) ، تاريخاً كشفافاً بارعاً ، يصف مكتبات خاصة تضم ١٦٠٠ مجلد في تمبوكتو ، ويصف المساجد الضخمة التي تشهد أطلالها بمجد غابر .

وحققت أسرة الماريني (١١٩٥ — ١٢٧٠) . استقلال لبلاد المغرب ونهضت بفاس ومراكش إلى مصاف المدن الكبرى ، وكان في كل منهما مداهل جليلة ومساجد مهيبة ومكتبات عامرة بنسخات العلم والمعرفة ، ومدارس قائمة وسط أعمدة ظليلة ، وأسواق صاحبة يمكن أن يشتري المرء منها أي شيء بنصف الثمن . وكان يقطن فاس في القرن الثالث عشر نحو ١٢٥٠٠٠ نسمة ، وربما كان هذا أكبر من سكان أية مدينة في أوروبا ، باستثناء القسطنطينية ورومة وباريس . وفي مسجد القيروان وهو مقر أقدم جامعة في المغرب درس الدين والعلوم جنباً إلى جنب ، وقد جذبت هذه الجامعة إليها الطلبة المتعطشين من كل بقاع الإسلام في أفريقية ، والمعلمين

والحاميين ورجال الدين ورجال الحكم ، ليدرسوا مناهج شاقة لمدة قنرواح بين ثلاث سنين واثنتي عشرة سنة . وكان الأمير يعقوب الثاني الذي حكم بين ١٢٦٩ - ١٢٨٦ من فاس أو من مراکش ، من أكثر الأمراء استنارة في قرن تقدي . وكان حاكماً عادلاً ومحسناً خبيراً حكيماً ، لطف الدين بالفلسفة ، ونأى بنفسه عن التعصب الأعمى ، وشجع الاتصال الودي بالأوربيين . واستقبلت هاتان المدينتان كثيراً من اللاجئين من أسبانيا ، وأحضر هؤلاء معهم حوافز جديدة للاستزادة من العلوم والفنون والصناعة . وإن ابن بطوطة الذي كان قد رأى معظم العالم الإسلامي المترام الأطراف ليسمى مراکش « جنة الدنيا » .

ويدهش السائح الحديث في طريقة من فاس إلى وهران ، عندما يجد في تلمسان بقايا متواضعة لما كان في القرن الثالث عشر مدينة تضم ١٢٥,٠٠٠ نسمة . وكان بها ٦٤ مسجداً بقي منها ثلاثة فقط : الجامع الكبير (١١٣٦) ، ومسجد أبي الحسن (١٢٩٨) ومسجد الحلاوى (١٣٥٣) وهي من أجمل المساجد في العالم الإسلامي ، فيها أعمدة الرخام والفسيفساء المعقدة ، والمحاريب الرائعة ، الساحات ذوات العقود والخشب المحفور والمآذن السامقة ، وهي باقية لتكون شاهداً على العظمة الغابرة التي كادت أن تنسى . وهنا احتفظت أسرة عبد الواحد لمدة ثلاثة قرون (١٢٤٨ - ١٣٣٧ ، ١٣٥٩ - ١٥٥٣) بحكم كفل للمسيحيين واليهود الحرية الدينية ، كما رعت الآداب والفنون ، وبعد أن استولى الأتراك على المدينة ، فقدت أهميتها كمركز للتجارة ، واضمحلت وانزوت في ظلال التاريخ .

وإلى الشرق من المغرب ، ازدهرت الجزائر بفضل مزيج من التجارة والقرصنة . وقام ثغر الجزائر الجميل ، نصف مغربي في خليج نهف دائري تحف به الصخور ، المؤلف من طبقات بعضها فوق بعض من شقق

وقصور تمتد من البحر المتوسط إلى كسبه ، نقول هياً هذا الثغر للقرصان ومراكبهم مخبأً آمناً مفضلاً لديهم ، وحتى منذ أيام بومبي كان قرصان هذا الشاطئ يغيرون على المراكب العزل . ومنذ ١٤٩٢ أصبحت الجزائر ملجأ للمغاربة المسلمين الفارين من أسبانيا . وقد التحق كثير منهم بسفن القراصنة ، وانقضوا هسورة الانتقام على أية سفن مسيحية يتربصون لها . وتضاعف عدد القرصان واشتدت جرائمهم ، فكونوا أساطيل قوية في مثل قوة الأساطيل الوطنية وأغاروا على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط ، فردت أسبانيا على ذلك بحملات وقائية استولت على وهران والجزائر وطرابلس (١٥٠٩ - ١٥١٠) .

ودخل الميدان في ١٥١٦ قرصان جبار نشيط ، أطلق عليه الإيطاليون لقب بربروسه ، بسبب لحيته الحمراء ، واسمه الحقيقي خير الدين خضر . وكان يونانياً من لسبوس حضر مع أخيه هورش Horash لينخرط في سلك القرصان . وعلى حين وصل بنفسه إلى مرتبة القيادة في الأسطول ، قاد هورش جيشاً ضد الجزائر ، وطرد الحامية الأسبانية ونصب نفسه حاكماً على المدينة ، ومات أثناء القتال (١٥١٨) ، فاحتل خير الدين مكان أخيه ، وأدار شئون الحكم بقوة ومهارة . وقصد خير الدين ، رغبة منه في تثهيت مركزه ، إلى القسطنطينية حيث عرض على السلطان سليم الأول السيادة على طرابلس وتونس والجزائر في مقابل قوة تركية كافية للاحتفاظ بسلطانه بوصفه حاكماً من قبل السلطان على هذه الأقاليم . ووافق سليم ، وأكد سليمان هذه الاتفاقية . وفي ١٥٣٣ أصبح خير الدين بطل الإسلام في الغرب بأن هياً لسبعين ألفاً من المغاربة العبور إلى أفريقية من أسبانيا القاسية غير المضيفة . ولما عين بربروسه أول قائد عام للأسطول التركي برمته ، أغار بأربع وثمانين سفينة تحت إمرته على المدينة تلو المدينة على شواطئ صقلية وإيطاليا ، وأسر آلافاً من المسيحيين بيعوا الرقيق . ورسا بربروسه قرب نابلى ،

وكاد ينجح في أسر جيوليا جنزوجا. كواونا التي اشتهرت بأنها أبجل سيدة في إيطاليا ، إلا أنها فرت شبه عارية بمنطقة جوادا ، وبمعيها فارس واحد بوصفه حارساً لها ، فلما وصلت إلى المكان المقصود أمرت بإعدامه لأسباب أغفلت ذكرها ويمكن استنتاجها .

ولكن بربروسه كان يهدف إلى غنيمة أبقى على الأيام من سيدة جميلة ، فأنزل إلى البر جنوده الانكشارية ، وتقدم نحو تونس (١٥٣٤) . وكانت أسرة بنى النفيس قد حكمت تلك المدينة حكماً صالحاً منذ ١٣٢٦ ، وازدهرت الآداب والفنون تحت رعايتهم ، ولكن مولى حسن الذى كان أميراً آنذاك ، كان قد باعد بينه وبين الأهالى بوحشيته وقساوته ، وما أن اقترب بربروسه حتى لاذ الأمير بالفرار فسقطت تونس دون إراقة الدماء . وضمت إلى ملك آل عثمان ، وأصبح بربروسه سيد البحر المتوسط .

ووقع العالم المسيحي في محنة ثانية ، لأن الأسطول التركى كان يستطيع فى أية لحظة أن يهب للإسلام الدخول إلى جنوب إيطاليا . ومن الغريب حقاً أن فرانسوا الأول (ملك فرنسا) كان متحالفاً إذ ذاك مع تركيا ، كما كان البابا كليمنت السابع حليفاً لفرنسا . ومن حسن الحظ أن كليمنت قضى نجبه (٢٥ سبتمبر ١٥٣٤) فخلفه البابا بول الثالث الذى تعهد لشارل الخامس بالمال اللازم لمهاجمة بربروسه ، وعرض أندريه دوريا تعاون أسطول جنوه تعاوناً كاملاً هذه الحملة . وفى ربيع ١٥٣٥ جمع شارل الخامس فى كاجليارى فى سردينيا ٤٠٠ سفينة وقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . وعبر البحر المتوسط ، وحاصر لاجولتا ، وهو حصن يسيطر على خليج تونس ، وسقط الحصن بعد قتال دام شهراً ، وتقدم الجيش الإمبراطورى نحو تونس . وحاول بربروسه وقف تقدمه ، ولكنه هزم ولاذ بالفرار . وحطم الأرقاء المسيحيون فى تونس أغلالهم وفتحوا الأبواب ، ودخل شارل المدينة دون مقاومة ، وأباح لجنوده السلب

والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فأتى آلاف من المسلمين حتفهم . ودمرت حصيلة قرون من الفنون في يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون وسط مظاهر الابتهاج ، ووقع برائن العبودية من بقى من السكان المسلمين . وأعاد شارل الأمير مولى حسن كحاكم تابع يؤدي له الجزية ، وأبقى حامية في كل من بونا ولاجولتا ، وعاد هو إلى أوروبا .

فر بربروسه إلى القسطنطينية ، وبني بأموال من سليمان أسطولا جديدا مكوّنًا من مائتي سفينة . وفي يولية ١٥٣٧ ألفت هذه القوات مراسيها في تارنتو ، وضرب الحصار على العالم المسيحي ثانية . وتشكلت « العصابة المقدسة » من جديد من البندقية والبابوية والإمبراطورية ، وجمعت مائتي سفينة بعيدا عن كورفو ، وفي ٢٧ سبتمبر اشتبك الأسطولان المتصارعان في القتال عند مدخل خليج أمبراسيا ، في نفس المياه التي التقى فيها أنطونيوس وكليوباترة مع أكتافيوس في معركة أكتيوم . وكانت الغلبة لبربروسه ، وأصبح مرة أخرى سيد البحار ، وسار شرقاً واستولى في طريقه على ممتلكات البندقية في بحر إيجه واليونان بعضها إثر بعض ، وأرغم البندقية على عقد صلح منفرد .

وحاول شارل أن يكسب بربروسه اللاتحاق بخدمته بما أغدق عليه من هدايا ، وبما عرض عليه من أن يكون ملكاً ناهياً له على شمالي أفريقية ، ولكن خير الدين آثر جانب الإسلام وإغراءه . وفي أكتوبر ١٥٤١ قاد شارل ودهريا حملة ضد الجزائر ، ولكن جيش بربروسه أوقع بها الهزيمة في البر كما هبت عليها عاصفة مدمرة في البحر ، ورد بربروسه على العدوان بالمثل ، بالإغارة على كالابريا والنزول في أوستيا ثغر مدينة رومه ، وارتعدت العاصمة الكبيرة في عقر دارها فرقاً ، ولكن بول الثالث كان آنذاك على علاقات حسنة مع فرانسوا فعوض بربروسه ، ادعاء بمجاملة حليفه عن كل ما أخذه من أوستيا نقداً ، ورحل عنها في سلام^(١) : وأبحر إلى طولون ،

حيث لقي أسطوله ترحيباً ممن كانوا في الواقع فرنسيين ، وطلب أن تكف أجراس الكنيسة عن القرع طالما كانت « سفن الله » في الميناء لأن أصواتها تقض مضجعه ، وكان مطلبه قانوناً . واشترك مع أسطول فرنسي في الاستيلاء على نيس وفيلفرانش من الإمبراطور . وفي سن السابعة والسبعين اعتزل القرصان المنتصر الظافر تحيط به كل مظاهر الإجلال والتكريم ، ليقضى نحبه في فراشه ١٥٤٦ ، وقد بلغ الثمانين .

وسقطت بونا ولاجولنا ثانية في أيدي المسلمين . ووصلت الإمبراطورية العثمانية من الجزائر إلى بغداد . ولم تجرؤ سوى دولة إسلامية واحدة على تحدى سيطرتها على العالم الإسلامي .

٢ - فارس تحت حكم الصفويين

١٥٠٢ - ١٥٧٦

إن بلاد فارس التي كانت قد نعمت بفترات كثيرة من الخصب الثقافي ، كانت الآن تمر بمحنة أخرى من الحيوية السياسية والابداع الفني . وعندما أسس الشاه إسماعيل الأول الأسرة الصفوية (١٥٠٢ - ١٧٣٦) كانت فارس تعاني فوضى التمزق بين ملوك ضعاف ، فكان العراق ويزد وسافان وفيروزكه ودياربكر وكاشان وخراسان وقندهار وبلخ وكرمان وأذربيجان ، كلها ولايات مستقلة بعضها عن بعض . وفي حملات جبارة لا ترحم ، غزا إسماعيل أمير أذربيجان معظم هذه الإمارات واستولى على هراة وبغداد ، وجعل ثانية من تبريز عاصمة لمملكة قوية . ورحب الناس بهذه الأسرة من بني جلدتهم ، تلك الأسرة التي تألق مجدها فيما أسبغت على البلاد من وحدة وقوة ، وعبروا عما يحتاج في نفوسهم بيعث جديد للفن الفارسي .

إن لارتقاء إسماعيل إلى الملك قصة لا تملق ، ذلك أنه كان في سن الثالثة عندما مات أبوه (١٤٩٠) ، وفي الثالثة عشرة شرع يكسب لنفسه عرشاً ، وفي نفس السن لبس التاج وصار شاه فارس . ويصفه المعاصرون

بأنه « شجاع مثل ديك المصارعة الصغير » ، « نشيط رشيق مثل الساطير » (من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل وأذنا فرس) ، قوى عريض المنكبين ، ذو شوارب رهيبة ، وشعر أحمر براق ؛ وكان يستخدم ببراءة سيفاً جباراً بيده اليسرى . وكان فى الرمي بالقوس أوديسيوس آخر ، يصيب بقوسه سبع تفاحات من عشر مرصوصة على صف واحد^(٢) . ويروى أنه كان « أنيساً لطيفاً كالبنث » ، ولكنه قتل أمه (أو زوجة أبيه) ، كما أمر بإعدام ٣٠٠ من المومسات فى تبريز ، وذبح الآلاف من الأعداء^(٣) . وقال سائح هندى إنه كان محبوباً لدى الشعب حتى « نسى اسم الله » فى فارس ولم يذكر إلا اسم إسماعيل وحده^(٤) .

وكن سر نجاح إسماعيل فى الدين والحرارة . وكان المذهب الشيعى هو السائد فى فارس ، أى « أشيع » على ، صهر محمد أو زوج ابنته ، ولم يعترف الشيعة بخلفاء شرعيين غير على وخلفائه الاثنى عشر وهم « الأئمة » ، ولما كان الدين والحكومة غير منفصلين فى الإسلام ، فإن لمثل هذا الخليفة ، طبقاً لهذه النظرية حقاً إلهياً فى الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . وكما اعتقد المسيحيون أن المسيح سوف يعود ليؤسس مملكته على الأرض ، كذلك اعتقد الشيعة أن الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن — لم يموت قط ، وأنه سوف يظهر من جديد فى يوم من الأيام ليقم حكمه المبارك على الأرض . وكما أدان البروتستانت الكاثوليك بأنهم ارتضوا التتاليذ جنباً إلى جنب مع الكتاب المقدس كدليل أو مرشد إلى العقيدة الصحيحة ، كذلك اتهم الشيعة أهل السنة — وهم الغالبية الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الذين وجدوا أن الطريق المستقيم ليس فى القرآن وحده بل كذلك فى كل ما أتى الرسول كما جاء فى تقاليد أصحابه وأتباعه . وكما ترك البروتستانت الصلاة على القديسين وأغلقت الأديرة ، لم يشجع الشيعة التصوف وأغلقت أروقة الدراويش ، التى كانت مثل أديار أوربا فى بدايتها ، مراكز لكرم الضيافة

والبر والإحسان ، وكما أطلق البروتستانت على مذهبهم اسم « الدين الحق » ، اتخذ الشيعة اسم « المؤمنين »^(٥) (المعتقدون الحقيقيون) . ولا يؤاكل الشيعة المتمسك بمذهبه سنياً أبداً ، وإذا وقع ظل مسيحي على طعام شيعي وجب أن يئبد الطعام على أنه دنس (*) (٦) .

وادعى إسماعيل أنه من نسل الإمام السابع « صفى الدين » (نقاء العقيدة) ، وباسمه سميت الأسرة الجديدة . وأعلن إسماعيل أن المذهب الشيعي هو المذهب الوطنى والرسمى لفارس ، وأنه الراية المقدسة التى حارب فى ظلها ، ومن ثم وحد قومه فى إخلاص يتسم بالتقى والورع ضد المسلمين السنيين الذين طوقوا فارس — الأوزبك والأفغان فى الشرق ، والعرب والأتراك والمصريين فى الغرب . ونجحت خطته . وكان شعبه يعبده على أنه قدس (ولى من أولياء الله الصالحين) ، وكان رعاياه يثقون فى قوته الإلهية لحمايتهم ، إلى حد أن بعضهم رفض أن يلبس الدرع فى المعركة (٧) .

وما أن فاز إسماعيل بهذا السند الملهب حماسه — وهو الشعب — حتى أحس أنه من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى جيرانه . وكان الأوزبك الذين حكموا بلاد ما وراء النهر ، قد بسطوا سلطانهم حتى خراسان ، فانتزع منهم هراة وطردهم من فارس ، ولما اطمأن إلى سلامته فى الشرق ولى وجهه شطر الغرب ضد العثمانيين . واضطهد كل من الطرفين الآخر آنذاك بقوة مقدسة . وقيل فى رواية غير موثوقة إن السلطان سليمان قتل أو سجن ، قبل الذهاب إلى القتال (١٥١٤) ، أربعين ألفاً من الشيعة فى نطاق مملكته ، وإن إسماعيل شنت بعض السنين الذين كانوا يشكلون الغالبية فى تبريز ، وأمر الباقين بأن يرتلوا يومياً أدعية يلعنون فيها الخلفاء الثلاثة الأولين على

(٥) تلك مبالغات من المؤلف ، أثبتناها مجرد الأمانة فى النقل ، ولعل القارى لا يديرها

التفاناً . (المترجم)

اعتبار أنهم اغتصبوا حق على في الخلافة . ومهما يكن من أمر ، فإن
الفرس وجدوا الشيعة في معركة جالديران عاجزين أمام مدفعية سليم
العبوس وجنده الانكشارية ، واستولى سلطان العثمانيين على تبريز ، وأخضع
شمالى أرض الجزيرة (١٥١٦) ، ولكن جيوشه تمردت ، فتهققر وعاد
إسماعيل إلى عاصمة ملكه تحف به كل عظمة ومجد يمكن أن يحاط بهما ملك
عسكرى . وانحط الأدب أثناء حكمه المضطرب القاق ، ولكن الفن ازدهر
تحت رعايته ، فقد كان يرعى المصور بهزاد ، وقدر أنه يساوى نصف
فارس (٨) . ومات إسماعيل في سن الثامنة والثلاثين ، بعد أن قضى في الحكم ٢٤
عاماً . وخلف عرشه لابنه البالغ من العمر عشر سنوات ١٥٢٤ .

وكان الشاه طهماسب الأول ضعيف الإيمان جباناً ، سوداوى المزاج
كثيراً مترفاً منغمساً في اللذات ، وقاضياً خشناً ، يرعى الفنون ويمارسها ،
شيعياً تقياً ، كما كان معبود شعبه ، وربما تحلى ببعض فضائل أخفاها عن
عيون التاريخ . إن التوكيد المستمر على الدين أربك الحكومة كما قواها ،
وذلك أنه من أجل الدين شنت الحرب اثنى عشرة مرة ، وظل العالم
الإسلامى في الشرقي الأدنى والأوسط ممزقا متنازلاً من ١٥٠٨ إلى ١٦٣٨ ،
وأفاد العالم المسيحى من هذه الفرقة ، حيث انقطع سليمان القانونى عن شن
هجماته على الغرب ، ووجه حملاته نحو فارس . وفي ذلك كتب سفير
فرديناند في القسطنطينية يقول : « إن فارس هى التى تقف حائلاً بيننا
وبين الدمار » (٩) . وفي ١٥٣٣ قاد الوزير الأكبر إبراهيم باشا جيشاً
تركياً نحو أذربيجان ، واستولى في طريقه على الحصون الواحد تلو الآخر ،
بتقديم الرشوة إلى القواد الفرس ، وأخيراً استولى على تبريز وبغداد دون
أن يضرب ضربة واحدة (١٥٣٤) . وبعد أربع عشرة سنة ، وفي أثناء
هدنة مع فرديناند ، قاد سليمان جيشاً آخر ضد « الردوس الحمراء
الوضيعة » (وهو الاسم الذى أطلقه الانراك على الفرس) ، وانتزع

إحدى وثلاثين مدينة ، ثم استأنف هجراته على العالم المسيحي . وفيما بين عامي ١٥٢٥ ، ١٥٤٥ ، عاود شارل المفاوضة مع فارس المرة بعد المرة ، بافراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف في وجه سليمان . وابتهج الغرب حين تولت فارس الهجوم وانتزعت أرضروم . ولكن سليمان عاد في ١٥٥٤ واكتسح مساحات كبيرة من فارس ، وأرغم طهماسب على عقد صلح بقيت مقتضاه بغداد والقسم الأدنى من أرض الجزيرة تحت حكم الأتراك .

وثمة شيء أكثر إمتاعاً من هذه الصراعات الكثيابة تلك هي الرحلات البحرية المغامرة التي قام بها أنطوني جنكنسون إلى بلاد ما وراء النهر وفارس ، بحثاً عن طريق برى إلى الهند والصين ، وكان مسلك إيفان الرهيب في هذا الموضوع لطيفاً ودياً ، فقد رحب بجنكنسون في موسكو ، وبعث به سفيراً له لدى حكام الأوزبك في بخاري ، ووافق على السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى روسيا معفاة من الرسوم الجمركية ، ومرورها في نهـر الفولجا عبر بحر قزوين . وكتبت للرحالة النجاة من عاصفة هوجاء في هذا البحر ، واصل بعدها الرحلة إلى فارس ووصل إلى قزوين سنة ١٥٦١ . وهناك سلم طهماسب رسائل التحية من ملكة بعيدة ، بدا للفرس أنها سيدة قليلة الشأن تحكم قوما من الهمج ، وكان الفرس ميالين إلى عقد اتفاقية تجارية ، ولكنهم عندما أعلن جنكنسون أنه مسيحي ، أمروه بمغادرة البلاد ، قائلين : « ليس بنا من حاجة إلى مصادقة الكفار » . وبعد أن انصرف من حضرة الشاه ، جاء أحد الخدم فغطى بالرطل المطهر آثار أقدام المسيحي التي دنست قصر الشيعة (١٠) .

وبموت طهماسب (١٥٧٦) انقضت أطول فترة حكم لأى من الحكام المسلمين عدا واحداً . ولكنها فترة من أشد الفترات امقلاء بالنكبات . ولم يتميز هذا العهد بأية آداب يعتز بها الفرس في ذاكرتهم ، إذا لم تستثن

مذكرات بابر Babur الذى أبعد عن بلده . ولكن الفن على عهد الصفويين ، ولو أنه سيبلغ ذروته متأخرا عنهم ، بدأ فى هذين العهدين (عهد إسماعيل وابنه) ينتج أعمالا تنسم بالعظمة والتألق والنقاوة التى تميزت بها منتجات فارس الغنية لمدة اثنين وعشرين قرنا . وقد أبرزت مقبرة « هارون الولاية » فى اصفهان كل ما أودع فى الرسم الكلاسيكى الفارسى من دقة ورقة ، وأزهى الألوان ، ونقطيع الفسيفساء الخزفية المزخرفة . كما توج بوابة مسجد الجمعة الكبير نصف قبة معقدة . وأسس كذلك فى هذا العصر فى شیراز « مسجد جامع » آخر ، ولكن الزمن لم يبق على شىء منه ،

وثمة أمثلة كثيرة دلت على أن أشغال التذهيب الدقيقة والخط صمدت على تعاقب الزمن أكثر مما صمدت آثار العمارة ، وبرزت العناية التى بذلها المسلمون فى إخراج الكتاب (المخطوطات) حتى كادت تجعل منه معبوداً يحوطه الإجلال والحب . إن العرب الذين كانوا فخورين بكل شىء افتننوا افتتناناً مستساغاً مغفوراً لهم بحروف الهجاء عندهم ، تلك التى وهبت لهم من نفسها سطوراً من جمال حسى ، فالفرس ، فوق كل شىء جعلوا من الخط فناً لتزيين محاريب مساجدهم وأبوابهم ، والمعادن التى يصنعون منها أسلحتهم ، والفخار الذين يصنعون منه أعمال الخزف ، ونسيج سجاجيدهم ، ثم المصاحف ودواوين الشعراء ، وكل أولئك تعزز به الأجيال على أنه متعة للعين وبهجة للنفوس . أما خط « النستعليق » (*) Nastaliq :

(*) للخط العربى أسلوبان رئيسيان هما الكوفي والنسخ . عرفهما المسلمون فى القرن السابع الميلادى وهو مبدأ التاريخ الإسلامى . وأدخل على هذين النوعين بعض التعديل على مر العصور فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، وظهر فى القرن الثالث عشر الميلادى فى إيران نوع من الخط يعرف بالنستعليق ومن تميزاته ميل حروفه من اليمين إلى اليسار فى اتجاهها من أعلى إلى =

(أو الخط المائل) الذى كان قد ازدهر فى عهد التيموريين فى تبريز وهرارة وسمرقند ، فقد عاد إلى تبريز على عهد الصفويين ، وذهب معهم إلى اصفهان . وكما ضم المسجد عديداً من الفنون بعضها إلى بعض ، كذلك جمع الكتاب بين الشاعر والخطاط ورسام المنمنمات والمجلد (الذى يقوم بالتجليد) فى تعاون يتسم بالتفانى والإخلاص والورع .

وظل فن التذهيب مزدهراً فى بخارى وهرارة وشيراز وتبريز . ويضم متحف الفنون الجميلة فى بوسطن مخطوطة رائعة لشاهنامه الفردوسى ، بإمضاء عراجى محمد القوام الشيرازى (١٥٥٢) ، وفى متحف كليفلاند نسخة أخرى من عمل مشهدى الكاتب (١٥٣٨) ، ويضم متحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك نموذجاً من أروع نماذج التذهيب والخط فى تبريز ، وهى صحيفة العنوان فى مخطوطة «المنظومات الخمس» لنظامى (١٥٢٥) . وانتقل مركز التذهيب الإسلامى إلى تبريز حين اختارها بهزاد مقراً له (١٥١٠) . وفى أثناء معركة جالديران خبأ الشاه إسماعيل الصفوى المصور بهزاد والخطاط محمود النيسابورى فى كهف ، يوصفهما أثنى ما يمكن أن يقتنى^(١) . ورسم أقاميرك ، تلميذ بهزاد ، فى تبريز واحدة من أروع المنمنمات فى هذا العصر ، وهى صورة «تنويج خسرو وشيرين» (١٥٣٩) وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى . وعلم ميرك بدوره الفن لتميذه «سلطان محمد نور الذى ولد فى أسرة غنية ، ولكنه تجاهل حقيقة أن لديه من الوسائل ما يستطيع معها أن يكون لاهياً تافهاً ، فأصبح

= أسفل . وابتكر الخطاط مير على التبريزى فى القرن الخامس عشر «المتعلقات» يحتفظ بميزات الفسخ والتعليق معاً . وهو نوع أكثر رشاقة من غيره من المخطوط «من كتاب الفنون الإسلامية مؤلفه م . س ديماند ، ترجمة أحمد عيسى ص ٧٦ - ٨٦ ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤» . (المترجم)

« التؤلؤة التي لا تقدر بثمن » في بلاط شاه طهماسب لأنه فاق كل أهل زمانه في الخط والتذهيب ، وفي تصميم أغلفة الكتب والسجاجيد ، وفيما بين عامي ١٥٣٩ و ١٥٤٣ نسخ مخطوطة المنظومات الخمس لنظامي ووضحها بالرسوم ، وثمة صفحة رائعة في المتحف البريطاني تمثل الملك خسرو متمطياً صهوة جواد قرنفل اللون ، وهو ينعم النظر وسط نقوش النباتات والزهور ذوات اللون الأخضر والأسمر والذهب ، إلى شيرين وهي نصف عارية تستحم في بركة فضية . وثمة صورة أروع وأزهى ألواناً ، للرسول وقد أسرى به في السموات السبع على حصانه المجنح « البراق » (ليزور الجنة والنار ! هكذا في النص الإنجليزي !) والأشكال عبارة عن جمال مجسم ، ولكن المصور تعتمد لأسباب دينية ، ألا يكون بها تقاطع مميزة فردية ، فقد كان الفنان مهتماً بالزخرفة أكثر منه بالتشخيص ، وبالجمال الذي يكون موضع التقدير والاحترام ، وهو جمال يمكن الوصول إليه أحياناً إذا كان ذاتياً أو شخصياً ، أيسر من الوصول إلى الحقيقة التي تفلت دائماً إذا كانت موضوعية . وقد بلغ التذهيب ذروته في هذه المنمنمات .

وحظيت المنسوجات والسجاجيد بمثل هذه العناية المحببة إلى النفس . ولم يبق شيء من منسوجات هذه العهود ، ولكن المنمنمات تصورهما وتفوق مصممو السجاد وعماله المهرة في عهد الصفويين : وبدأ أن السجاد عنصر أساسي في حضارة الإسلام . ولم يجلس المسلمون أو يأكلوا على الكراسي ، ولكن على الأرض المقروشة بالسجاد . وهناك سجادة خاصة للصلاة عليها في العادة رموز دينية وآيات قرآنية ، يسجد عليها المسلمون في صلواتهم . وكانت السجاجيد مفضلة كهدايا للأصدقاء أو الملوك أو المساجد ، ولذلك أهدى شاه طهماسب عشرين سجادة كبيرة وكثيراً من السجاجيد الصغيرة من الحرير والذهب إلى السلطان سليم الثاني عند ارتقائه عرش آل عثمان ١٥٦٦ . وثمة معالم مميزة من التصميم حددت سجاد هذا

العصر ، وكأنها بستان ، ففيها رسوم النباتات والأزهار ، ومناظر الصيد والزهريات والرسوم المضلعة والمشجرة أو الرسوم النافرة أو البارزة ، وحول هذه الأشكال الأساسية توجد الزخرفة العربية المتعرجة ، مع أشربة السحب المستمدة من الفن الصيني ، ورموز ذات معان سرية لدى مبتكرها ، وحيوانات تمثل نمط الحياة ، ونباتات وزهور تعطي أريجاً ممثلاً في خيوط ، وطابعاً بهيجاً ، وسرى في هذا الككل المعقد منطق فني ، أو تناغم طباق في الخيوط أدق من موسيقى البستريينا (ملحن موسيقى دينية في إيطاليا في القرن السادس عشر) وأجل من شعر جوديفا(*) .

ويعود تاريخ بعض القطع المشهورة الباقية حتى الآن من السجاد الإيراني إلى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر . وإحداها ذات رسوم بارزة ، فيها ثلاثون مليون عقدة من المصوف على سداة من الحرير (٣٨٠ عقدة في البوصة المربعة) ، ظلت مفروشة لعدة قرون في أحد مساجد أردبيل ، وهي الآن موزعة بين متحف فيكتوريا وألبرت في لندن ومتحف لوس أنجلوس . وفي أحد أطرافها خرطوشة كتب عليها بيت من شعر حافظ ، وتحت عبارة الفخر : « من صنع العبد . . . مقصود الكاشاني في سنة ٩٤٦ هجرية » ، أي ١٥٣٩ م (١٢) . كذلك يوجد في متحف لوس أنجلوس « بساط التويج » الهائل الذي استخدم في تويج إدوارد السابع ١٩٠١ . وكان من بين أعظم النفائس في متحف بوادي بتزولي في ميلان ، قبل تدميره في الحرب العالمية الثانية ، سجادة بها مناظر صيد من صنع غياث الدين جامي من مدينة يزد ، وهو الذي يحتل في رسوم السجاد مكانة يهزاد في المنمنمات .

(*) تقول أسطورة إنجليزية إن Godiva طلبت من زوجها لورد كوفنتري فعرضت الباطلة التي يشكو منها الأهل . فاشتراط لتحقيق مطلبها أن تمنحها وتدير به في سوق البلدة وحى عارية ، لا يغطي جسدها إلا شعرها . (دائرة المعارف البريطانية) (المترجم)

أما سجادة « دوق أنهالت » في مجموعة دوفين فقد حظيت بشهرة عالمية بأرضيتها الذهبية الصفراء : مع زخرفة عربية رائعة ذات الألوان القرمزية والوردى والأزرق الفيروزي . إن السجاد والكتاب من أعظم المميزات التي تميزت بها فارس على عهد الصفويين وهي مميزات لا يستطيع أن يتحداها أو يمارى فيها أحد ، وهي تحتل في ذاكرة الجنس البشرى مكانة رقيقة .

٣ - سليمان القانوني والغرب

خلف سليمان القانوني أباه سليم الأول في ١٥٢٠ ، وهو إذ ذاك في سن السادسة والعشرين . وقام كسب لنفسه شهرة لشجاعته في القتال وكرمه في صدقاته ، وقدرته في إدارة الولايات التركية . وهيأت له تقاطيع المليحة وسلوكه المذهب أن يقابل بالترحيب في القسطنطينية التي شقيت بسليم العيوس ، ووصفه إيطالي رآه عقب توليه العرش مباشرة بأنه طويل نحيل قوى ، ذو عنق طويل جداً ، وأنف متقوس جداً ولحية وشوارب خفيفة ، وبشرة شاحبة رقيقة ، ووجه صارم هادئ ، وبدا وكأنه طالب أكثر منه سلطان (١٣) . ووصفه إيطالي آخر بعد ثمان سنوات بأنه « شاحب إلى حد رهيب مكتئب ، زير نساء عجول ، ومع ذلك فهو في بعض الأحيان وديع مذهب » . أما غسليين دي بوسبك Ghislain de Busbeq سفير آل هابسبرج لدى الباب العالي ، فقد وصف بطريقة تكاد تكون ودية رقيقة ألد أعداء آل هابسبرج فقال :

« لقد كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل . وحتى في بواكير أيامه ، حين كانت قواعد الحكم في تركيا تجيز الصفح عن الخطايا ، لم يكن

فى حياته ما يعاب عليه ، لأنه حتى فى أيام شبابه لم يدمن على الخمر ، ولم يقترب أباً من الجرائم غير الطبيعية التى كانت شائعة بين الأتراك ، ولم يستطيع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته أن يلدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه فى حب زوجته . . . ومن الحقائق المعروفة جيداً أنه منذ اتخذ منها حليمة شرعية ، كان مخلصاً لها كل الإخلاص ، برغم أنه لا يوجد فى القوانين ما يمنع من اتخاذ خليات كذلك (١٤) .

إنه وصف جدير بالملاحظة ، ولكنه يقسم بالملق الشديد . ولا ريب فى أن سليمان كان أعظم وأنبل سلاطين آل عثمان ، وأنه كان يضارع أى حاكم فى عصره من حيث الكفاية والحكمة والخلق ، ولكننا سوف نراه بين الحين والحين موصوماً بالقسوة والحقن والانتقام . ومهما يكن من أمر ، فلنبداً على سبيل التجربة ، بالنظر إلى صراعه مع العالم المسيحى .

طال أمد الصراع العسكرى بين المسيحية والإسلام آنذاك نحو ٩٠٠ سنة . فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الإمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة : غزا فيها العرب المسلمون هذه الإمبراطورية ، كما غزا فيها المغاربة المسلمون أسبانيا . وثأر العالم المسيحى لهذا الغزو ، وفى الحروب الصليبية التى غطى فيها الطرفان أطماعهما الاقتصادية وجرائمهما السيامية بشتار من شعارات دينية وحاس دينى ، انتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت أسبانيا المغاربة . ودعا البابوات الواحد تلو الآخر إلى شن حملات صليبية جديدة ضد الأتراك ، كما أقسم سليم الأول أن يشيد مسجداً فى قلب رومه . واقترح فرانسوا الأول على الدول

الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرماً ، وتمتسم ممتلكاتها فيما بينها ، باعتبارها غنائم من الكفار (١٥) . وأحبط هذه الخطة انقسام ألمانيا في الحروب الدينية ، وثررة الكوميونات (الوحدات الإدارية) الأسبانية ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد في التماس العون من سليمان ضد شارل . وربما كان لوثر قد أنقذ سليمان ، كما كانت الثرية مدينة له بفضل كبير .

إن كل حكومة تكافح لتوسيع رقعتها ، لتزيد من مواردها ودخولها من جهة ، وإيجاد أرض حاجزة حامية بين حدودها وعاصمتها من جهة أخرى . وارتأى سليمان أن أحسن وسيلة الدفاع هي الهجوم ، فاستولى على معقل المجر في ساباكس وبلغراد ، ولما سحر بالأطمئنان والأمن في الغرب ، وجه قواته ضد رودس حيث احتفل المسيحيون هناك تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، بقلعة منيعة تقع مباشرة على الطرق المؤدية من القسطنطينية إلى الإسكندرية وسوريا ، وبدأ لسليمان أن هذا معقل خطير أجبني في بحر هو بدون هذا المعقل بحر تركي ، وألحق أن سفن القرصنة عند الفرسان انقضت على تجارة المسلمين في أحد طرفي البحر المتوسط (١٦) ، كما انقضت قرصنة المسلمين على تجارة المسيحيين في الطرف الآخر . وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسره الفرسان في حملاتهم (١٧) . كما اعترض الفرسان طريق السفن التي تنزل الحجاج إلى مكة ، إذا ساورهم الشك في أن لها أغراضاً عدائية . ويقول مؤرخ مسيحي : « على أي الأحوال لم يكن سليمان بحاجة إلى ما يبرر الهجوم على رودس » (١٨) . ويضيف مؤرخ إنجليزي مشهور إلى هذا قوله : « كان من مصلحة النظام العام أن تضم الجزيرة إلى مملكة الأتراك » (١٩) .

وشن سليمان هجومه ومعه ثلثمائة سفينة وثلثمائة ألف رجل . واستمر المدافعون عن الجزيرة بقيادة رئيسهم الأكبر العجوز فيليب دي فيليز دي ليل — آدم (Phiippe de Villiers de L'ile-Adam) ، يقاتلون محاصريهم

لمدة ١٤٥ يوماً ، وأخيراً استسلموا بشروط مشرفة ، منها أن يغادر الفرسان وجنودهم الجزيرة في أمان ، كما يكون ، في مدى عشرة أيام ، للسكان الباقين الحرية الدينية الكاملة ، مع إعفائهم من الجزية لمدة خمس سنوات ، وفي يوم عيد الميلاد طلب سليمان أن يرى فيليب ، فواساه وامتدح دفاعه الباسل ونفحه هدايا ثمينة ، كما أبدى السلطان لوزيره إبراهيم : « أنه أسف أشد الأسف لاضطراره إلى إرغام هذا المسيحي على أن يغادر في شيخوخته وطنه وممتلكاته^(٢٠) . وفي أول يناير ١٥٢٣ أبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة كريت ، ثم غادروها بعد ثمانى سنين إلى وطن أكثر دواماً في المطه . ولطخ سليمان انتصاره بإعدام ابن الأمير جم وحفدته الأبطال لأنهم اعتنقوا المسيحية ، وقد يستخدمون ، كما استخدم جم ، في المطالبة بالعرش العثماني .

وفي أوائل سنة ١٥٢٥ ، تلقى السلطان سليمان كتاباً من فرنسوا الأول ، كما استقبل أسيراً من لدن شارل الخامس ، يطلبان منه مهاجمة البحر ، والإسراع إلى نجدة ملك فرنسا . فأجاب السلطان : « إن جوادنا مسرج ، وسيفنا معاق به »^(٢١) . إنه على أية حال كان عاجزاً على غزو البحر منذ زمن طويل . فسار في أبريل ١٥٢٦ بجيش قوامه مائة ألف رجل وثلاثمائة مدفع : وحث البابا كليمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة الدولة المهتدة ، على حين نصح لوثر الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم ؛ لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هي بمثابة مقاومة الله^(٢٢) . وبقى شارل الخامس في أسبانيا . وكان من نتيجة ذلك هزيمة البحر في معركة موهاكز ، وكانت للعالم المسيحي هزيمة أدبية ومادية في وقت معاً ، وكان من الممكن استرداد البحر لو تعاون الكاثوليك والبروتستانت ، والإمبراطور والبابا في العمل معاً . ولكن الزعماء اللوثرين ابتهجوا بفوز الأتراك . ونهب جيش الإمبراطور رومة :

وفي ١٥٢٩ عاد سليمان فحاصر فيينا بماقبي ألف رجل . ومن برج

سانت ستيفن استطاع كونت نيقولا فون سالم الذى عهد إليه فرديناند بالدفاع عن المدينة — أن يرى السهول والتلال المحيطة بها مغطاة بخيام العثمانيين وجندهم وأسلحتهم . وفي هذه المرة دعا لوثر أتباعه ليشاركوا في المقاومة ، لأن من الواضح أنه إذا سقطت فيينا ، ستكون ألمانيا هي الهدف الثانى لهجوم العثمانيين . وذاعت الأنباء في كل أنحاء أوروبا أن سليمان أقسم أن يخضع كل أوروبا للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهي الإسلام . وشق مهندسو الألغام الأتراك الخنادق ، الواحد بعد الآخر ، على أمل نسف الأسوار أو إحداث الانفجارات داخل المدينة ، ولكن المدافعين وضعوا أوعية من الماء في مواطن الخطر (٢٣) ، وراقبوا الحركات التي قد تدل على العمليات الخفية تحت الأرض . وأقبل الشتاء وعجز خط مواصلات الأتراك الطويل عن توفير المؤن . وفي ١٤ أكتوبر أهاب السلطان برجاله أن يبذلوا محاولة أخيرة حاسمة . ووعده بجوائز ومكافآت سخية ، ولكن الأرواح والأجسام معاً كانت كارهة غير راغبة ، وصد الهجوم مع خسائر فادحة ، وأمر سليمان بالتمهقر ، وقد ملأه الحزن . وكانت أول هزيمة يلقاها ، ولو أنه احتفظ بنصف الخبز ، وحمل معه إلى القسطنطينية تاج سانت ستيفن ، وفسر سليمان لشعبه أنه عاد دون أن ينتصر لأن فرديناند (الذى قبع طيلة الحصار آمناً في براج) كان قد رفض أن يحارب ، ووعده السلطان بأنه قريباً جداً سوف يصيد شارل ذاته ، الذى تجاسر على أن يسمى نفسه إمبراطوراً ، ويتنزع منه بالقوة السيادة على الغرب .

ونظر الغرب إلى السلطان ووعيده بعين الجلد ، وساد الذعر رومه . وفرض البابا كليمنت السابع ، الذى كان وطيذ العزم لأول مرة ، الضرائب حتى على الكرادلة ، لتوفير المال اللازم لتحصين أنكونا وسائر الثغور التي يمكن أن يدخل منها العثمانيون إلى إيطاليا .

وفي أول أبريل ١٥٣٢ تقدم سليمان نحو الغرب مرة أخرى . وكانت

مغادرته العاصمة مشهداً أحسن إخراجاً ، فكان يتقدم المسيرة ١٢٠ مدفعاً ، يتبعها ٨٠٠٠ من الانكشارية وهم خيرة جنود المملكة ، وسار بعد ذلك ألف رجل يحمل المؤن ، وألفان من صفوف الحياطة لحراسة الراية المقدسة — نسر الرسول — يتبعهم آلاف من أبناء الأسرى المسيحيين يرتدون ملابس من ذهب ، وقبعات حمراء مزودة بالريش ، يلوحون مزهوين بالخراب في شجاعة بريئة ، أما حاشية الملك وحرسه فكانوا رجالاً أشداء ذوي طلعة بهيمة ، وامتطى السلطان بينهم جواداً كستنائى اللون مرندياً القطيفة القرمزية الموشاة بالذهب تحت عمامة بيضاء مرصعة بالأحجار الكريمة . وسار وراءه الجيش الذى يبلغ فى جنته نحو مائة ألف رجل . ومن ذا الذى يستطيع مقاومة مثل هذه الأبهة والقوة ؟ ليس إلا العناصر والزمن !

ولكى يقابل شارل هذا التيار الجارف ، تلقى . بعد توسلات كثيره ، منحة من مجلس اللديت الإمبراطورى ليجند أربعين ألف رجل وبعد ثمانية آلاف جواد ، وقدم هو وفرديناند بالإضافة إلى ذلك ، ثلاثين ألف رجل على حسابهما الخاص . وبهذه القوة التى تجمعت فى قبينا وعدتها ٧٨٠٠٠ رجل . انتظروا الحصار . ولكن السلطان عوق فى جونز Günz ، وهى مدينة صغيرة محصنة تحصيناً شديداً . ولكن حاميتها لم تزد على ٧٠٠ رجل أحبطوا لمدة ثلاثة أسابيع كل محاولة بلحا الأتراك لاختراق الأسوار التى تقبوا إحدى عشرة مرة ، وفى كل مرة كانت الحامية المدافعة تسد الثغرات بالمعادن والجثث والاستماتة فى الدفاع . وأخيراً أرسل سليمان جواز مرور وبعض الرهائن إلى القائد — نيقولا جوريشتز Jurischitz — يدعوه إلى عقد مؤتمر ، فحضر واستقبله الوزير الأكبر بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وقد امتدحوا شجاعته وقيادته ، مع شىء من الحزن والأسى ، وأهداه سلطان رداء الشرف ، وضمن له عدم القيام بأى هجوم آخر ، وأعاداه إلى قلعته برفقة حرس رائع من الضباط الأتراك ، وسار إلى قبينا هذا

« السيل الجارف » من الجيش الذى لا يقهر ، والذى أوقع به الهزيمة سبعة
جل فحسب .

وهناك أيضاً لم يحظ سليمان بفريسته ، فإن شارل لم يكن ليخرج
للقتال ، فقد كان من الحمق والغباء أن يضع مزايا دفاعاته ليقامر بالقتال
فى ميدان مكشوف . وقدر سليمان أنه لو كان قد أخفق فى الاستيلاء على فينا
التي كان يسيطر عليها عشرون ألف جندي ليس لم إمبراطور أو ملك ظاهر
فى الميدان ، فإنه لا يكاد يحسن صنعاً أمام ٧٨٠٠٠ ينفخ فيهم روح
الحماسة والحياة ملك كان قد أعلن صراحة وعلى رموس الأشهاد أنه
يرحب بالموت ويستعذبه فى هذا الصراع كخاتمة شريفة نبيلة لهذه الحياة
الدنيا ، وهى خاتمة يصبو إليها كل مسيحي . وانصرف السلطان ،
ونخرّب ونهب فى طريقه ستيريا والقسم الأدنى من النمسا ، وأخذ كثيراً
من النمسي ليشرّف بهم تفهقه . وربما كان من المزعج له أن يسمع
أنه حين كان يتسكع جيئةً وذهوباً دون جدوى عبر أراضي المجر ، كان
أندريا دوريا قد طارد الأسطول التركي حتى اختفى ، واستولى على
براس وكورون على شاطئ البلوبونيز .

ولما أرسل فرديناند إلى القسطنطينية مبعوثاً يطلب الصلح رحب به سليمان
« ل إنه سوف يعقد الصلح » لا لمدة سبع سنوات ، ولا خمس وعشرين سنة ،
ولا مائة سنة ، ولا قرنين من الزمان ، أو ثلاثة قرون ، ولكن فى الحق إلى الأبد ،
إذا لم ينتفضه فرديناند نفسه » ، وإنه سوف يعامل فرديناند كابن له (٢٤) .
على أنه طلب ثمناً فادحاً ، وهو أنه ينبغي على فرديناند أن يرسل إليه مفاتيح مدينة
جرو Grau ، رمزاً للخضوع والولاء ، وكان فرديناند وشارل كلاهما
متأهين على تحرير أسلحتهما ضد المسيحيين ، إلى حد أنهما كانا
مستعدين لتقديم بعض التنازلات للأتراك . وأرسل فرديناند مفاتيح المدينة

وأطلق على نفسه « ابن سليمان » ، واعترف بسيادة سليمان على معظم أراضي المجر (٢٢ يونية ١٥٣٣) : ولم يعقد الصلح مع شارل ، واسترد السلطان بتراس وكورون ، وراوده حلم بسط سلطانه على فيينا وتبريز :

وفي ١٥٣٦ استولى على تبريز ، ثم عاد إلى الغرب . وطرح الدين جانباً ، وارتضى أن يتعاون مع فرانسوا الأول في حملة أخرى ضد شارل . وعرض على الملك أحسن الشروط وهي أنه لا صلح مع شارل إلا عند تسليم جنوه وميلان وفلاندرز إلى فرنسا ، ثم السماح للتجار الفرنسيين بالإبحار والبيع والشراء داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية ، على أن يعامل الأتراك بالمثل ، ومنح قناصل فرنسا في الإمبراطورية الولاية القضائية المدنية والجنائية على الرعايا الفرنسيين فيها ، كما يتمتع هؤلاء الرعايا بالحرية الدينية الكاملة (٣٥) . وهكذا أصبحت « الامتيازات الأجنبية » كما وقعت في هذه الاتفاقية ، نموذجاً يحتذى فيما جاء بعد ذلك من معاهدات بين الدول المسيحية ودول الشرق .

ورد شارل على ذلك بتكوين حلف يضم الإمبراطورية والبندقية والبابا . وانضم إليه فرديناند وهكذا أصبح قصير الأمد جداً ما كان مقدراً أن يكون أبدياً . وعانت البندقية وطأة الهجوم التركي وفقدت ممتلكاتها في بحر إيجه وشاطئ دالماشيا ، ووقعت صلحاً منفرداً (١٥٤٠) . وبعد سنة واحدة توفي دمية سليمان أو تابعه الحاكم في بودا ، وجعل سليمان من المجر ولاية عثمانية ، وأرسل فرديناند بعثة إلى تركيا تطلب الصلح ، وأخرى إلى فارس تحرض الشاه على مهاجمة الأتراك . فتهجم سليمان نحو الغرب (١٥٤٣) واستولى على جرووستولوزنبرج ، وضم مزيداً من أراضي المجر إلى الباشا (الحاكم التركي) في بودا . وفي ١٥٤٧ ، حين كان مشغولاً بالفرس ، منح الغرب هدنة لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها . حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشنوا الهجوم على فيليب الثاني الذي

كان بابوياً أكثر من البابوات (٢٦) . وأطلق موت فوانسوا وشارل يدى فرديناند فى الوصول إلى الصلح . وفى صلح براج ١٥٦٢ ، اعترف فرديناند بحكم سليمان فى المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوكات ، ووافق على دفع تسعين ألفاً كتأخرات .

وبعد عامين آخرين لحق بأخيه . وهكذا بقى سليمان على قيد الحياة بعد موت ألد أعدائه ، وكم من البابوات لم يعمر هو بهـدم ؟ لقد بسط سلطانه على مصر وشمال أفريقيا : وآسيا الصغرى وفلسطين وسوريا ، والبلقان والمجر . وسيطرت البحرية التركية على البحر والمتوسط . وأثبت الجيش التركى شجاعته الفائقة شرقاً وغرباً وأثبتت الحكومة التركية جدارتها وقدرتها فى فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسها . وفقد المسيحيون رودس وبحر إيجه والمجر ، وعقدوا صلحاً ذليلاً مهيناً . وبات العثمانيون آنذاك أكبر دولة فى أوروبا وأفريقية ، إن لم يكن فى العالم كله .

٤ - الحضارة العثمانية

أولاً - الحكومة :

هل كان العثمانيون منحضرين ؟ الحق أن الانضباط بأن العثمانيين كانوا متبربرين حمجيين إذا قورنوا بالمسيحيين ليس إلا وهماً قصد به تقربة الذات . فإن أساليبهم فى الزراعة وعلومهم كانت على الأقل تضارع ما كان منها لدى الغرب . فالأرض كان يفلحها مستأجرون من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين كان عليهم فى كل جيل أن يستحوذوا على أراضيهم بخدمة السلطان بطريقة مرضية ، فى الإدارة وفى الحرب . وباستثناء النسيج والحرف . وربما الأسلحة والدروع ، لم تكن الصناعة قد أقامت بعد نظام المصانع ، كما كان الحال فى فلورنسه وفى فلاندرز ، ولكن الحرفيين الأتراك كانوا مشهورين بمتجاتهم الممتازة . ولم يشعر الأغنياء أو الفقراء بالأسى والحزن

لانعدام النظام الرأسمالى . ولم يبلغ التجار المسلمون فى القرن السادس عشر من النفوذ السياسى أو المركز الاجتماعى ، ما بلغه نظراؤهم فى أوروبا الغربية . وتميزت التجارة بين الأتراك بعضهم البعض بالأمانة النسبية ، ولكن بين الأتراك والمسيحيين كان المال مستباحاً : وتركت التجارة الأجنبية فى معظمها للأجانب . وسارت قوافل المسلمين ، فى صبر وجاد ، على الطرق البرية التى كانت معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، إلى آسيا وأفريقية ، حتى عبر الصحراء ، وكانت الأنزال الصحراوية ، ومعظمها أسسه سليمان ، تقدم للتاجر أو السائح أماكن للاستراحة على الطريق . وسيطرت سفن المسلمين حتى سنة ١٥٠٠ على الطرق البحرية من القسطنطينية والإسكندرية ، عبر البحر الأحمر إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، حيث كان التبادل يتم مع البضائع التى حملتها السفن الشراعية الصينية . وبعد أن فتحت رحلة فاسكودا جاما وانتصارات البوكرك البحرية — فتحت الهند أمام التجار البرتغاليين ، فقد المسلمون سيادتهم على المحيط الهندى ، ودخلت مصر وسوريا وفارس والبندية طور اضممحلال تجارى عام .

وكان التركى رجل بر وبحر معاً . وكان اهتمامه بالدين أقل من اهتمام معظم سائر المسلمين ، ولكنه كذلك نظر بعين الإجلال والإكبار إلى الصوفية وال دراويش والأولياء ، واستمد شريعته من القرآن ، وتلقى تعليمه فى المسجد ، ونبذ فى عبادته ، مثل اليهود ، الصور المنحوتة ونظر إلى المسيحيين على أنهم مشركون وثنيون . وكان الدين والدولة شيئاً واحداً ، وكان القرآن والسنة هما القانون الأساسى ، وكان العلماء الذين فسرُوا القرآن هم أنفسهم أيضاً المعلمين والمحامين والقضاة ورجال القانون فى المملكة . وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا فى عهد محمد الثانى وسليمان الأول مجوعات القوانين العثمانية النهائية .

وكان المفتى ، أو شيخ الإسلام ، على رأس جماعة العلماء ، وكان أعلى

قاض في البلاد بعد السلطان والوزير الأكبر . ولما كان الموت حتماً مقضياً على السلاطين ، وكانت جماعة العلماء قائمة دوماً ، فإن هؤلاء المشرعين الدينيين هم الذين حكموا الحياة اليومية في الإسلام . ولما كانوا يفسرون الحاضر على أساس من شرائع الماضي ، فقد تشبعوا بروح المحافظة وأسهموا في ركود الحضارة الإسلامية بعد وفاة سليمان . وعزز الإيمان بالقضاء والقدر — أو كما يقول الأتراك قسمة الإنسان أو نصيبه — روح المحافظة هذه : أى أنا حيث أن الله قدر لكل نفس حظها ، فإن ضجر الإنسان بما قسم له ضرب من البعد عن الدين والتعمق فيه ، فكل شئ في هذه الدنيا ، والموت خاصة ، هو من أمر الله ويجب الرضا به دون تذمر أو شكوى . وقام بين الحين والحين من قوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة ، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام . ومهما يكن من أمر ، فإن العلماء عادة أجازوا قلداً كبيراً من حرية الفكر ، ولم يكن في تركيب الإسلامية محاكم تفتيش .

وتمتع المسيحيون واليهود في ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية ، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم في الأمور التي لا يكون المسلمون طرفاً فيها (٢٧) . واحتضن محمد الثاني الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً ، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك في مقاومة الصليبيين . وعلى الرغم من أن المسيحيين انتعشوا تحت حكم السلاطين ، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً . فقد كانوا في حقيقة الأمر عبيداً أرقاء ، ولكن كان في مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول في الإسلام ، وفعل الملايين منهم ذلك . أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش ، لأن الحروب الإسلامية كانت في ظاهرها مقدسة من أجل تحويل الكفار إلى الإسلام . وخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية . وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض ، وكان

لزماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية في خدمة السلطان .

وكان السلطان والجيش والعلماء هم الدولة . وإذا وجه السلطان النداء ، جاء كل رئيس إقطاعي ومعه قواته المجندة ليشكلوا فوق الخيالة الذين بلغ عددهم في عهد سليمان ١٣٠٠٠ رجل . وكان سفير فرديناند ينظر بعين الحسد إلى أبهة تجهيزاتهم : ملابسهم المصنوعة من البروكار (الحرير المتصب) أو الحرير ذي اللون القرمزى أو الأصفر الفاتح أو الأزرق القاتم ، وأطقم الخيل التي تتألق بالذهب والفضة والجواهر ، فوق أحسن جياذ رأتها عينا بوسبك Busbek وتكونت صفوة المشاة من أبناء الأسرى ودافعى الجزية المسيحيين الذين كانوا ينشأون على خدمة السلطان في قصره ، أو إدارة البلاد ، وفوق كل شيء في الجيش ، حيث كانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد . وكان مراد الأول قد أنشأ هذه الفرقة الفضة (١٣٦٠) ، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذي يحتمل أن يكون مصدر خطر . ولم يكن عددهم كبيراً - نحو عشرين ألفاً في عهد سليمان . وكانوا يتنقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية ، وكان محرمات عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية ، ويلقنون الروح العسكرية والمجد الحرب والعقيدة الإسلامية ، وكانوا شجعاناً في الحرب ، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم ، وجاء بعد هؤلاء الجنود المتفوقين ، الميليشيا (جند الطوارئ) ، وكانوا نحو مائة ألف ، أشرف السباهى والانكشارية على تدريبهم وتغذيتهم بالروح العسكرية . وكانت الأسلحة المفضاة لا تزال هي القوس والنشاب والرياح ، وكانت الأسلحة النارية في بداية استعمالها ، وفي الاشتباكات عن قرب كانت القضبان الشائكة والسيوف القصيرة هي المفضلة . وكان الجيش والعلوم العسكرية على عهد سليمان أفضل ما في العالم من نوعهما في ذلك

العصر ، ولم يضارع أى جيش آخر جيش سليمان فى سلاح المدفعية أو فى حفر الخنادق والهندسة العسكرية أو فى النظام والروح المعنوية ، أو فى العناية بصحة الجنود ، أو فى تموين الأعداد الهائلة من الجنود على مسافات بعيدة . ومهما يكن من أمر فإن الوسيلة كانت ممتازة لمجرد خدمة غاية معينة ، وأصبح الجيش غاية فى حد ذاته ، حيث كان لازماً ، للحفاظ على نظامه وكبح جماحه ، أن يخوض الحروب . وبعد سليمان أصبح الجيش ، والانكشارية فوق كل شىء - سادة على السلاطين .

وكان المجنسون الذين تحولوا إلى الإسلام من أبناء المسيحيين يشكلون غالبية الهيئة الإدارية فى الحكومة التركية المركزية . وكان حقاً علينا أن نتوقع أن يخشى السلطان المسلم أحاطته برجال يحون « الزعيم الوطنى الألبانى » اسكندر براج ، ويحنون إلى دين آبائهم ، والأمر على التقيض من ذلك ، فإن سليمان أثر هؤلاء التحولين عن دينهم ، لأن فى الإمكان تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على مهام محددة فى الإدارة . والأرجح أن بيروقراطية الدولة العثمانية كانت أقدر ما وجد من نوعها فى النصف الأول من القرن السادس عشر (٢٨) ، ولو كانت عرضة للرشوة بشكل يسىء إلى سمعتها ، وضم الديوان - وهو بمثابة الوزارة فى الحكومات الغربية - كبار رجال الإدارة تحت رئاسة الوزير الأكبر عادة . وكان لهذا الديوان سلطات استشارية أكثر منها تشريعية . وكانت توصياته تصبح عادة قانوناً بمقتضى قانون أو مرسوم من السلطان ، وكانت السلطة القضائية يتولاها القضاة والأئمة (كبار القضاة) من العلماء . ولحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم وسرعة البت فى المحاكمات وصدور الأحكام (٢٩) ؛ كما اعتمد مؤرخ إنجليزى كبير أن « سير القضاء فى عهد الحكام العثمانيين الأولين كان فى تركيا أفضل منه فى أية بقعة فى أوروبا ، وأن رعايا السلطان المسلمين كانوا أدق نظاماً من معظم

الجاليات المسيحية ، وأن الجرائم كانت أندس^(٣٠) . وكان الانكشارية يقومون بوظيفة الشرطة في شوارع القسطنطينية التي يجتمل خلوها من حوادث القتل أكثر من أية عاصمة أوربية أخرى^(٣١) . وفضلت الأقاليم التي وقعت تحت الحكم الإسلامي - رودس ، اليونان ، البلقان - فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة في ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد انجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسبرج^(٣٢) .

وكانت معظم مكاتب الإدارة في الحكومة المركزية مستقرة في « السراى » أى المساكن الإمبراطورية - وهى ليست قصرأ ، ولكن مجموعة مبان وحدائق وساحات ، تضم السلطان وحريمه وخدمه ومعاونيه وثمانين ألفاً من البيروقراطية . وكان لهذا النطاق الذى يبلغ محيطه ثلاثة أميال ، باب واحد ذو زخرفة رائعة ، أطلق عليه الفرنسيون « الباب العالى » ، وهو اصطلاح حدث فى شئ من لغو الحديث ، أن قصد به الحكومة التركية نفسها . وجاء فى المقام الثانى بعد السلطان فى هذا التنظيم المركزى ، الوزير الأكبر . وأصل الكلمة عربية ومعناها حامل الأثقال ، والحق أن الوزير نهض بأعباء ثقيلة ، فكان على رأس الديوان ، والبيروقراطية ، والقضاء ، والسلك الدبلوماسى ، كما أشرف على العلاقات الخارجية ، وأجرى التعيينات الكبرى ، كما قام بأدق المهام الرسمية فى أكثر الحكومات الأوربية ولعأ بالرسميات . وأما أشق التزامات الوزير فهى لإرضاء السلطان فى كل هذه الأمور : حيث كان الوزير عادة مسيحياً ثم أسلم . وبعبارة أدق ، هو عبد ، ويمكن أن يلقى حتفه دون محاكمة بكامة من سيده ، وأثبت سليمان نفاذ بصبرته وسداد رأيه باختيار وزرائه الذين أسهموا إسهاماً كبيراً فى نجاحه . وكان إبراهيم باشا (إبراهيم الحاكم) يونانياً أسره قراصنة المسلمين وأحضره إلى سليمان باعتباره عبداً يبشر بحسن المستقبل .

ووجد سليمان أنه متعدد القدرات إلى حد أنه وكل إليه الأكثر فالأكثر من الصلاحيات والمهام ، وأجرى عليه راتباً سنوياً قدره ٦٠ ألف دوكات (١٠٠٠ر٥٠٠ دولار؟) وزوجه من أخت له ، وآكله بانتظام ، واستمتع بمحدثه ومعزوفاته الموسيقية وبمعرفته باللغات ، والآداب ، وحسن اطلاعه على أمور الدنيا . وعلى الطريقة الشرقية الأنيقة أعلن السلطان سليمان أن « كل ما يقوله إبراهيم ينبغي أن يعتبر كأنه صادر من ذات فيه الذى ينثر اللائى» (٣٣) . تلك كانت واحدة من أعظم صداقات التاريخ ، حتى فى أساطير اليونان القديمة .

وثمة حكمة واحدة كانت تعوز إبراهيم - تلك هى أن يخفى زهوهه للداخلى بتواضع خارجى أو ظاهرى . لقد كان لديه كثير من الأسباب التى تجعله يزهو بنفسه ، فهو الذى سما بالحكومة إلى أعلى درجات المقدرة والكفاية ، وبفضل دبلوماسيته هو استطاع أن يشيع الفرقة والانقسام بين دول الغرب بتدبير التحالف مع فرنسا ، وهو الذى أعاد الهدوء إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، حين سار سليمان بجيشه إلى الحجر ، بإصلاح المساوئ ومعاملة الجميع بالعدل والكمياس . وكذلك كان له العذر فى أن يكون حذراً متوجساً ، فإنه لم يزل عبداً ، وكلما ارتفع رأسه ، ازداد رقة ودقة ذلك الخيط المعلق منه سيف السلطان المصمت على رقبتة : وقد أغضب الجيش حين حرم عليه سلب تبريز وبغداد ، وحاول منعه من سلب بودا . واستطاع فى هذا السلب أن يتخذ جزءاً من مكتبة ماتياس كورفينوس ، وثلاثة تماثيل من البرونز لهرمز وأبوللو وأرتميز ، ووضعها أمام قصره فى القسطنطينية ، وحتى سيده المتحرر اضطرب لهذه الإساءة الموجهة إلى الوصية السامية بتحريم النحت ، واتهمته ثروة الناس بامتهان القرآن . وأقام فى بعض الأحيان حفلات تفوق فى نفقتها وبهائها حفلات السلطان ، واتهمه أعضاء الديوان بأنه يتحدث وكأنه كان يقود السلطان كأسد أليف

موثق بالقيود . واغتازت روكسيلانا محظية الحريم من نفوذ إبراهيم ،
ويوماً بعد يوم ، وبفضل إصرار النساء ، ملأت أذن الإمبراطور بالشبهات
والشكاوى ، حتى اقتنع السلطان أخيراً ، وفي ٣١ مارس ١٥٣٦ ،
وجده إبراهيم مخنوقاً على فراشه ، ويحتمل أن يكون ذلك بأمر ملكي
وهذا عمل ينافس في وحشيته لإحراق سرفيتس أو بركوين .

وأكثر وحشية من هذا بكثير ، قانون قتل الأخوة الإمبراطورين .
وقد عبر عنه محمد الثاني صراحة في سجل القوانين : « إن غالبية المشرعين
أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتواون العرش ، يكون لهم الحق
بالإعدام لإخوتهم تأميناً للسلام في الدنيا ، وعليهم أن يعملوا طبقاً لهذا » (٢٤) .
وبهذا حكم محمد الفاتح ، في هدوء ، بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا
الكبار منهم . وثمة سيئة أخرى من سيئات النظام العثماني ، وهى أن تؤول
ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام ، إلى السلطان الذى كان لذلك دائماً ،
تحت تأثير الإغراء بتحسين موارده المالية ، يصم أذنيه دون أى نداء أو رجاء
ولا بد من أن نضيف أن سليمان قاوم هذا الإغراء . وعلى النقيض من مثل
هذه المساوئ في الحكم الفردي المطلق ، يمكن أن نعتزف بديمقراطية غير
مباشرة في الحكومة العثمانية ، تلك هى أن الطريق إلى للرفعة والمكانة العالية ،
فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحاً أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام
ومهما يكن من شيء ، فربما برهن نجاح السلاطين الأوائل على أن قدرة
الأرستقراطية وراثية بحيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل
هذا المستوى العالى من القدرة والكفاية لأمد طويل ، كما كان الحال في العرش
العثماني .

يأ - الأخلاق :

إن قبائين الطرق والأساليب عند العثمانيين والمسيحيين أوضح بشكل صارخ التنوع الجغرافي والزمني في القوانين الأخلاقية ، فقد ساد تعدد الزوجات بهدوء حينما كانت المسيحية البيزنطية حديثاً جداً قد اقتضت رسمياً أحادية الزواج ، واختبأت المرأة في أروقة الحريم أو وراء برقعها أو خمارها ، حينما كانت يوماً قد اعتلت عرش القياصرة ، ولبي سليمان في إخلاص وتفان كل حاجيات حريمه دون شئ من وخزات الضمير التي ربما شوشت أو عززت المغامرات الجنسية الطائشة التي كان يقوم بها فرانسوا الأول .
أشارل الخامس أو هنري الثامن أو الإسكندر السادس : إن المدنية التركية : مثل المدنية اليونانية ، احتفظت بالمرأة بعيداً عن الأنظار والأضواء ، وأجازت قدرأ كبيراً من حرية الانحراف الجنسي . إن المواطن عند العثمانيين ازدهر حينما كانت « الصداقة عند اليونان » قد كسبت يوماً المعارك وألهمت الفلاسفة .

أحل القرآن للأثراك الزواج من أربع بالإضافة إلى عدد من البحواري (في النص الإنجليزي خليلات) ، ولكن قلة من الناس تحمل مثل هذا البلذخ والتبذير . وكثيراً ما ابتعد العثمانيون المحاربون عن زوجاتهم اللاتي ألفوا معاشرتهن ، واتخذوا زوجات أو خليلات من أرامل وبنات المسيحيين الذين قهروهم أو غزوا بلادهم ، ولم تتدخل في سبيل ذلك أية حزازات عنصرية ، فكم لقي أحر الترحاب بأذرع مفتوحة نساء يونانيات أو صربيات أو ألبانيات أو مجريات أو ألمانيات أو إيطاليات أو روسيات أو مغولييات أو فارسيات أو عربيات ، وأصبحن أمهات لأطفال كانوا على قدم المساواة يعتبرون أبناء شرعيين عثمانيين ، وكاد الزنى أن يكون غير ضروري في مثل هذه الظروف ، وإذا حدث كانت عقوبته صارمة ،

فكانت المرأة الزانية تلازم بشراء حمار تركبه وتطوف به المدينة ، وكان الزاني يجلد مائة جلدة ، ثم يقبل جلاده ويكافئه . وكان الرجل يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد الإعلان أو الإفصاح عن قصده (أو أن يقسم يمين الطلاق) ، أما الزوجة فلم تكن تستطيع أن تخاص نفسها إلا برفع دعوى معقدة معوقة .

وظل سليمان اعزب حتى سن الأربعين . فنند أسر تيمور زوجة بايزيد الأول — والمزعوم أنه هو وبني عشيرته من التتار آذوها وأساءوا معاملتها — فإن سلاطين آل عثمان ، لتفادى أية مهانة أخرى مثل هذه ، استنوا قاعده ألا يتزوجوا ، وألا يشاركهم فراشهم إلا البخواري^(٣٥) . وضم حريم سليمان نحو ٣٠٠ جارية كلهن مشتريات في السوق أو أسيرات في الحرب وكلهن تقريباً من أصل مسيحي . وإذا توقع النسوة زيارة السلطان ارتدين أجمل ثيابهن ووقفن صفوفاً لتحيته ، وكان هو يسلم على أكبر عدد منهن ، قدر ما يسمح به وقته ؛ ويضع منديله على كتف من نالت إعجابه منهن بصفة خاصة . حتى إذا قضى وطره وانسحب في ذاك المساء ، طلب إلى من تلقت المنديل أن تعيده إليه ، وفي صباح اليوم التالي كان يهدى إليها ثوب من قماش من ذهب ، وتزداد مخصصاتها . وقد بقي السلطان في الحريم ليلتين أو ثلاثاً ينثر هباته السخية ، ثم يعود إلى قصره ليقضى ليله ونهاره بين الرجال . وقاما ظهر النساء في قصره أو اشتركن في الولائم أو الحفلات الرسمية . ومع ذلك اعتبر الانضمام إلى الحريم شرفاً عظيماً . وإذا بلغت أى من نزيلات الحريم الخامسة والعشرين من عمرها دون أن تحظى يوماً بالمنديل ، أعتنت . وكانت في العادة تجد زوجاً ذا مكانة عالية . ولم يؤد هذا النظام في حالة سليمان إلى انحلال جمائى ، لأنه كان يتميز في معظم الأمور باعتدال رائع .

ولم يكن اختلاط الجنسين سائداً في الحياة الاجتماعية لدى العثمانيين .

ومن ثم كانت تعوزها ما تشيعه فيها فتنة النساء والثروة الضاحكة من بهجة . ومع ذلك كان السلوك مهذباً قدر ما كان في المسيحية . وربما كان أكثر تهذيباً من أية بقعة أخرى باستثناء الصين والهند وإيطاليا وفرنسا . وكان عدد الأرقاء المحليين كبيراً ، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية ، وكانت ثمة قوانين كثيرة لحمايتهم . وكان لإعتاقهم أمراً ميسوراً (٣٦) . وعلى الرغم من أن العناية بالصحة العامة كانت قليلة ، فإن النظافة الشخصية كانت شائعة . وانتقل إلى تركيا نظام الحمامات العامة الذي يبدو أن الفرس أخذوه عن سوريا الهلينستية . وكانت هذه الحمامات في القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى في الإمبراطورية العثمانية تبنى من الرخام وتزين بزخارف أخاذة . وكان بعض القديسين المسيحيين يفخرون بأنهم تجنبوا استعمال الماء ، على حين فرض على المسلمين الوضوء والتطهر قبل الدخول إلى المسجد أو أداء الصلاة . ولحق أن للنظافة في الإسلام كانت لاحقة للتدين والتقوى . ولم تكن آداب المائدة لديهم أفضل منها في العالم المسيحي ، فكان الأكل بالأصابع في أطباق خشبية حيث لم يكن ثمة شوك . ولم تتناول الخمر في المنازل قط ، ولكن الكثير منها كان يجتسى في الخانات ، ولكن الإدمان عليها كان أقل منه في الغرب (٣٧) . واستعمل المسلمون القهوة في القرن الرابع عشر ، ولقد سمعنا أول ما سمعنا عنها في الحبشة ، ومنها انتقلت إلى شبه الجزيرة العربية ، ويقال إن المسلمين استخدموها في الأصل بغية مساعدتهم على دوام اليقظة والتنبيه أثناء تعبدتهم (٣٨) . ولم يرد لها ذكر على لسان أى كاتب أوربي قبل سنة ١٥٩٢ (٣٩) .

ومن الناحية الجثمانية كان التركي قوياً متين البنيان ، مشهوراً بالجلد وقوة الاحتمال . وكم دهش بوسبك عندما شهد بعض الأتراك يتلقون مائة جلدة على أخص القدم أو على رسغ القدم ، « حتى لتنكسر عليهم أحياناً جملة عصي من خشب القرانيا دون أن تصدر عنهم أية صرخة » (٤٠) . واحتفظ

التركي دوماً بمظهر الوقار ، تساعده ملاييسه على إخفاء مخافات البدانة الناتجة عن البطنة . وارتدى عامة الشعب الطربوش ، ولف المتأنقون حوله عمامة ، وكان كلا الجنسين يهوى الأزهار . واشتهرت الحدائق التركية بتعدد الألوان فيها ، ومن هناك ، فيما يبدو ، انتقل إلى أوروبا الغربية المايلك والتولب ، والسنت ، والغار وغيرها . وكان ثمة ناحية جمالية عند الأتراك ، كان من العسير أن تكشف عنها حروبهم . ولما لندھش مما يرويه السياح الأوربيون من أن الأتراك لم يكوّنوا ، فيما عدا زمن الحرب ، « قساة بالطبيعة » ، ولكن طيعين ، وديعين مهذبن ، أليفين » ، « شفقين بصفة عامة » (١١) . وشكا فرانسيس بيكون من أنهم بدوا أشد رفقاً بالحيوان منهم بالإنسان (١٢) . وما كانت القسوة لتنفجر إلا إذا نهدت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركي يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت ثور تآثرته .

وكان التشريع التركي صارماً في الحرب بصفة خاصة . فلم يؤخذ أى عدو بأية رحمة أو هودة ، وكانوا يبقون على حياة النساء والأطفال ، أما الأعداء القادرون الأشداء فقد يلبحون ، ولو لم يكونوا مسلحين أو لم يقاوموا ، وحتى دون أن يترفوا إثمًا (١٣) . ومع ذلك فإن كثيراً من المدن التى استولى عليها الأتراك نهضت أكثر مما نهضت المدن التركية التى استولى عليها المسيحيون ، من ذلك أن إبراهيم عندما استولى على تبريز وبغداد ١٥٣٤ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو إيذاء سكانهما ، كذلك ، عندما انتزع سليمان تبريز ثانية ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح ، ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يسقط دفع رواتب جنوده إلا بإباحة السلب والنهب . ومهما يكن من شيء فإن القانون التركي لافس القانون المسيحى فى العقوبات الوحشية ، فقطعت يد السارق حتى تقل قدرته على السرقة (١٤) .

وكانت الأخلاق الرسمية بمثل ما كانت عليه في العالم المسيحي ، فكان الأتراك يفخرون بوفائهم لكلمتهم وعهودهم ، وحافظوا على بشود الامتيازات التي منحوها لأعدائهم ، ولكن رقيب الآداب التركي ، مثل نظيره — سالت جون كابسترانو مثلاً — كان يرى أنه ليس ثمة وعد أو عهد يلزم المؤمن بشيء يتعارض مع مصلحة أو واجبات دينه ، وأن السلطان يمكنه أن يبطل المعاهدات التي عقدها هو أو أسلافه (٤٥) ، وذكر السياح المسيحيون أن التركي العادي يتسم « بالأمانة وروح العدل » ، حب الخير والنزاهة والإحسان » (٤٦) . ولكن الأتراك أصحاب المناصب كانوا عادة يرتشون بسهولة ، ويضيف مؤرخ مسيحي ، أن معظم الموظفين الأتراك كانوا مسيحيين من قبل (٤٧) ، ولكن يجدر بنا أن نضيف شيئاً آخر ، وهو أنهم ربوا تربية إسلامية . فالباشا التركي في ولايته ، مثل البروقنصل (حاكم الإقليم) ، الروماني ، كان يبادر إلى جمع الثروة ، قبل أن تثور وساوس سيده فيستبدل به شخصاً غيره . إنه كان يتقاضى من رعاياه الثمن الذي كان قد دفعه لتعيينه . وكان يبيع المناصب شائعاً في القسطنطينية أو القاهرة ، قدر شيوعه في باريس أو روم .

ثالثاً — الآداب والفنون :

كانت تهيئة السبل لتحصيل العلوم والمعارف أو نقلهما هي أضعف حلقة في الحضارة العثمانية . وكان التعليم الشعبي مهملاً بصفة عامة . وضالة العلم والمعرفة أمر خطير . وكان التعليم على الأغلب مقصوراً على الطلاب الذين يقصدون إلى دراسة للتربية أو القانون أو الإدارة ، وكانت مناهجها طويلة قاسية ، وقضى محمد الثاني وسليمان وقتاً طويلاً في إعادة تنظيم المدارس وتحسينها ، ونافس الوزراء سادتهم السلاطين في إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد . ونعم المدرسون في هذه

المعاهد بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم في العالم المسيحي اللاتيني . وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن ، ولكنهم سعوا كذلك إلى دراسة الآداب والرياضيات والفلسفة ، ولكن خريجهم ، ولو أنهم كانوا أكثر تحصيلاً في فروع الدين منهم في العلوم ، ساروا جنباً إلى جنب مع الغرب في الهندسة وفن الحكم .

وكانت قلة ضئيلة من السكان فقط تعرف القراءة ، ولكن كل هؤلاء تقريباً كانوا ينظمون الشعر ، ولا يستثنى من ذلك السلطان سليمان نفسه ، وكان الأتراك - مثل اليابانيين - يعقدون مسابقات عامة يتلو فيها الشعراء ما جادت به قرائحهم ، وكان السلطان سليمان يطيب له ، مجاملة وكياسة منه - أن يرأس مثل هذه المباريات الشعرية . ولقد كرم الأتراك مائة شاعر في هذا العصر ، ولكن انغمارنا في عظمتنا ومصطلحاتنا نحن ، تركنا جهلة ، لا نعلم شيئاً حتى من أمر شاعرهم الغنائى العظيم محمود عبد الباقي الذى شهد أربعة عهود ، لأنه وإن كان في سن الأربعين عندما توفى سليمان ، فإنه عمر بعده أربعة وثلاثين عاماً . وقد تخلى عن مهنته القديمة ، وهى السراجة ليعيش على شعره . وكان من المحقق أن تعضه الحاجة بأنيابها لو لم يسعفه سليمان بوظيفة لا عمل فيها ، وجمع سليمان المدح إلى الكسب ، فنظم قصيدة يتلى فيها على تفوق شعر عبد الباقي ، ورد عبد الباقي الدين فكتب مراثية قوية يندب فيها موت سليمان ، وعلى الرغم من أن الترجمة نفقد رواءها بالتماس المحافظة على تعدد القوافى فى الأصل ، فقد يتكشف فيها بعض الانفعال والروعة :

أمير فوارس الحظ ، يا من لفرسه الجرىء المعد للقتال ،
حما كره أو فر أو كان مقيداً ، كانت له الأرض كلها ساحة نزال !
أنت يا من لبريق سيفه أحنى المجرى رأسه !

أنت يا من يعرف الفرنجة حق المعرفة وميض شارته الخفيف !
 مثل ورقة الورد الغضة وضع وجهه برفق في التراب ،
 فتلقته الأرض ، الخازن الأمين ، وأودعته كالجوهرة في حرز .
 الحق أنه كان إشعاع المكانة الرفيعة والمجد العظيم ،
 الشاه ، الاسكندر وعليه إكليل دولة دارا المسلحة ،
 وأمام التراب الذى تحت قدميه أحق الكون رأسه خفيضاً .
 ويمثابة مقام العبادة على الأرض كان باب جناحه الملكى .
 لقد جعلت أصغر هباته من أحقر متسول أميراً ،
 فاق في الندى والجود ، وفي الرحمة والرأفة أى ملك
 لقد لاقى من هذا الكون الحزين المتقلب نصيباً ، فلا تحسبه ،
 وهو بجوار ربه قد تخلى عن مكانته وعن مجده .
 أى عجب إذا لم تر أعيننا شيئاً من الحياة أو من الدنيا بعد ذلك !
 إن جماله البارع ، مثل الشمس والقمر ، قد أفاض على الأرض نوراً . . .
 فلبتلك الآن سحب الدم قطرة قطرة ، ولتنحن خفيضة !
 وبهذا الألم المبرج الحزين فلتمطر عيون النجوم دمعاً سخيفاً مريراً ،
 ودخان زفرات القلوب يظهر أن السماء الخالكة السواد تحترق . . .
 إن الطائر ، أى روحه ، قد طار عالياً إلى السموات مثل الهامة ،
 ولم يخلف وراءه سوى قليل من العظام على الأرض تحته . . .
 وليكن خالداً مجد خسرو فى السموات العلى !
 ولتنزل رحمة الله على نفس الملك وروحه — ووداعاً ! (٤٨) .

وكان الأتراك فى شغل شاغل بغزو الدول القوية إلى حد أنهم لم يجدوا
 مسحة من الوقت للفنون الدقيقة التى كان الإسلام حتى الآن قد اشتهر وتميز
 بها . وقد أنتج الأتراك منمنمات تميزت ببساطة التصميم وسعة التفكير فى
 الأساليب . أما التصوير التشخيصى أو التمثيل فقد ترك للمسيحيين المفترين

الذين ظلوا في هذا العصر يزینون جدران كنائسهم وأديارهم باللوحات
الجصية ، ففى مانويل بانسيلينوس - الذى ربما استعار بعض الحوافز من
الصور الحائطية الإيطالية فى عصر النهضة - قد زين بالحص كنيسة بروتانوف
على جبل آثوس (١٥٣٥ - ١٥٣٦) ، برسوم أكثر انطلافاً وجرأة
ورشاقة من رسوم العصور البيزنطية . واستقدم السلاطين فنانون من الغرب
والشرق - جنتيل بلينى من البندقية ، وشاه فالى ، ووالى جان ، وهما
من رسامى المنمنمات فى فارس الهروطوقية . وفى التربعات المطلية لم يكن
الأترك فى حاجة إلى مساعدة خارجية ، فقد استخدموها إلى درجة تهر
لأبصار ، واشتهرت مدينة ازنيق (بآسيا الصغرى) بصناعة الخرف ،
وتخصصت أشقودرة وبروسة ، وهيريك فى آسيا الصغرى فى المنسوجات ،
فقد ترك البروكار (المقصبات) والقطيفة - بما فىهما من رسوم الأزهار
فى اللونين القرمزى والذهبى - التى أخرجتها هذه المدن ، أثراً شديداً
وانطباعاً قوياً فى رسامى البندقية والفلاندرز . وكان السجاد التركى يعوزه
البريق الشعارى الذى تميز به السجاد الفارسى ، ولكن طرزه الفخمة وألوانه
الدافئة أثارت الإعجاب فى أوروبا . وقد أغرى كلبير ملكه لويس الرابع
عشر بأن يأمر النساجين الفرنسيين بتقليد بعض قطع السجاد فى القصر السلطانى
فى تركيا . ولكن دون جدوى ، لأن تفوق المسلمين فى هذه الصناعة ظل
بعيداً عن متناول المهارة الغربية .

وبلغ الفن التركى ذروته فى مساجد القسطنطينية (لم يطلق على المدينة
سم اسطنبول رسمياً إلا فى سنة ١٩٣٠) ، ففى تاريخ فارس أو التاريخ
الإسلامى ، لم يضارع عظمة عاصمة سليمان ، حتى ولا مدينة مشهد مع فخامة
عمائرها المزدهجة ، ولا أصفهان فى عصر الشاه عباس ، ولكن ربما ضارعتها
برسوبوليس على عهد كوروش . فإن مساجد الآستانة اقتسمت مع الله
غنائم العثمانيين فى انتصاراتهم ، وهى آثار تعبر ، فى وقت معاً ، عن

المتقوى والزهو وعن تصميم السلاطين على إرهاب شعبهم بالفن قدر إرهابه بالأسلحة . ونافس سليمان جده محمد الفاتح في تشييد سبعة مساجد تتفق مع جلاله وعظمته ، وفاق أحدها ، وهو الذى حمل اسمه (١٥٥٦) كنيسة أيا صوفيا في جمالها ، حتى في محاكاته لإياها في مجموعة انقباب الصغرى المحيطة بالقبة الرئيسية الوسطى ، على أن المآذن هنا ، تلك التى ارتفعت مقصورات الآذان الثلاث فيها إلى ارتفاع رهيب ، كانت بمثابة إضافة متألفة تتطابق مع القاعدة الضخمة . أما للدخل فكان كنزاً مربكاً من الزخرفة : نقوش ذهبية على الرخام أو الخزف وأعمدة من الحجر السماق ، وعقود من الرخام الأبيض أو الأسود ، ونوافذ من الزجاج الملون في إطار من حجر مشجر ، والمنبر المحفور وكأنه وقف على مدى الحياة . وربما كان بذخاً أكثر مما ينبغى لإجلاله ، وتألقاً أكثر مما ينبغى لمقام الصلاة . إن الذى وضع تصميم هذا المسجد وسبعين مسجداً أخرى ألبانى اسمه سنان ، وقيل إنه عاش إلى سن العاشرة بعد المائة .

٥ - سليمان نفسه

إن الغرب هو الذى أطلق على سليمان لقب « العظيم » ، ولكن شعبه هو الذى سماه « القانونى » أى جامع القوانين ، بسبب مساهمته في تدوين القانون العثمانى . ولم يكن مهيباً أو عظيماً في مظهره ، ولكن في حجم تجهيزات جيوشه ، وفي مدى اتساع حملاته ، وفي زينة عاصمته ، وفي تشييد المساجد والقصور ، والقناطر المائية المشهورة ، عظيماً في روعة كل ما يحيط به وفي حاشيته ، ثم عظيماً بطبيعة الحال في قوة حكمه ، وفي كل ما وصل إليه أو حققه . ووصلت إمبراطوريته من بغداد إلى مدى تسعين ميلاً من فيينا ، و ١٢٠ ميلاً من البندقية ملكة الأدرياتيك السابقة . وباستثناء فارس وإيطاليا ،

كانت كل المدن التي زخرت بألوان المعرفة اليهودية والمسيحية أو المعرفة القديمة ، داخلة في نطاق ملكه : قرطاجه ، ممفيس ، صور ، نينوى ، بابل ، تدمر ، الإسكندرية ، بيت المقدس ، أزمير ، دمشق ، أفسوس ، نيقية ، أثينا ، وطيبة المصرية وطيبة اليونانية . ولم يضم الهلال قط يوماً ، مثل هذه البقاع والبحار الكثيرة في منحناه الأجوف .

وهل كان تفوق حكمه يتناسب مع اتساعه ؟ يحتمل أن يكون الجواب سلبياً ، ولكن ينبغي أن نقرر هذا عن أية مملكة مترامية الأطراف ، فيما عدا فارس في عهد الأخمينيين ، ورومة في عصر الأنطونيين . إن الرقعة المحكومة كانت شاسعة إلى حد يتعذر معه إدارتها من مركز واحد قبل ظهور وسائل المواصلات والنقل والطرق الحديثة : لقد دب الانحلال والفساد في الحكومة ، ومع ذلك قال لوثر : « يقال إنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأنراك » (٤٩) . وفي مجال التسامح الديني كان سليمان أجراً أكرم من أنداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الديني أمر ضروري للقوة الوطنية . ولكن سليمان رخص للمسيحيين واليهود في ممارسة ديانتهم في حرية تامة ، وقال الكاردينال بول « إن الأنراك لا يلزمون الآخرين باعتراف عقيدتهم ، ولهذا الذي لا يهاجم ديانتهم ، أن يفصح عن أية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن » (٥٠) . وفي نوفمبر ١٥٦١ حين كانت إسكتلندا وإنجلترا وألمانيا اللوثرية تعتبر الكاثوليكية جريمة ، كما كانت إيطاليا وأسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج عن سجين مسيحي ، « غير راغب في تحويل أى فرد عن دينه بالقوة » (٥١) . لقد جعل من إمبراطوريته مأوى آمناً لليهود الفارين من محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال .

لقد اتضحت عيوبه في علاقاته العائلية أكثر منها في حكومته . والجميع متفقون على أنه — برغم حروبه التي بررها بأنها هجوم من أجل الدفاع — كان رجلاً مهذباً ، رحماً ، كريماً ، إنسانياً ، عادلاً (٥٢) . ولم يعجب به

شعبه فحسب ، بل أحبه كذلك . وكان إذا ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ، لزم الناس الصمت التام عند مروره ، وانحنى هو تخية لهم جميعا — أيا كانوا يهودا أو مسيحيين أو مسلمين — وكان يقضى في المسجد ساعتين . ولم نسمع عنه أنه كان يلزم الحريم إلى الحد الذى يضعف من صحته وقوته ، مثل ما حدث لبعض السلاطين من بعده ، ولكننا نجده شديد الإحساس سريع التأثر بانفعالات الحب ، حتى إنه لينسى ما تقتضيه مكانته من حكمة وحذر وعدل ، بل عاطفة الأبوة وحنانها .

وفى أوائل حكمه كانت محظيته الأثيرة لديه جارية شركسية تعرف باسم « وردة الربيع » اتسمت بهذا الجمال الأسمر المليح التقاطيع ، الذى تميزت به لعدة قرون نساء الأقاليم الواقعة حول الطرف الشرقى للبحر الأسود . وأنجبت له هذه المرأة طفلا ، وترعرع الطفل مصطفى حتى أصبح شابا جميلا قادراً محبوبا . وعهد إليه سليمان بعدة مناصب وتبعات هامة ، ودربه ليكون وريثا للعرش قدوماً يكون جديراً به . ولكن فى أثناء هذا الحب ، ظهرت فى الأفق « خوريم » — « أى الضاحكة » — وهى أسيرة روسية أطلق عليها الغرب « روكسيلانا » كسبت قلب السلطان وانتزعت من محظيته الشركسية . وبقى السلطان ثملا بجمال خوريم ومرحها وإغوائها وخداعها حتى اكتملت فصول الرواية ووقعت المأساة . وكسر السلطان القاعدة التى استنها الحديثون من أسلافه ، واتخذها زوجة (١٥٣٤) ، وابتهج أئما ابتهاج بما أنجبت له من بنين وبنات . ولكن لما كبرت سن السلطان وبات متوقعا أن يعتلى مصطفى عرش أبيه ، أوجست خوريم خيفة على مصير أبنائها ، الذين يمكن أن يلقوا حتفهم ، قانونا ، على يد السلطان الجديد . ونجحت فى تزويج ابنتها من رستم باشا الذى أصبح الوزير الأكبر فى ١٥٤٤ ، وكان عن طريق زوجته يشاطر خوريم مخاوفها من سطوة مصطفى فى المستقبل .

وكان مصطفى ، فى نفس الوقت ، قد أرسل لتولى حكم ديار بكر ،

واشتهر ببسالته ولباقتة وكرمه ، واستخدمت خوريم كل مواهبها وتأثيرها في تحطيمه ، وألقت في روع سليمان أن مصطفى يحاول أن يكسب شعبية ، تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، واتهم رستم بنشا الشاب بأنه يتودد سرّاً إلى الانكشارية ليقفوا إلى جانبه، وساور الشك السلطان المنهوك الذي كان آنذاك في التاسعة والخمسين من عمره ، وزاد ارتياحه ، ثم تولاه العجب ، وأخيراً آمن بصحة ما زعموا ، فذهب بنفسه إلى إرجلي Eregli ، ودعا مصطفى إلى خيمته ، وما أن ظهر حتى عاجله بضربة أودت بحياته (١٥٥٣) . عند ذلك وجدت خوريم ورستم باشا أن من اليسير إغراء السلطان بقتل ابن مصطفى لثلاث محاولات لأبيه ، وعين سليم ابن خوريم أميراً ووريثاً للعرش ، وماتت خوريم راضية مطمئنة (١٥٥٨) ، ولكن بايزيد ، وهو أخو سليم ، الذي وجد أن مصيره المحتوم هو الذبح ، أعد جيشاً يتحدى به أخاه ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية ، وهزم بايزيد وفر إلى فارس (١٥٥٩) . ولكن الشاه طهماسب ، لقاء ثلاثمائة ألف دوكات من سليمان ومائة ألف من سليم ، سلم المناضل من أجل العرش ، وشنق بايزيد (١٥٦١) ، كما أعدم أبنائه الخمسة محافظة على الأمن الاجتماعى . ويروى أن السلطان المتألم توجه إلى الله بالشكر والحمد على موت هذه الذرية المزعجة ، وعلى أنه يستطيع الآن أن يعيش في سلام (٥٣) هـ

ولكن السلطان وجد السلام أمراً لا يحتمل ، وأطال التفكير فيما ترمى إليه من أنباء تقول بأن فرسان القديس يوحنا الذين اقتلعهم من رردس ، عادت إليهم قوتهم في مالطة ، وأنهم كانوا ينافسون قراصنة الجزائر في غاراتهم الضارية . وفكر السلطان ملياً ، وهو آنذاك فى سن الحادية والسبعين ، هل فى الإمكان أن تصبح مالطة جزيرة إسلامية ، ومن ثم يكون البحر المتوسط حرماً آمناً للمسلمين . وفى أبريل ١٥٦٤ أرسل أسطولاً مكوناً من ١٥٠ سفينة عليها عشرون ألف رجل ليستولوا

على الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجى . وقاتل الفرسان ببسالتهم المعهودة تحت قيادة الداهية البارع جان دى لافالت ، واستطاع الأتراك الاستيلاء على حصن سانت الملو بتضحية ستة آلاف رجل ، ولم يستولوا على شىء بعده ، وأرغمهم وصول الجيش الإسبانى على رفع الحصار .

وما كان السلطان العجوز المهيب ، سليمان القانونى ، ليختم حياته بهذه الخاتمة المرة . وكان مكسيميليان الثانى الذى خلف فرديناند على عرش الإمبراطورية قد منع الجزيرة التى تعهد الوالد بدفعها للسلطان ، وهاجم المخافر الأمامية التركية فى هنغاريا ، وقرر السلطان القيام بحملة أخرى فقط ، وصمم على أن يقومها بنفسه (١٥٦٦) . وسار بمئات ألف رجل عبر صوفيا ونيش وبيلغراد . وفى ليلة ٥ - ٦ سبتمبر ، وفى أثناء حصار حصن زيجتفار ، أسلم السلطان الروح ، وهو منتصب فى خيمته . وكان مثل فاسبازيان ، مزهواً بنفسه إلى حد لا يرتضى معه أن يموت وهو راقد . وفى ٨ سبتمبر سقط الحصن ، ، ولكن الحصار كلف الأتراك حياة ٣٠ ألفاً من الرجال . وكان الصيف مدبراً ، فعمدت المدينة ، وعاد الجيش أدراجه حزناً ، مغموماً إلى القسطنطينية لا يحمل معه النصر بل جماع الإمبراطور .

هل ينبغى لنا أن نصدر على سليمان حكماً ونضعه فى المرتبة التى يستحقها ؟ إننا إذا قارناه بنظرائه فى الغرب لوجدناه فى بعض الأحيان أكثر تمدناً وحضارة ، وفى أحيان أخرى أكثر همجية ووحشية . ومن بين الحكام الأربعة الكبار فى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر ، يستوقف نظرنا فرانسوا على أنه أكثرهم تمدناً وحضارة ، على الرغم من غروره المتهور واضطهاداته المترددة ، على أنه مع ذلك نظر إلى سليمان على اعتباره حاميه وحليفه الذى بذلونه كان يمكن أن يحطم ، إن سليمان حالفه النصر فى صراعه الذى استمر طوال حياته مع الغرب . فالحق أن الإمبراطور مكسيميليان الثانى استأنف دفع الجزيرة للباب العالى ١٥٦٨ ، وأن شارل الخامس

كان قد أوقف تقدم السلطان عند فيينا ، ولكن أى جيش مسيحي جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيء البحر المتوسط ، وبدا لبعض الوقت أن رومه ظلت مسيحية لأنه هو وبربروس سمحا بذلك . إن السلطان حكم إمبراطوريته حكماً صالحاً يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد تمزيق ألمانيا بين الأمراء ، وكان سليمان حاكماً مطلقاً مستبداً ، بحكم العرف الذى لا نزاع فيه وبرضا شعبية ، يفهم حظى استبداد هنرى الثامن فى إنجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا السلب والثقة من الشعب ؟ وكان شارل لا يكاد يكون قادراً على إصدار أحكام الإعدام على ابنه لمجرد الارتياح فى خيانتته ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل التميمحات مطالباً بدم المراطقة ، واستطاع هنرى أن يبحث بالزوجات وبالكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبة واحدة عن طعامه . أما التسامح الدينى عند سليمان ، ولو كان محدوداً ، فإنه بالمقارنة ، يصم مثل هذا لإعدام بوصمة الهرطقة والوخشية .

لقد شن سليمان حروباً كثيرة ، وذبح نصف ذريته ، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة ، لأنه ارتكب الأخطاء التى تلازم السطة المطلقة غير المحدودة ، ولكنه كان أعظم وأقدر محكام عصره دون منازع .

الفصل الثاني والثلاثون

اليهود

١٣٠٠ - ١٥٦٤

١. - القساميون

روى رونر وندوفر R. Wendover في كتابه Flores Historiarum (١٢٢٨) أن أحد رؤساء أسبانية أرمينيا كان يزور دير القديس ألبان في أوائل القرن الثالث عشر ، فسئل عن القصة التي تقول بأن يهودياً كان قد تحدث إلى السيد المسيح ، لا يزال على قيد الحياة في الشرق الأدنى . فأكد رئيس الأساقفة للرهبان أنها صحيحة . وأضاف المرافق أن رئيس الأساقفة كان قد تناول الغذاء مع هذا الرجل الخالد قبل مغادرته أرمينيا بوقت قصير ، وأن اسم هذا الرجل ، دلي الطرينية الانلاينية «كار توفياس» . وأنه لما هم السيد المسيح بمغادرة محكمة بلاطس البنطي ، ضرب كار توفياس السيد المسيح على ظهره وقال له : « أسرع » . وأن يسوع قال له : « إني ذاهب ، ولكنك سوف تبقى حتى أحضر » . وكرر أرمينيون آخرون زاروا دير سانت ألبان في سنة ١٢٥٢ نفس القصة ، وزاد عليها القصص الشعبي ، وبدل من اسم التائه ، وروى كيف أنه في كل مائة عام أو نحوها ، يصاب بمرض عضال ، ويروح في سبات عميق يفيق منه شاباً يمتلي رأسه بذكريات لا تزال حية عن محاكمة المسيح ودرته وبنته . وانقطع ورود القصة على الأسبانية فترة ، ولكنها ظهرت من جديد في القرن السادس عشر . وادعى أوربيون غلب عليهم التأثير ، أنهم رأوا « أنشويروش » (*) - وسمى الآن

(*) Ahasuerus ، انورقة - سمر باردا ، باردا - ج . ن . ا . (انترجم)

اليهودى النجالد ، أو اليهودى الثامه — رأوه فى همبرج (١٥٤٧ ، ١٥٦٤)
وفى فيينا (١٥٩٩) ، وفى لوبك (١٦٠١) وفى باريس (١٦٤٤) ، وفى
نيوكاسل (١٧٩٠) ، وأخيراً فى ولاية يوتا فى غرب الولايات المتحدة
(١٨٦٨) . وتمت أدروبا ، التى كانت تفند إيمانها . بالترحاب هذه
الأسطورة على أنها برهان بؤس من جديد للودية المسيح وبعثه ، وضمان
جديد لحجته ثانية . وعدنا أن الأميرة رمز كتيب لشعب فقد وطنه فى السنة
الحادية والسبعين من بداية المسيحية ، وبات يديه فى الأرض فى قارات أربع ،
وعانى الاضطهاد والتعذيب مرة بعد المرة ، قبل أن يسترد موطنه القديم فى
خضم زماننا المتقلب المزيج (١).

ولا فى يهود « الشتات » هؤلاء أقل العناء والشقاء فى ظل السلاطين الأتراك
والهابوات فى فرنسا وإيطاليا ، وعاشت الأقليات اليهودية آمنة فى القسطنطينية
وسالونيك وآسيا الصغرى وروسيا وفلسطين والجزيرة العربية ومصر وشمال
أفريقية وأسبانيا تحت حكم العرب . وتسامح البربر معهم كارهين ، على أن
سيدهون ديوران ترأس مسيرلنة مزدهرة فى الجزائر ، وعاشت الجالية
اليهودية فى الإسكندرية — كما وصفها ابن أوباديا برتنبورو فى ١٤٨٨ —
حياة طيبة ، وشربوا الخمر بكثرة ، وتربوا على البسط كما فعل المسلمون ،
وخلعوا نعالهم عند دخول المنابر ، أريد ، أساء الأصدقاء (٢) . وكتب اليهود
الألمان الذين لجأوا إلى تركيا إلى أقربائهم وصفاً خامساً للحياة الطيبة التى
ينعمون بها هناك (٣) . ورشيد الباشا (الوالى) العثمانى فى فلسطين لليهود
هناك فى أن يبنوا معبداً على جبل صهيون . وخج بعض اليهود الغربيين إلى
فلسطين ، واعتقدوا أن من حسن حظهم أن تفيض أرواحهم فى الأرض
المقدسة ، والأفضل منها فى أورشليم بالذات .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذى كان يستأثر بتشكيك اليهود ويستهمى
قائدهم فى هذا العصر تركز فى الغرب الذى لا يغير ولا يصفح . فقد لاقوا

أقل الأحوال شقاء في إيطاليا المستنيرة : وفي نابلي سعدوا بصداقة روبرت ملك أنجو ، وازدهروا في أنكونا وفيرارا وبادوا والبندقية وفيرونا ومانتوا وفلورنسه وبيزا وغيرها من خلالي النهضة . قال لارزم ١٥١٨ « يوجد في إيطاليا كثير من اليهود ، ولكن لا يكاد يوجد في أسبانيا مسيحيون^(٤) » . وكانت إيطاليا تقار التجارة والموارد المالية تقديراً عظيماً ، ومن ثم كان لليهود الذين تولوا هذه المرافق الضرورية فيها شأن كبير ، باعتبارهم دعامة حافزة لمنطقة في الاقتصاد . أما ما كان يطلب من اليهود قديماً من وضع شارة أو ارتداء لباس مميز فقد تجاهله الإيطاليون في شبه الجزيرة بصفة عامة ، وارتدى اليهود الموسرون زي الإيطاليين من مثل ثوبتهم ، والتحق الشباب اليهودي بالجامعات ، وتزايد عدد المسيحيين الذين يدرسون اليهودية .

وبين آونة وأخرى كان بعض رجال الدين المسيحي الذين يبغضون اليهود ، مثل القديس يوحنا أوف كابسترانو ، قد يهيج حفيظة سامعيه ، ليطالبوا بالتطبيق الكامل للقوانين الكنسية المشددة الخامسة بالتجريد ضد اليهود : ولكن على الرغم من أن كابسترانو كان ياتي تأييداً من البابا يوجينيوس الرابع والبابا نيقولا الخامس ، فإن تأثير بلاغته كان تأثيراً عابراً في إيطاليا . وهاجم راهب آخر من طائفة الفرنسيسكان هو برناردينو أوف فلتر ، اليهود مهاجمة صاخبة عنيفة ، إلى حد أن السلطات المدنية في ميلان وفرارا وفلورنسه أمرته بالتزام الصمت أو الرحيل . ولما عثر على طفل في سن الثالثة ميتاً بالقرب من بيت أحد اليهود في ترنت (شمال إيطاليا) في سنة ١٤٧٥ ، أعلن برناردينو أن اليهود قتلوه ، فألقي الأسقف بكل يهود ترنت في السجن ، واعترف بعضهم تحت وطأة التعذيب بأنهم ذبحوه وشربوا من دمه ، باعتبار أن هذا من طقوس عيد الفصح عندهم . وأحرق كل يهود ترنت حتى الموت ، وحفظ جثمان الطفل «سيمون الصغير» ، وعرض على أنه «بقايا مقدسة» ، وحبس آلاف من الساج المؤمنين إلى المزار الجديد

وانتشرت قصة الفظاعة المزعومة عبر جبال الألب إلى ألمانيا فزادت من حدة شعور العداء ضد « السامية » هناك . واتهم سناثو البندقية القصة بأنها كذوبة دينية ، وأمر كل السلطات في نطاق الولاية القضائية للبندقية بحماية اليهود . وقام من بادوا إلى ترنت اثنان من المحامين لفحص الأدلة ، ولكن الأهالي هناك مزقوهما تقرّيباً . واستحثوا البابا سكستس الرابع على ضم سيمون إلى قائمة القديسين ولكنه أبى ، وحرم تمجيد سيمون باعتباره قديساً^(٥) . ومهما يكن من شيء ، فإن سيمون أعلن قديساً في سنة ١٥٨٢ .

وفي رومه نعم اليهود لعادة قرون بطروف هوائية في الحياة ، وبالحرية أكثر مما لافوا في أى مكان آخر في العالم المسيحي ، من جهة لأن البابوات كانوا مثقفين ، ومن جهة أخرى لأن المدينة كان يحكمها ويتنازعها حزبا أورسيني وكولانا ، وكلتا الجماعتين كانت مشغولة بالقتال بينهما ، إلى حد يتعذر معه التفرغ لعداوة الآخرين ، وربما كانت سبب آخر هو أن الرومان كانوا أوثق ارتباطاً بالجانب العملي في المسيحية منهم بالتعصب لديانتهم . ولم يوجد آنذاك حتى خاص باليهود في رومه ، ولكن معظمهم عاش في حي العبرانيين على الضفة اليسرى من نهر التيبر . ولم يكونوا ملزمين بذلك ، فقد قامت قصور الأرسقراطية الرومانية وسط مساكن اليهود ومعابدهم النثرية من كنائس المسيحيين^(٦) . ولكن ظل بعض الظلم يتبع عليهم ، فكانت بعض الضرائب تفرض عليهم من أجل الإنفاق على الألعاب الرياضية ، وكانوا يرغمون على إرسال ممثلين عنهم للاشتراك فيها وهم أنصاف عرايا ، وهذا أمر يتنافى مع أعراف اليهود وأذواقهم . وظلت العداوة العنصرية باقية ، فقتل اليهود في رسوم كاريكاتورية في المسرح الروماني ، وفي الروايات الخزلية في الملاهي ، ولكن اليهوديات كن يقدمن على أنهن مهندبات جميلات . لاحظ التناقض بين باراباس

وأبيجيل في رواية مارلو « يهودى مالطة » ، وبين شياوك وجسيكا في رواية شيكسبير « تاجر البندقية » :

وعامل البابوات ، إجمالاً ، اليهود معاملة كريهة [بالقدر الذى ينتظر من رجال مجدوا المسيح على أنه المخلص ، وأنكروا عقيدة اليهود على أنه لم يأت بعد . وعندما أنشئت محاكم التفتيش أعفى البابوات من سلطتها القضائية اليهود الذين لم يتحولوا عن دينهم . وكانت المحكمة تستطيع أن تستدعى أمثال هؤلاء اليهود ، بسبب مهاجمتهم للمسيحية ، أو محاولتهم رد المسيحى إلى اليهودية فحسب . « إن اليهود الذين لم يكفوا قط عن إعلان إيمانهم باليهودية تركوا ، إجمالاً ، دون إزعاج » (٧) . من الكنيسة ، ولكنهم لقوا الإزعاج من الدولة أو من الأهالى . وأصدر عدة بابوات مراسيم بقصد التخفيف عن حدة العداوة الشعبية . وبذل البابا كليمنت السادس جهداً شاقاً فى هذا السبيل ، فجعل مدينة أفزيون البابوية ملجأً رحماً لليهود الفارين من الحكومة الوحشية فى فرنسا (٨) . وفى ١٤١٩ أعان مارتن الخامس إلى العالم الكاثوليكي :

« من حيث أن اليهود خلقوا على صورة الرب ، وأن بقية منهم لا بد يوماً أن تخلص . ومن حيث أنهم توسلوا إلينا لحمايتهم ، فلأننا سيراً على نهج أسلافنا ، نأمر بالآل يزعمهم أحد فى معابدهم ، وألا يهاجم أحد قوانينهم وحقوقهم وأعرافهم ، وألا يعمدوا قسراً ، وألا يكرهوا على حضور الأعياد المسيحية أو وضع شارات جديدة ، وألا يعترض سبيلهم فى إقامة علاقات العمل بينهم وبين المسيحيين » (٩) .

وأصدر يوجينوس الرابع ، ونيقولا ، كما سنرى ، تشريعاً مقيداً لليهود ، ولكن بالنسبة لسائر البابوات كما يقول جرايتز « من بين سادة إيطاليا كان البابوات أكثر دم وداً وصداقة لليهود » (١٠) . وكثير منهم : الإسكندر السادس ، يوليوس الثاني ، ليو العاشر - تجاهلوا المراسيم القديمة ، وعهدوا بحياتهم إلى أطباء يهود . وشاد كتاب يهود معاصرون ، شاكرين ، بالأمن الذى تمتع به قومهم فى ظل بابوات أسرة مديتشى (١١) . وكان أحدهم وهو كليمنت السابع ، « صديقاً كريماً لإسرائيل » (١٢) :

ويقول مؤرخ إسرائيلى عالم :

إن هذا كان ذروة عصر النهضة . واعتبر جماعة متعاقبة من البابوات المثقفين المهادنين المترفين المشهود لهم بالحكمة فى رومهم أن تقدم الثقافة جزء هام من عملهم فى تعزيز المصالح الدينية للكنيسة الكاثوليكية . « ولذلك اتجهوا من أواسط القرن الخامس عشر ، فما بعده ، إلى التغاضى عن التفاصيل المزعجة فى القانون الكنسى . . . وإلى إظهار التسامح الكبير مع غير الكاثوليك . وكان رجال المصارف المقرضون اليهود يشككون : زعماً لا يتجزأ من الحركة الاقتصادية فى ممتلكاتهم ، على حين أن البابوات وهم رجال دنيا واسعو الآفاق : قدروا كل التقدير مناقشتهم مع الأطباء اليهود وغيرهم ممن اقصلوا بهم . ومن ثم فإن هؤلاء البابوات أهملوا إهمالاً يكاد يكون تاماً كل التعاليم والقواعد التى كان آباء الكنيسة قد أصدروها ، وصنفها فى عداد القوانين مجلسا لاتيران الثالث والرابع . ولما رأى سائر أمراء إيطاليا هذا المثل

الرائع أمام أعينهم — أمراء مدينتي في فلورنسه ،
لإستئس في فبراير ، جنزاجو في منتوا ، حذوا إلى
حد كبير حذو البابوات . إن اليهود ، ولو أنهم قد
أزعجتهم بين الحين والحين فترات من العنف
أو التعصب — مثال ذلك عندما سبطر سافونا رولا
على فلورنسه ١٤٩٧ — امتزجوا بغير انهم وشاركوهم
حياتهم ، بدرجة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل .
وقاموا بنصيب ممتاز في جوانب معينة في النهضة . . .
عكسوها في حياتهم هم أنفسهم وفي أنشطتهم الأدبية
باللغة العبرية ، وأسهموا بإضافات هامة في الفلسفة
والموسيقى والمسرح . وكانوا شخصيات حبيبة في
بلاط كثير من الأمراء الإيطاليين (١٣) .

إن بعضاً من الشخصيات التي كانت يوماً مشهورة لتكشف لنا عن هذه
الفترة المشرقة في العلاقات بين المسيحيين واليهود . ولد إمانويل بن سواومون
الحرومي (الرومي) وفي نفس السنة التي ولد فيها دانتي (١٢٦٥) وأصبح
صديقاً له ، وكان رجلاً من رجال النهضة قدر ما يستطيع يهودي مخلص
أن يكونه : وكان يحترف الطب ، كما كان واعظاً ، وعالمًا دينياً ، وعالمًا
من علماء النحو ، ومن المشتغين بالعلوم ، ومن أصحاب المال والأعمال ،
وشاعراً ، و « مؤلفاً لأغان ماجنة كثيراً ما تجاوزت حدود الحشمة » (١٤) .
ولما كان يتقن العبرية كل الإنقان : فإنه أدخل إلى هذه اللغة المقطوعة
الشعرية ذات الأربعة عشر بيتاً (Sonnet) وكاد ينافس الإيطاليين
في الفصاحة والسلاسة والروح ، ولم يظهر أى شاعر يهودي قط قبل
« هين » مثل ما أظهر إمانويل من موهبة الهجاء والروعة والذكاء . وربما
كان إمانويل قد تشرب بعض مبادئ مذهب ابن رشد في الشك ،

الذى ساد في ذلك العصر ، فإن إحدى قصائده تعبر عن نفوره من السموات بما فيها من أناس أظهار (ذهب إلى أن النساء الدميات الحلقة هن فقط الفضليات) ، وعن إشارته للجحيم ، حيث توقع أن يجد فيها أكثر الجحيمات إغراء في كل الأزمان . وألف في شيخوخته قصيدة ضعيفة يقلد فيها دانتي في « السماء والجنة » . ولم يكن ثمة في اليهودية مطهر ، مثلها في ذلك مثل المذهب البروتستانتي . وكان إمانويل أكرم من دانتي ، فأفسح في الجنة مجالاً لكل « الأبرار في العالم بأسره » (١٥) ، متبعاً في ذلك نهج تقاليد أحيار اليهود . على أنه أدخل أرسطو إلى الجحيم لأنه انتهى إلى خلود الكون .

وثمة روح مرح جنك شبيهة بهذا الذي أسلفنا ، أضفت سلاسة وحيوية على كتابات كالونيموس بن كالونيموس . وشاهد روبرت ملك نابلي في إحدى زياراته لبروفانس هذا العالم الصغير ذا الاسم الجميل ، وأخذ معه إلى إيطاليا . وكان كالونيموس في البداية متفرغاً إلى العلوم والفلسفة ، وترجم أرسطو وأرشميدس وبطليميوس وجالان والفارابي وابن رشد إلى العبرية ، وكتب بروح أخلاقية عالية . ولكنه وجد أنه من اليسير عليه أن يمثل طبايع المرح والبهجة في نابولي ويتشربها . فلما انتقل إلى رومه أصبح هوراس اليهود (شاعر روماني في القرن الأول ق . م) يهجو هجاء لطيفاً أخطاء المسيحيين واليهود وأخطائه هو نفسه ، ونقاط الضعف فيهم وفي شخصه . وندب حظه لأنه ولد رجلاً ، فإنه لو كان امرأة ، لما كان عليه أن يطيل التنقيب والتفكير في الثوراة والتلمود ويحفظ مبادئ القانون البالغ عددها ٦١٣ . وسخرت روحه المرحّة من التلمود . وتوحى الشعبية التي حظى بها هجاؤه لدى اليهود الرومان بأنهم لم يكونوا أتقياء متدينين بالقدر الذي كان عليه إخوانهم الأكثر شقاء في سائر البلاد .

ولم تحي النهضة الدراسات اليونانية فحسب بل العبرية كذلك . ودعا الكاردينال أجديو دي فينربو العالم اليهودي إيليا ليفيتا من ألمانيا إلى رومه

(١٥٠٩) ، وبقي العالم اليهودي ثلاثة عشر عاماً ضيقاً ، كرمياً في قصر الكاردينال يعلمه العبرية ، ويتلقى عنه اليونانية . وبفضل جهود لاندويو ، ورخاين ، وآخرين ، من التلاميذ المسيحيين الذين يتلقون العلم عن المعلمين اليهود ، أنشئت كراسي اللغة العبرية ، في كثير من الجامعات والأكاديميات في إيطاليا . وحظي إيليا دل مديجو الذي كان يعلم العبرية في بادوا بتقدير عظيم هناك ، رغم رفضه التحول عن دينه ، إلى حد أنه لما حدث خلاف عنيف بين الطلبة المسيحيين حول بعض الشؤون الثقافية ، عيّن السلاطات الجامعية والسنااتو في البندقية دل مديجو لتهكيم ، فهاجج الموضوع بحزم ولباقة ، وخرج الجميع راضين . ودعاه بيكو دللا ميراندولا ليعلم العبرية في فلورنسه ، وهناك انضم إيليا إلى الحلقة الإنسانية لأسرة مديشي ، ولا زلنا نراه من بين الشخصيات التي رسمها بينوتزو جوتورولي على جدران قصر مديشي . ولم يشجع هذا العالم فكري بيمكو عن وجود بعض عقائد مسيحية في « القبالة »(*) ، بل على التقيف من ذلك ، سخر من سفر الرؤيا على أنه مجموعة من سخافات حمقاء .

وكان اليهود القاطنون في شمال جبال الألب أقل حظاً من اليهود في إيطاليا . فقد طردوا من إنجلترا في سنة ١٢٩٠ ، ومن فرنسا في سنة ١٣٠٦ ، ومن فلاندرز في سنة ١٣٧٠ . ودعوا إلى فرنسا ثانية في ١٣١٠ شريطة أن يمدوا الملك ثلثي أي مال يكونون قد جمعوه من فرائد الشرفى التي قددها قبل طردهم (١٦) . وما أن انتهت مكاسب الملك من هذه العمليات حتى نفى اليهود ثانية في سنة ١٣٢١ . وعادوا في الوقت المناسب لينزلوا التائب على « الموت الأسود » ويحملوا مسئوليته ، ونفوا مرة أخرى (١٣٤٩) . وأعيوا من

(*) Cabala فلسفة دينية سرية ابتدعها بعض أحبار اليهود ، قائمة على تفسيرات

غامضة للكتاب المقدس . (المترجم)

جديد (١٣٦٠) ليقدموا قروضاً مالية ويسهموا بمهارتهم ، عوناً منهم على افتداء ملك فرنسا الذى أُسِرَ فى إنجلترا . ولكن فى عام ١٣٩٤ اختفى فى ظروف غامضة إسرائيلى ارتد إلى المسيحية ، واتهم اليهود بقتله ، واعترف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب ، بأنهم كانوا قد نصحووا هذا المرتد بالعودة إلى اليهودية ، وثار رأى العام ، وأمر شارل السادس كارهاً ، بنفى المجلس المنهوك ثانية .

وكان فى براغ جالية يهودية قوية ، ذهبوا إلى هناك ليستمعوا إلى عظات رائد « هس (*) » وهو ميليز Miliez ، لأنه أظهر اطلاعاً واسعاً وتقديراً كبيراً للتوراة . ودرس هس العبرية ، وقرأ التعاقيقات 'يهودية' ، واقتبس عن راشي وموسى بن ميمون . وأطاع التابوريون الذين مضوا بإصلاحات هس أشواطاً حتى باتت قريبة من الشيوعية — على أنفسهم « الشعب المختار » وأطلقوا أسماء « إدم ، وموآب ، وعمالق » ، على الولايات الجرمانية التى شنوا عليها الحرب : ولم تكن جيوش هس ، على أية حال ، تستنكف عن قتل اليهود ، عند ما استولوا على براغ (١٤٢١) ، ولم يتركوا لهم الخيار : الارتداد أو الجزية ، مثل المسامين ، بل إن أيسر خيار كان : الارتداد إلى المسيحية أو الموت (١٧) .

ومن كل الدول المسيحية تأتى بولندة فى المحل الثانى بعد إيطاليا فى حسن وفادتها لليهود ، وفى ١٠٩٨ ، ١١٤٦ ، ١١٩٦ هاجر يهود كثيرون من ألمانيا إلى بولندة ، فراراً من الموت على أيدي الصليبيين ، ولقوا ترحيباً وازدهرت أحوالهم هناك ، وفى ١٢٠٧ أصبح بعضهم يمتلك ضياعاً واسعة . وفى ١٢٦٤ منحهم الملك بوليسلاف الثانى صكاً بالحقوق المدنية . وبعد الموت

(*) Huss أحد رجال الإصلاح الدينى وأحد الشهداء فى بوهيميا (١٣٦٩ - ١٤١٥) .

(المترجم)

الأسود انتقل عدد أكبر من الألمان إلى بولندة ، ورحبت بهم هناك الأرستقراطية الحاكمة ، بوصفهم خبرة تقديمية اقتصادية في أمة لا زالت تنفقر إلى طبقة وسطى . وثبت كازيمير الثالث الأكبر (١٣٣٣ — ١٣٧٠) حقوق اليهود البولنديين ووسعها ، وضمن الدوق الأعظم فيتوفست Vitovst هذه الحقوق ليهود لتوانيا ؛ ولكن في ١٤٠٧ ، أبلغ أحد الكهنة شعب الكنيسة في كراكاو أن اليهود قد قتلوا طفلاً مسيحياً ، وأخذوا يتمتعون أنظارهم بدمه . وحرص هذا الاتهام على وقوع المذابح . وجدد كازيمير الرابع حريات اليهود وزاد فيها (١٤٤٧) ، وقال : « نريد أن يشعر اليهود الذين نرغب في أن نحميمهم من أجل مصاحبتنا ، ومصلحة خزائن الدولة — أن يشعروا بالراحة في ظل حكمنا الخير » (١٨) . واتهم رجال الدين الملك ، وأنذره أولسنيكى رئيس الأساقفة بسوء المصير في الجحيم ، وألقى يوحنا كابسترانو ، الذى جاء إلى بولندة ممثلاً للبابا ، خطباً ملتهبة مثيرة في سوق بلدة كراكاو (١٤٥٣) ، ولما هزم الملك في الحرب ارتفعت الصيحات بأن عقاب الله قد نزل به لمساندته الكفار . ومذ كان في حاجة إلى تأييد رجال الدين للدخول في حرب أخرى ، فإنه ألغى صك حريات اليهود . ووقعت المذابح المنظمة في ١٤٦٣ ، ١٤٩٤ ، وربما كان لمنع هذه الهجمات أن طلب إلى يهود كراكاو بعد ذلك أن يقطنوا ضاحية « كازيميريه » .

وفي تلك الضاحية وفي غيرها من المراكز في بولندة ولتوانيا ، زاد اليهود عدداً وازدهاراً بعد أن ذلوا كل العقبات ، وفي عهد سيجسمند الأول أعيدت لهم حرياتهم فيما عدا حرية الإقامة . وظلوا على علاقة طيبة مع سيجسمند : وفي ١٥٥٦ اتهم ثلاثة من اليهود في بلدة سوخاشيف ، بطعن « القربان المكرس » حتى آدمى ، وأعلنوا براءتهم ، ولكنهم أعدموا حرقاً بأمر من أسقف خلم Khelm . واستنكر سيجسمند الثانى هذه العملية على أنها « أكثوبة ديلية » قصد بها أن تثبت لليهود والبروستانت أن الخبز المقدس كان قد تحول

فعلا إلى جسد المسيح ودمه ، وقال الملك « لقد بصعت لهذه الجريمة البشعة ، وإلى لا يعوزني حسن الإدراك إلى حد يجعلني أومن بأنه يمكن أن يكون هناك دم في القربان (١٩) ، ولكن بموت هذا الملك المتشكك ، انتهت فترة المشاعر الطبية بين الحكومة واليهود في بولندا .

وعاش اليهود حقبة من الزمن في سلام في ألمانيا في العصور الوسطى . وعملوا بجد ونشاط على طرد المنافذ التجارية النهرية الكثيرة ، وفي المدن الحرة والثغور ، وحتى رؤساء الأساقفة أنفسهم كانوا يطلبون ترخيصاً من الإمبراطور لإيواء اليهود وبمقتضى المرسوم البابوي (١٣٥٥) شارك الإمبراطور شارل الرابع الناكبين الإمبراطورين امتيازهم في الانتفاع باليهود ، أى حق الناكبين في استقبال اليهود في دوائريهم ، وحمايتهم واستخدامهم ، وابتزاز أموالهم . وفي ألمانيا ، كما كان الحال في إيطاليا ، تلهف الطلاب على تفهم التوراة في نصوصها الأصلية ومن ثم درسوا العبرية . وحفز النزاع بين رخين وبفركورن إلى هذه الدراسة ، كما قوت طباعة التلمود كاملاً لأول مرة (١٥٢٠) ، من هذا الحافز .

ويلغ تأثير اليهودية ذروته في الإصلاح الديني . ومن الوجهة الدينية ، كان هذا الإصلاح رجوعاً إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة في صدر المسيحية اليهودية . فلن عداء البروتستانتية للصور الدينية والتماثيل ، كان عوداً إلى عداء السامية « للصور المنحوتة » . واحتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود) . وإن إنكار عبادة العذراء ، وعبادة القديسين ليقرب كثيراً من التوحيد الصارم عند اليهود . كما أن ارتضاء القساوسة الجدد للزواج والجلوس ، جعلهم أشبه بأحبار اليهود ، منهم بالكهنة الكاثوليك . إن نقاد رجال الإصلاح الديني اتهموهم « بالتمود » ، وأسموهم « أشباه اليهود » أو « أنصاف اليهود » (٢٠) . وقال كارلستاد نفسه إن ملانكتون (من رجال الإصلاح اللوثرى في ألمانيا) أراد أن يرجع إلى موسى

وشريعته ، وضم كلفن تهمة « التهود » إلى آثام سرفيتس السيئة ، وسلم الأسباني بأن دراساته العبرية أثرت عليه في مناقشة لاهوت التثليث . وأعاد حكم كفن في جنيف إلى الأذهان تسلط الكهنة في إسرائيل القديمة . واتهم زونجلي بأنه متهم لأنه درس العبرية مع اليهود ، وبني كثيراً من عظاته وتعليقاته على النص العبري للتوراة ، واعترف بأنه مفتون باللغة العبرية :

لقد ألفت « اللغة المقدسة » ، فوق كل ما يعتقده الناس ، لغة مهندبة رشيقة جليلة ، وعلى الرغم من فقرها في عدد الكلمات ، فإن أحداً لا يشعر بهذا النقص ، لأنها تستخدم حصليتها من الألفاظ بأساليب شتى . والحق أني قد أجروا على القول بأن الإنسان إذا أدرك جلالها ورشاقها ، لوجد أنه ليس هناك لغة أخرى تستطیع أن تعبر عن الكثير بمثل هذا العدد القليل من الألفاظ ، وبمثل هذه التعابير القوية : وليس ثمة لغة مثلها غنية بأساليب التصوير المتعددة الجوانب الزاخرة بالمعاني . وليس هناك لغة مثلها تهيج القلب وتنفلد إليه بسرعة (٢١) .

ولم يكن لوثر متحمساً إلى مثل هذا الحد . وقال شاكيًا : « كيف أبغض قومًا يهجمون على الناس لغات كثيرة كما يفعل زونجلي ، فقد تحدث على المنبر باليونانية والعبرية في همبرج » (٢٢) . وهاجم لوثر في نزق شيخوخته وخرفه ، اليهود وكأنه لم يتعلم منهم شيئاً . وليس ثمة إنسان بطل في رأى دائنه . وفي نشرة عن « اليهود وأكاذيبهم » (١٥٤٢) أفرغ لوثر وابلا من الحجج ضد اليهود ، على أنهم كانوا قد أبوا أن يرتضوا المسيح إلهاً ، وأن ما عانوا طوال حياتهم أثبت غضب الله عليهم ، وأنهم دخلوا على أراضى المسيحيين ، وأنهم كانوا وقحين في ثرائهم القائم على الربا ، وأن التلمود أجاز الخداع والسرقة والسلب وقتل المسيحيين ، وأنهم سمعوا العيون والآبار ، وذبحوا

أطفال المسيحيين ليستخدموا دماءهم في الطقوس الإسرائيلية . وقد رأينا في دراستنا له في شيخوخته كيف أنه نصح الألمان بإحراق بيوت اليهود ، وإغلاق معابدهم ومدارسهم ، ومصادرة ثرواتهم ، وتجنيد رجالهم ونسائهم في أعمال السخرة ، وأن يخير جميع اليهود بين اعتناق المسيحية أو قطع ألسنتهم . وفي عظة ألقاها قبل موته بوقت قصير ، أضاف أن الأطباء اليهود كانوا يعتمدون تسميم المسيحيين^(٢٣) . وساعدت هذه التصريحات على أن تجعل البروتستانتية — وهي المذبة كثيراً لليهودية — أشد عناداً للسامية من الكاثوليكية الرسمية ، ولو أنها ليست في هذا المجال أكثر من جماهير الكاثوليك الذين أثروا على النازيين في سكسونيا وبراندنبج ليطردوا اليهود من هذه البقاع^(٢٤) . لقد أشاعوا هذه النعمة في ألمانيا على مدى عدة قرون ، وأعدوا شعبها لإبادة الجنس حرقاً .

٢. — على السفود

لماذا كان المسيحيون واليهود يمتقنون بعضهم بعضاً ؟ لا ريب أنه كان هناك سبب يسود بينهم باستهزار ، ذلك هو الصراع الحاد بين العقائد الدينية ، حيث كان اليهود يشككون تحدياً ثابتاً معمرًا للمعتقدات المسيحية الأساسية .^٥ وأدى العداء الديني إلى فصل عنصري جاء في أول الأمر طوعاً ، ثم بات قسراً فيما بعد ، حيث انبثق في إنشاء أول حي يهودي في سنة ١٥١٦ ، وأبرز هذا الفصل العنصري الاختلافات في اللباس وطرق الحياة والملاصق والصلاة والكلام . وشجع هذا التباين على عدم الثقة والخوف المتبادلين بين الطرفين ؛ وولد هذا الخوف كراهية . وحول اليهود ما ألفوا من منع زواجهم من المسيحيين مفعلة لهم . وتمخض اعتزازهم بجنسهم عن تباينهم بأنهم سلالة ملوك قد حكموا إسرائيل ألف سنة قبل ظهور المسيح ؛ واحتقروا المسيحيين بوصفهم مشركين يؤمنون بالخرافات ، وأنهم يتصفون بشيء من

بطء الفهم ، ولكنهم يتشدقون بعبارات ملؤها الرياء المذهب على جميع يأتون بأعمال وحشية لا يستشعرون فيها الرحمة ، ويعبدون « أمير سلام » على عين يشن الإخوة الحرب تلو الحرب ضد إخوتهم . كما احتقر المسيحيون اليهود على أنهم كفرة غرباء لا يؤلفون . ويروى توماس مور قصة سيدة تقية صعبت عندما علمت أن السيدة العذراء كانت أصلاً يهودية ، فاعترفت بأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تكن « لأم الإله » ما كانت تكنه لها من حب من قبل (٢٥) .

وأصبحت قصة القربان المقدس مأساة لليهود . فقد طلب إلى المسيحيون أن يؤمنوا بأن الكاهن كان يحول رقائق الخبز غير المخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وقد ارتاب في هذا بعض المسيحيين ، مثل « طائفة المتحتمين » (٢٦) ، وربما أمكن أن يقوى من هذا الاعتقاد ما روى من قصص عن بعض رقائق الخبز المكرس التي تقطر دماً عند أية وخزة من سكين أو دبوس . ولكن من ذا الذي يقدم على هذه الذميلة الشنيعة غير اليهود ؟ وفي القرون الأخيرة من العصور الوسطى كانت مثل هذه الأساطير التي تروى عن القربان الذي يقطر دماً كثيرة جداً . وفي حالات عديدة : في نيويرج (بالقرب من باسو) ١٣٣٨ ، وفي بروكسل ١٣٦٩ ، أدت هذه المزاعم إلى ذبح اليهود وإحراق بيوتهم . وأقيم في كادراية سانت جود ول في بروكسل مصلى خاص لتخليد ذكرى القربان الذي أدمى ١٣٦٩ ، واحتفل بهذه المعجزة سنوياً في عيد يطلق عليه Flemish Kermess (٢٧) . واعترف أحد الكهنة في نيويرج بأنه كان قد غمس قرباناً غير مكرس في الدم وخبأه في إحدى الكنائس ثم اتهم

(*) Lollards جماعة من المصلحين السياسيين والدينيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهم في إنجلترا أتباع جون ويكلف الذي استقمت نظرياته كثيراً من نقاط الإصلاح البروتستانتي الذي جاء فيما بعد . (الترجمة)

اليهود بطعنه (٢٧) ، وينبغي أن نصيف إلى هذا أن رجال الكنيسة المستنيرين مثل نيتولا أوف كوزا دهغ أساطير هجمات اليهود على القربان بأنها ضروب من القسوة مخزية .

واستثرت المنافسات الاقتصادية وراء العلماء الديني . فعلى حين امتثل المسيحيون لأمر البابا بتحريم الزائد الربوية ، حصل اليهود على ما كاد يكون احتكاراً لإفراض النقود في العلم المسيحي . ولما تجاهل بعض أصحاب المصارف المسيحيين هذا التحريم ، شبت شركات مثل Pitti ، Brdi ، Strozzi في فلورنسه ، وولزرز Welsers ، Hochstetters ، Fuggers في أوجزبرج ، هبت تتحدى هذا الاستنكار ، ومن ثم تركزت هنا إثارة جديدة للخواطر ، وتناحى الطرفان ، المسيحيون واليهود ، كلاهما نسبة عالية من فوائد القروض ، مما يعكس المغامرة بإقراض النقود في اقتصاد غير مستقر ، زاد من زعزعته ارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة العملة . وغامر المقرضون اليهود أكثر مما فعل منافسهم . وباتت ديون اليهود على المسيحيين غير محققة وغير مأونة تكتملها مخاطرة كبيرة ، فقد تعلن السلطات الكنسية تأجيل الدفع ، كما حدث في الحروب الصليبية ، وربما فرض الماووك ، وقد فرضوا بالنعل ، على اليهود ضرائب يصادرون بها أموالهم ، أو ابتزوا القروض منهم قسراً وإلا طردوهم وأحلوا مدينتهم من ديونهم أو تقاضوا نديباً من المسحوح بجمعه من الأموال . وفي شمال الألب ظلت كل الطبقات تقريباً ، فيما عدا رجال الأعمال ، تعتبر الفائدة رباً ، ودمغوا بالإجرام أصحاب المصارف اليهود ، وخاصة من يقرضون منهم . ولمد كان اليهود بصمة عامة أكثر رجال المال خبرة وتجربة ، فقد استخدمهم الماووك في كثير من الأفطار لإدارة الشؤون المالية في الدولة . وكانت رؤية اليهود الأنرياء يتقلدون مناصب مريحة وجمعون الضرائب من الناس تثير استياء الشعب وبسخطه .

ومع هذا كله ، رحبت بعض المجتمعات المسيحية بأصحاب المصارف من اليهود : وقدمت لهم فرنكفورت امتيازات خاصة شريطة تقاضيتهم نسبة ٣٢ ٪ فقط ، على حين تقاضوا من آخنربن ٤٣ ٪ (٢٨) ، وقد نرى في هذا ما يثير نفورنا الشديد ، ولكننا نسمع من مقرضى نود مسيحين بلغ ما تقاضوه ٢٦ ٪ ، وتقاضى آل هولز هورز في نورمبرج ٢٠ ٪ في ١٣٠٤ ، وتقاضى المقرضون المسيحيون في براندزى ٢٤٠ ٪ (٢٩) . كما نسمع عن مدن طالبت بعودة أصحاب المصارف اليهود باعتباره أكثر تساهلاً ورفقاً من نظرائهم المسيحيين . واشترطت رافنا : في معاهدة مع البندقية ، وجوب إرسال ماليتين يهود إليها لتفتح حسابات مصرفية للنهوض بالزراعة والصناعة (٣٠) .

وأضافت الروح القومية نعمة جديدة إلى أنشودة البغض والكراهية : وذهبت كل أمة إلى أنها بحاجة إلى وحدة عرقية ودينية . وطالبت بامتصاص اليهود فيها أو تحوّلهم عن دينهم . وكانت عمدة مجالس كنسية ، كما كان بعض البابوات يكرهون اليهود بشكل يتسم بالعدوان . وحرم مجلس فيينا (١٣١١) أى تعامل بين المسيحيين واليهود . واستن مجلس زمورا (١٣١٣) قاعدة بأن يبقوا في حالة خضوع وعبودية صارمة . وجدد مجلس بال (١٤٣١ - ١٤٣٣) القوانين الكنسية التى تحرم على المسيحيين معاشره اليهود ، أو خدمتهم ، أو استخدامهم كأطباء ، وأصدرت التعليمات إلى السلطات المدنية بعزل اليهود قى أحياء مستقلة ، وإلزامهم بوضع شارة مميزة ، والتحقق من حضورهم عظمات تهدف إلى تحويلهم عن دينهم (٣١) . ولم يطق البابا يوجينىوس الرابع ، الذى كان فى نزاع مرير مع مجلس بال ، أن يتفوق عليه هذا المجلس فى إزعاج اليهود ، فأكد التجريد من الحقوق الذى وضعه هذا المجلس ، وأضاف أنه يجب ألا يكون اليهود مؤهلين لأية وظيفة عامة ، وألا يرثوا أية ممتلكات مسيحية ، وألا يشيدوا مزيداً من المعابد ، وأن يقبعوا فى دورهم خلف الأبواب والنوافذ المغلقة

في أسبوع الآلام ، (احتياط حكيم ضد عنف المسيحيين) ، أضف إلى ذلك أنه لا يعتمد قانوناً بشهادة اليهود ضد المسيحي . وشكا يوجينديوس من أن بعض اليهود افتروا على يسوع ومريم في أحاديثهم . ويحتمل أن هذا كان صحيحاً (٢٢) ، فإن الكراهية تولد الكراهية . وأصدر يوجينديوس بعد ذلك موسوماً آخر يقضى بأنه إذا وجد يهودى يقرأ التلمود ، فلا بد من مصادرة أملاكه . وفرض البابا نيقولا الخامس القديس يوحنا كابستراترا (١٤٤٧) ليراقب أن كل مادة في هذا التشريع المثل توضع موضع التنفيذ ، وليضع يده على ممتلكات أى طبيب يهودى تولى علاج فرد مسيحي (٢٣) .

وعلى الرغم من كل هذه المراسيم كان سلوك جمهور المسيحيين مع اليهود يتسم بتلك الروح الطيبة التى تسيطر على كل الناس تقريباً ، رجالاً ونساء . بل وعلى الحيوانات ، إذا لم يعترض سبيلهم أو يمس مصالحهم شئ . ولكن من الجائز أن يوجد في معظم الجماعات أقلية لا تتورع عن ممارسة أعمال القسوة إذا أمكن القيام بها مع الإفلات من العقوبة بصفة جماعية . ومن هذا القبيل جماعة « الباستير » ، وقد نشأوا كرعاة مرتبطين بالأرض المقدسة ، وجذبوا أنظار الدهماء من الناس لدى مرورهم بفرنسا (١٣٢٠) ، فقد عقدوا العزم على قتل كل من يصادفهم من اليهود الذين رفضوا التعميد . وفي تولوز اعتصم نحو ٥٠٠ من اليهود بأحد الأبراج ، فحاصروهم حشد هائج من الفوغاء ، وخيروهم بين التعميد أو الموت ، وحاول محافظ المدينة عبثاً إنقاذهم . ولما أدرك اللاجئون أن المقاومة ضرب من المحال ، أمروا نفرأ من الأقوياء فيهم بأن يذبحواهم . وقيل لأنهم جميعاً بهذه الطريقة لقوا حتفهم فيما عدا واحداً ، عرض الإبقاء على حياته ، مع الإذعان للتعميد ، ولكن الحشد الثائر مزقه لارباً . ويمثل هذه الطريقة استؤصل نحو ١٢٠ جالية يهودية في جنوب فرنسا وشمال أسبانيا ولم يخلفوا وراءهم إلا بقية معدمة (٢٤) . وفي ١٣٢١ أحرق في شينون

١٢٠ يهوديا بتهمة تسميم الآبار^(٣٥) ، وفي ١٣٣٦ أعلن أحد المتعصبين الألمان أنه تلقى الوحي من عند الله يأمره بقتل اليهود ثأراً لموت المسيح ، فجمع حوله نحو خمسة آلاف من الفلاحين ، أطلقوا على أنفسهم اسم Armleder نسبة لشريط من الجلد ربطوه حول أذرعهم ، وجاسوا خلال الألغاز وأراضى الراين ، وقتلوا كل يهودى شئروا عليه ، واجتاحت حمى القتل بافاريا وبوهيميا ومورافيا والنمسا (١٣٣٧) وحاول البابا بندكت الثانى عشر وقفها دون جدوى ، ولكن فى راتسبون وفيينا فقط أمكن حماية اليهود بطريقة فعالة ، أما فى الأماكن الأخرى فقد عذب الآلاف من اليهود وقتلوا^(٣٦) .

وكان الموت الأسود كارثة خاصة حلت باليهود فى العالم المسيحى . لقد أودى الطاعون نفسه بحياة المغول المسلمين واليهود فى آسيا ، وهناك لم يفكر أحد فى إلقاء اللوم على اليهود ، ولكن فى أوروبا الغربية حيث جنون الأهالى طول الوباء وما أحدثه من دمار ، اتهم اليهود بتسميم الآبار فى محاولة لاستئصال المسيحيين . ونسج الخيال المسعور كثيراً من التفاصيل . ف قيل بأن يهود طليطلة أرسلوا رسلهم بصناديق مملأى بالسّم الذى صنعوه من السمحالى والعظاءات (نوع من الزواحف) وقلوب المسيحيين ، إلى جميع الجاليات اليهودية فى أوروبا ، مع توجيهات بإلقاء هذه السموم المركزة فى الآبار والعيون ، ودمغ الإمبراطور شارل الرابع هذا الاتهام بالسخف الذى لا يعقل ، وكذلك فعل البابا كليمنت السادس^(٣٧) ، وأيد كثيرون من عمد المدن والمجالس البلدية هذا الرأى ، ولكن ذلك كله لم يأت بنتيجة تذكر ، وساد بين المسيحيين اعتقاد باطل بأن الطاعون لم يكن يمس اليهود بسوء ، وربما كانت الحمى فى بعض المدن أقل فتكاً باليهود منها بالمسيحيين . تبعاً لاختلاف القوانين الصحية والرعاية الطبية^(٣٨) ، ولكن فى بعض الأماكن مثل فيينا ، راتسبون ، أفنيون ، رومه ، عانى اليهود من الطاعون قدر ما عانى

المسيحيين^(٢٩) ، ومع ذلك عذب اليهود حتى اعترفوا بتوزيع السم^(٣٠) . وأغلق المسيحيون آبارهم وعيونهم ، وشربوا ماء المطر أو السّاح المذاب ، وانتشرت المذابح الرهيبة في فرنسا وأسبانيا وألمانيا . وفي إحدى المدن في جنوب فرنسا أُلقيت الجالية اليهودية بأسرها في النار . وأحرق كل اليهود في سافوى ، وحول بحيرة ليمان وفي برن وفريبورج وبروكسل . ومرة أخرى استنكر كاثوليك السادس هذا الإرهاب وهذه التهمة ، وأعلن براءة اليهود ، وأشار إلى أن الطاعون كان شديداً حيث لا يوجد يهود ، قدر شدته في أى مكان آخر ، وحث رجال الدين على أن يكبحوا جماح الناس في أبرشياتهم ، وحرّم من الكنيسة كل من قتل اليهود أو اتهمهم ظلماً وافتراء ، ولكن في ستراسبورج ، على أية حال ، شارك الأسقف في توجيه الاتهام ، وحرّض المجلس البلدى ، على كره من المجلس ، على أن ينفى كل اليهود . ورأى الجمهور أن هذا الإجراء معتدل ، فطرد المجلس وعين مجلساً غيره ، أمر بالقبض على كل اليهود في المدينة ، وهرب بعض هؤلاء إلى الريف ولكنهم لقوا حتفهم بأيدي الفلاحين . وبقي ألفان من اليهود في المدينة فأودعوا السجون ، وفرض عليهم التعميد ، فأذعن نصفهم ، ورفض الباقون فأحرقوا (١٤ فبراير ١٤٣٩) . وبلغ مجموع من أيدوا نحو ٥١٠ جاليات يهودية في أوروبا المسيحية نتيجة هذه المذابح^(٣١) ، وهلك عدد أكبر من ذلك ، ففي سرقسطه على سبيل المثال ، عاش واحد من بين كل خمسة من اليهود بعد الموت الأسود وما صاحبه من اضطهادات^(٣٢) . وقدر لي Lea أن ٣٠٠٠ من اليهود قتلوا في أرفورت ، ١٢٠٠٠ في بافاريا^(٣٣) . وفي فيينا بناء على نصيحة الحبر جونة Jonah تجمع كل اليهود في المعبد وقتلوا أنفسهم بأيديهم ، وحدث مثل هذا الانتحار الجماعى في ورمز ، أوبنهايم ، كرمز Krems ، فرانكنفورت^(٣٤) . وحمل الذعر آلافاً من اليهود على الفرار من أوروبا الغربية إلى بولندة أو تركيا . وقد يكون من

العسير أن نعثر ، قبل زماننا أو في سجلات للوحشية ، على أية أعمال أشد وحشية من قتل اليهود بالجملة في الموت الأسود .

وزحف اليهود الذين عمروا بعد الموت الأسود ، ونبداً إلى المدن التي كانت قد سلبتهم ، وأعادوا بناء معابدهم ، ولكن اشتد شعور الكراهية نحوهم ، حيث نسب الخطأ إليهم . وفي ١٣٨٥ أودع السجنون كل اليهود في مدن « العصبة السوابية » وعددها ٣٦ مدينة ، ثم أطلقوا سراحهم على شريطة إلغاء كل الديون التي لليهود ، ونال هذا الإجراء كل الرضا في نورمبرج بصفة خاصة لأنها كانت قد اقترضت منهم ما يعادل نحو ٧٠٠,٠٠٠ دولار (٤٥) . وفي ١٣٨٩ ذبح عدد من اليهود بتهمة أنهم كانوا قد انتهكوا قدسية قربان مكسر . وبينفس التهمة أحرق ١٤ يهودياً في ابوتزن (١٣٩٩) (٤٦) . ولأسباب مختلفة طرد اليهود من كولون (١٤٢٤) ، ومن سيلير Speyer (١٤٣٥) ، ومن ستراسبورج وأوبزبرج (١٤٣٩) ، ومن ورزبرج (١٤٥٣) ، وأرفورت (١٤٥٨) ، وماينز (١٤٧٠) ، ونورمبرج (١٤٩٨) ، ومن أولم (١٤٩٩) . وأقر مكسيمليان الأول طردهم من نورمبرج على أساس أنهم « قد كثر عددهم وأنهم بفضل معاملاتهم الربوية وضعوا أيديهم على ممتلكات كثير من أفاضل المواطنين ، وجروهم إلى مهاوى البؤس والعار » (٤٧) . وفي ١٤٤٦ أودع كل اليهود في نطاق براندنبرج السجنون وصودرت بضائعهم باتهامات دمعها ستيفن أسقف المدينة بأنها تخفي وراءها الجشع والطمع ، « لقد تصرف تصرفاً جائراً أولئك الأمراء الذين دفعهم جشعهم المفرط إلى القبض على نفر معين من اليهود ولقائهم في غياهب السجنون دون مرر عادل . وهم يرفضون أن يعوضوهم عما ابتزوا منهم » (٤٨) . وفي ١٤٥١ فرض نيقولا كاردينال كوزا ، وهو من أكثر الرجال استنارة في القرن الخامس عشر ، على اليهود المقيمين في حدود ولايته وضع الشارة ، وبعد ذلك بعامين بدأ يوحنا كابسترانو بوصفه ممثلاً للبابا نيقولا الخامس ،

مهمته في ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسيليزيا وبولندا . واتهم في عظامه الماتية اليهود بقتل الأطفال وتدنيس الترابان ، وهى اتهامات كان قد دمجها البابوات بأنها خرافات قتالة . وأخرج أدواق بافاريا كل العبرانيين من دوقيتهم بعد أن ألجهم « سوط اليهود » . هذا . أما جودفري أسقف ورزبرج الذى كان قد منح اليهود امتيازاتهم كاملة في فرانكونيا ، فإنه عاد الآن فنفاهم ، وفي المدينة تلو المدينة قبض عليهم وألغيت كل الديون التى كانت لهم . وفي برسلاو سجن عدد من اليهود بناء على طلب كابسترانو ، وأشرف هو بنفسه على التعذيب الذى انتزع من بعضهم أى اعتراف أمر كابسترانو بالإدلاء به ، وعلى أساس هذا الاعتراف أعدم أربعون منهم حرقاً (٢ يونيو ١٤٥٣) . ونفى اليهود الباقون ، ولكن أطفالهم انتزعوا منهم وعمدوا بالقوة (٤٩) . وضم كابسترانو إلى قائمة القديسين ١٦٩٠ .

وإن محنة اليهود في راتسبون لتوضح حقيقة هذا العصر . فقد زعم هانز فوجل ، وهو يهودى تنصر أن أحد الأخبار واسمه إسرائيل برونا ، في الخامسة والسبعين من العمر كان قد ابتاع منه طفلاً مسيحياً وقتله ، ليستخدم دمه في أحد الطقوس اليهودية . وآمن الناس بصحة الاتهام ، وتعالت صيحاتهم مطالبين بعقوبة الموت للحبر العجوز : وألقى مجلس المدينة بالشيوخ العجوز في السجن لإنقاذاً له من أيدي الجمهور . وأمر الإمبراطور فريدريك الثالث بالإفراج عنه . ولم يجرؤ المجلس على الامتثال للأمر ، ولكنه قبض على فوجل ، وأبلغه أنه لا مناص من موته ، وطلب إليه أن يعترف بخطاياه . فأقر أن برونا برىء ، وأفرج عن الحبر : ولكن ترامت الأنباء إلى راتسبون عن اعتراف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب بقتل طفل مسيحى في ترنت . وهنا نشأ من جديد الاعتقاد بصحة اتهام فوجل ، فأمر المجلس باعتقال كل يهود راتسبون ومصادرة بضائعهم : وتدخل فردريك ، وفرض على المدينة غرامة قدرها ثمانية آلاف جيلدر ، ووافق المجلس على إطلاق سراح اليهود

إذا دفعوا هذه الغرامة ، وفوقها مبالغ ١٠ آلاف جيلدر بصفة كفالة (٢٥٠.٠٠٠ دولار ؟) . فأجاب اليهود بأن هذا المبلغ (١٨.٠٠٠ جيلدر) يزيد على كل ما تبقى لهم من ممتلكات ، ومن ثم يتعذر عليهم دفعه . وقضوا في السجن عامين آخرين . ثم أطلق سراحهم بعد أن أقسموا اليمين ألا يغادروا راتسبون وألا يحاولوا الانتقام . على أن رجال الدين أهاجوا الشعور لطردهم وهددوا بالحرمان من الكنيسة كل تاجر يبيع اليهود شيئاً ؟ ولم يبق في سنة ١٥١٠ سوى ٢٤ أسرة يهودية ، وطرد هؤلاء في ١٥١٩ (٥٠) ؟

ووصف طرد اليهود من أسبانيا ، فيما أسلفنا من قبل ، بأنه عمالة مهمة بالنسبة لتاريخ تلك البلاد . وتجدد في البرتغال اضطهادهم عندما سمح البابا كليمنت السابع ، بتحريض من شارل الخامس ، للأساقفة البرتغاليين بإنشاء محكمة التفتيش (١٥٣١) بقصد فرض الشعائر المسيحية على « المسيحيين الجدد » ، ومعظمهم من اليهود الذين كانوا قد عمدوا رغم إرادتهم ؟ وطبق قانون توركيبادا الصارم ، وبثت العيون والأرصداً للملاحقة ارتداد أى من المتنصرين إلى شيء من الطقوس الدينية اليهودية ، وسجن الألوف من اليهود ، وحرمت عليهم الهجرة ، لأن مهامهم الاقتصادية كانت لا تزال ضرورية للاقتصاد البرتغالي . وحرّم على المسيحيين شراء شيء من أملاك اليهود منعاً لهم من الهرب ، وأرسل مئات من هؤلاء إلى المحرقة لمحاولتهم مغادرة البلاد . وصعق كليمنت لهذه الإجراءات ، وربما أثرت فيه هدايا اليهود ، فأبطل سلطة محكمة التفتيش البرتغالية ، وأمر بإطلاق سراح كل من أمرت بسجنهم ، وإعادة بضائعهم المصادرة . ونص مرسومه الصادر في ١٧ أكتوبر ١٥٣٢ على بعض مبادئ إنسانية للتعامل مع المرتدين عن المسيحية .

لما كانوا قد سيقوا إلى التعميد قسراً ، فلا يجوز أن يعتبروا أعضاء في الكنيسة . وإن في معاقبتهم على الهرطقة والانتكاس إلى شعائرتهم الأولى ، خرقاً لمبادئ الإنصاف والمساواة ،

والأمر يختلف فيما يتعلق بأبناء وبنات الموارنة الأولين فإنهم يتبعون الكنيسة كأعضاء مختارين غير مكرهين ، وبما أنهم نشأوا في أحضان أقرباء لهم من اليهود ، وشاهدوا هذا النموذج ماثلاً دوماً تحت بصرهم ، فإنه من القسوة أن نعاقبهم بمقتضى قانون الكنيسة ، بتهمة التردى في أساليب اليهود ومعتقداتهم . إنهم يجب أن يظلوا في أحضان الكنيسة بالمعاملة الحسنة (٥١) .

ويتبين أن كايمنت كان مختصاً من رسالة بعث بها عند ما شعر بذنو أجله ، إلى القاصد الرسولى في البرتغال في ٢٦ يوليوز ١٨٣٤ ، يأمره بالإسراع بإطلاق سراح المسجونين المرتدين (٥٢) .

وتابع البابا بول الثالث بذل الجهد لمعاونة اليهود البرتغاليين ، وأطلق سراح ١٨٠٠ من المسجونين ، ولكن عند ما عاد شارل من حملته التي كانت في ظاهرها ناجحة ضد تونس ، طالب ، مكافأة له ، بإعادة محكمة التفتيش في البرتغال . ووافق بول على كره منه (١٥٣٦) ، ولكن بشروط بدا للملك جون الثالث أنها تنسخ موافقته - منها ضرورة مواجهة المتهم بمن اتهمه . وإثبات حق المحكوم عايه في استئناف الحكم أمام البابا . وساعد مرتد متعصب الحقين بأن علق على جدران كاتدرائية لشبونة لإعلاناً جريئاً جاء فيه : « أن المسيح المخلص لم يظهر بعد ، وأن يسوع ليس هو المخلص ، وأن المسيحية يحض افتراء » (٥٣) . ولما كان من الواضح أن مثل هذه العبارات قصد بها إيلذاء اليهود ، فإن لنا أن نرتاب بحق في أحد العملاء المخرضين : وعين بول لجنة من الكاردينالات لفحص إجراءات محكمة التفتيش البرتغالية . وقد جاء في تقريرها :

إذا اتهم مسيحي زائف - وغالباً ما يكون ذلك عن طريق شهود مفتريين - ساقه المحققون إلى منزل موحش لا يرى

فيه أَرْضاً ولا سماء ، وأقل ما يقال إنه لا يخاطب فيه صديقاً يواسيه أو يسعته . ويتمحونه بمقتضى شهادة غامضة ولا يثبتونه بالزمان أو المكان الذى اقتصروا فيه الجريمة التى يحاكم من أجلها . ويسمح له فيما بعد باختيار محام عنه غالباً ما يقوده إلى طريق المحرقة ، بدلاً من الوقوف إلى جانبه والدفاع عن قضيته . دع مخلوقاً منكود الحظ يقر بأنه مسيحي مؤمن حقاً ، وينكر إنكاراً قاطعاً الخطايا التى سبقت لاتهامه ، فإنهم يسلمونه إلى النار ، ويصادرون بضاعته . أو دعه يلدع بأنه مذنب فى كذا وكذا من الأعمال ، ولو أنها ارتكبت عن غير قصد ، فإنهم يعاملونه بالطريقة نفسها ، مدعين بأنه ينكر عناداً نيته ومقاصده السيئة . أو دعه يعترف اعترافاً كاملاً صريحاً بصحة ما اتهم به ، فإنهم يسومونه أشد ضروب الحرمان ، ويحكمون عليه بالبقاء فى زنزانة كثيفة مظلمة لا يرى فيها النور ، ويسمون هذا « معاملة المتهم بالرحمة والرفقة والبر المسيحية » ! وحتى الذين يفلحون فى إثبات براءتهم يحكم عليهم بدفع غرامة ، حتى لا يقال إنه قبض عليهم بلا سبب . أما المتهمون المودعون فى السجون فإنهم يعذبون بكل آلات التعذيب حتى يقرروا بما وجه إليهم من اتهامات . وكثيرون يقضون نحبهم فى السجن . أما الذين يطلق سراحهم ، فإنهم هم وذوى قراهم يدمغون بالعار الأبدي (٥٥) .

لقد أزهقت التطورات السياسية البابا بول ، وأقضى مضجعه خطر فقدان أسبانيا والبرتغال ، كما كان البابا ليو قد فقد ألمانيا ، والبابا كليمنت إنجلترا ، ولكن بول على الرغم من ذلك بذل قصارى جهده للتخفيف من حدة محاكم

التفتيش ، ولكن الإرهاب كان يستشري يوماً بعد يوم ، حتى وجد يهود البرتغال ، بكل وسيلة يائسة ، مهرباً من مضيقهم ، وانضموا إلى إخوانهم في أسبانيا سعيّاً وراء ركن يقعون فيه بالعالم المسيحي أو أرض الإسلام ، ويمكن أن يحتفظوا فيه بشريعتهم مع الإبقاء على حياتهم .

٣ - الشتات الثاني

إلى أين يذهب اليهود ؟ إن جزيرتي سردينيا وصقلية اللتين كانوا قد قطنوا فيهما لمدة ألف سنة من قبل ، قد شملهما ، بالإضافة إلى أسبانيا ، المرسوم الذي أصدره فرديناند بطردهم . وما جاءت ١٤٩٣ حتى كان آخر يهودي قد غادر بالرمو . وفي نابولي استقبل فرانت الأول والإخوان الدومينيكان والجالية اليهودية المحلية ، آلاف اللاجئين بالترحاب . ولكن شارل الخامس أصدر في سنة ١٥٤٠ مرسوماً بطرد اليهود من نابولي .

وكان في جنوه لزم من طويل قانون يحدد دخول أعداد إضافية من اليهود . ولما وصل المرتدون من أسبانيا ١٤٩٢ ، لم يسمح لهم بالبقاء لأكثر من بضعة أيام قليلة . ولقد وصفهم مؤرخ جنوى بأنهم أشباح بالغة الهزال والشحوب والنحول ، عيونهم غائرة ، ولا يفرقهم عن الموتى سوى قدرتهم على الحركة » (٥٥) . ومات الكثيرة منهم جوعاً ، وحملت الأمهات أطفالاً موتى ، وباع بعض الآباء أبناءهم ليلدعوا أجر الانتقال من جنوة : واستقبل نفر قليل من المنفيين في فيرارا ، ولكن طالب إليهم أن يضعوا شارات صفراء (٥٦) وربما كان هذا بمثابة احتياط ضد انتشار المرض .

وكانت البندقية لعهد طويل مأوى لليهود . وكمن من محاولات كانت قد بذلت لإخراجهم منها (١٣٩٥ - ١٤٨٧) ولكن السناو تولى حمايتهم لأنهم كانوا يساهمون إسهاماً هاماً في الاقتصاد والمال ، ويتولون الجزء الأكبر من تجارة الصادرات في البقية ، وكانوا لشيطن في استيراد الصوف

والحرير من أسبانيا ، والتوابل والثاؤ من الهند (٥٧) . ولفترة طويلة كانوا يقطنون ، بمحض اختيارهم الحى الذى سمي باسمهم (حى اليهود) . وفى ١٥١٦ وبعد تشاور مع زعماء اليهود ، قضى الساتو بأن يقطن كل اليهود ، فيما عدا نفر قليل مرخص لهم بصفة خاصة ، فى قطاع من المدينة عرف باسم Ghetto أى حى خاص ، والظاهر أن هذا اللفظ مأخوذ عن كلمة ghetto ، أو مسبك كان هناك (٥٨) . وأمر الساتو كل اليهود المرتدين بمغادرة البندقية ، وقد شجع المسيحيون المنافسون هذا الإجراء . على أن بعض التجار المسيحيين عارضوه لأنه يهدد بفقدان أسواق معينة ، وخاصة فى العالم الإسلامى ، ولكن شارل الخامس استخدم كل نفوذه فى الموضوع ، ونفذ مرسوم الطرد (٥٩) . على أنه لم يمض وقت طويل حتى زحف التجار اليهود إلى البندقية ثانية ، وحل المنفيون من البرتغال محل اليهود المنتصرين الذين طردوا ، وأصبحت اللغة البرتغالية لبعض الوقت هى لغة اليهود البنادقة .

واستقبل البابا الإسكندر السادس استقبالا كريماً فى رومه كثيراً من المنفيين من شبه جزيرة إيبيريا ، وازدهرت أحوالهم فى عهد جولوس الثانى ، وليو العاشر ، وكليمنت السابع ، وبول الثالث . وأباح كليمنت للمرتدين ممارسة الطقوس اليهودية فى حرية تامة ، مؤمناً بأنهم غير ملزمين بأى تعمد إجبارى (٦٠) . وفى أنكونا ، ثغر الولايات البابوية على الأدرياتيك ، حيث كان اليهود عنصراً نشيطاً فى التجارة الدولية ، أنشأ كليمنت مأوى لليهود الذين أعلنوا عن ديانتهم وضمن لهم عدم التحرش بهم ، أما بالنسبة للبابا بول الثالث فيقول الكاردينال سادوليتو : « لم يغدق أى من البابوات على المسيحيين من التكريم والحفاوة والامتيازات والمنح مثل ما أغدق بول الثالث على اليهود . لأنهم لم يحظوا بالمساعد فقط بل لأنهم تزودوا كذلك عملياً بالمنافع والامتيازات (٦١) » . وشكا

أحد الأساقفة من أن اليهود المرتدين عند دخوله الى إيطاليا أسرعوا بالعودة إلى ممارسة الملقةوس اليهودية، وختان أطفالهم المبعدين ، تحت بصر البابا والأهالي ، في الغالب . وتحت ضغط هذه الانتقادات أعاد بول محاكم التفتيش في رومه (١٥٤٢) ، ولكنه ، وقف إلى جانب المرتدين طوال حياته (٦٢) .

وتحول خلفاؤه - وقد ضيقت عليهم الخناق انكساة عن أساليب الرفق واللين التي سادت عصر النهضة - تحولوا إلى سياسة إزعاج اليهود وإفلاق باهم . وطبقت المراسيم البابوية القديمة . وفرض بول الرابع (١٥٥٥ - ١٥٥٩) على كل معبد أن يسهم بعشرة دوكات (٢٥٠ دولاراً) في إقامة دار للمتضررين ليلتقى فيها اليهود تعاليم المسيحية . وحرّم على اليهود استخدام خدام أو ممرضات مسيحيات أو علاج مرضى مسيحيين ، أو أن يبيعوا المسيحيين شيئاً غير الملابس القديمة ، أو أن يقيموا مع المسيحيين أية معاملات أو علاقات ممنوعة . وما كان لهم أن يستعملوا إلا التقويم المسيحي . وهدمت كل معابد اليهود في رومه إلا واحداً ، وحرّم على اليهودي أن يمتلك عقاراً ، وإذا كان لأحد منهم أى عقار فعليه أن يبيعه في بحر ستة شهور ، وبهذه الطريقة استطاع المسيحيون أن يشتروا بما يعادل ٥٠٠,٠٠٠ كراون (١٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار) من أملاك اليهود بخمسة قيمته الفعلية (٦٣) : وانحصر كل اليهود الذين بقوا آنذاك في رومه (١٥٥٥) في حى مشزل عاش فيه عشرة آلاف شخص في كيلو متر مربع فقط ، وشغلت عدة أسر حجرة واحدة . وتعرض الحى ، بسبب انخفاض مستواه ، للفيضانات الدورية لنهر التيبر ، حتى جعل من هذه البقعة مستنقاعاً ملوئاً بالطاعون (٦٤) . وأحيط الحى بأسوار كثيفة تغلق أبوابها في منتصف الليل وتفتح عند الفجر ، فيما عدا أيام الأحد والعطلات المسيحية فإنها تظل مغلقة طوال اليوم . وألزم اليهود بأن يلبسوا خارج هذا المنزل زياً مميزاً - لرجال

قبة صفراء ، للنسوة خمار أو شارة صفراء . — وأقيمت أحياء منعزلة مثل هذا في فلورنسا وسينينا ؛ ورسوم من البابا في أنكونا وبولونيا ، وكانت تسمى هناك *Enferno* (٦٥) (البحيم) . وأصدر بول الرابع أمراً سرياً بوضع كل المرتدين في أنكونا في سجون محكمة التفتيش وبمصادرة بضائعهم . وأحرق هناك أربعة وعشرون رجلاً وامرأة واحدة أحياء بتهمة أنهم هراطقة مرتدون (١٥٥٦) (٦٦) وأرسل سبعة وعشرون يهودياً للتعذيب على السفن الشراعية إلى الأبد (٦٧) . وكان هذا بالنسبة لليهود إيطاليا انتقالا من عصر ذهبي إلى شفق شاحب .

وتسللت حفنة من الإلجئيين اليهود إلى فرنسا وإنجلترا على الرغم من القوانين التي تنص على إبعادهم . وكانت ألمانيا كلها تقريباً مغالقة في وجوههم . وقصد كثيرون إلى أنتورب ، ولكن سمح لنفر قليل منهم فقط بالإقامة لمدة تزيد على شهر . وأسس ديوجومنديس — وهو برتغالي مرتد — في أنتورب فرعاً للبنك الذي كانت أسرته قد أسسته في لشبونة . وفي ١٥٣٢ لاقى من النجاح ما حدا بمجلس أنتورب على القبض عليه مع خمسة عشر آخرين بتهمة ممارسة اليهودية . وقدخل هنرى الثامن الذي استخدم منديس وكيلا مالياً ، وأطلق سراح ثلاثة عشر ، بعد دفع غرامة فادحة ، وهذا هو « الغرض الأسمى » من كل حالات القبض . وانتقل اليهود الآخرون إلى أمستردام حيث كان من الممكن أن تنتعش أحوالهم بعد تحرر هولندا من نير أسبانيا سنة ١٥٨٩ .

أما هؤلاء اللاجئون الذين التمسوا مأوى في الأراضي الإسلامية التي لا تخضع مباشرة لسيطرة سلطان تركيا ، فقد صاروا إلى حالة أحسن بقليل منها في العالم المسيحي . وأطاق المغاربة النار على اليهود الذين حاولوا أن يحطوا رحالهم في أوران والجزائر وبوجيا ، وبقى عدد وثير منهم حتفهم . ولما منعوا من الدخول إلى المدن أقاموا معزلاً مرتجلاً من الأكواخ من خشب الأشجار ، وشبت النيران في أحد الأكواخ ، فالتهمت المستوطنة عن آخرها

مع كثير من اليهود ، أما الذين قصدوا إلى فاس فقد وجدوا الأبواب موصدة دونهم ، فاحتاوا بعض الحقول وعاشوا على الأعشاب وجذور الشجر ، وقتل الأمهات أطفالهن خيراً من أن يرينهم يوتون جوعاً . وباع الآباء أبناءهم في مقابل قطعة من الخبز . وأنى الطاعون على مئات من الأطفال والشبان . وهاجم القراصنة المعسكر وسرقوا الأطفال ليبيعوهم بيع الرقيق (٦٨) . ومزق القتلة أجسام اليهود عساقهم يعزرون على مجوهرات اعتقدوا أن اليهود قد ابتلعوها (٦٩) . وبعد كل هذه المصائب والكوارث ، أنشأ الذين عمروا بعدها ، في شجاعة لا تصدق ، في ظل ألوان من الضعف والعجز لا نهاية لها ، جاليات يهودية جديدة في المغرب العربي . وفي الجزائر ، خاطر سيمون ديوران الثاني بحياته المرة بعد المرة ، لحياة المنفيين ، وتنظيمهم بشكل يوفر لهم شيئاً من الأمن . وفي فاس أصبح يعقوب يراب أشهر علماء التلمود في زمانه .

ولقى المنفيون من إسبانيا ، استقبالا إنسانياً في القاهرة تحت حكم سلاطين المماليك والعثمانيين ، وسرعان ما سموا إلى زعامة الجالية اليهودية . وألغى سليم الأول وظيفة Nagid « الأمير » وفيها كان يتولى أحد الأتباع تعيين سائر الأتباع ، ويشرف على شؤون كل اليهود في مصر ، وبعد ذلك أصبح لكل جالية يهودية أن تختار حبراً لها وأن تتولى شؤونها الداخلية بنفسها وأنهى حبر القاهرة الحديد وهو داود بن أبي زمرة وهو مهاجر أسباني — استخدام التقويم البابلي القائم على تقسيم الزمن إلى فترات — الذي كان يهود آسيا وأفريقية يستعملونه — وحتمهم على اقتباس تقويم آخر (كما فعل يهود أوروبا في القرن الحادي عشر) وهو تقويم قائم على حساب السنين منذ بدء الخليفة الذي حدد مؤقتاً بعام ٣٧٦١ قبل الميلاد .

وحينما ذهب يهود أيبريا (Sephardic) خطوا بالزعامة الثقافية ، والسياسية

في الغالب ، على اليهود المحليين . ففي سالونيك أصبحوا ، وظلوا حتى ١٩١٨ ، غالبية عددية بين السكان ، حتى أن اليهود غير الإسبان الذين جاءوا ليعيشوا في هذه المدينة ، كان لزاماً عليهم أن يتعلموا اللغة الإسبانية . وفي ظل هذه السيطرة اليهودية ، كانت سالونيك لفترة من الزمن أكثر المراكز التجارية ازدهاراً في شرق البحر المتوسط .

ورحب السلطان بايزيد الثاني في تركيا باليهود المنفيين ، لأنهم أحضروا معهم ، على وجه الدقة ، تلك المهارات اللازمة للحرف والصناعات اليدوية والتجارة والطب . مما لم تكن تركيا قد توسعت فيه وطورته إلا في أقل الحدود . وقال بايزيد عن فرديناند الكاثوليكي : « إنكم تقولون إن فرديناند ملك حكيم عاقل ذلك الذي أفقر بلاده وأغنى بلادنا » (٧٠) . وخضع اليهود ، شأنهم شأن غير المسلمين في أرض الإسلام ، لضريبة الرأس ، ولكن هذه الضريبة أعفتهم من الخدمة العسكرية ، وبقي معظم يهود تركيا فقراء ، ولكن كثيراً منهم أثري وسما إلى مراكز النفوذ . وسرعان ما أصبح كل أطباء انقسطنطينية تقريباً من اليهود . وكان طبيب سليمان من ذوى الخطوة لديه ، إلى درجة أنه أعفاه وأعفى أسرته من كل الضرائب وبرز اليهود في المناصب الدبلوماسية في عهد سليمان ، حتى أن السفراء المسيحيين كان لزاماً عليهم أن يتوددوا إليهم تقرباً إلى السطان . وكان لأنباء اضطهاد اليهود في أنكونا على يد بول الرابع وقع شديد في نفس سليمان ، واحتج عليها لدى البابا (٩ مارس ١٥٥٦) وطلب الإفراج عن رعايا تركيا من اليهود في أنكونا ، ونعلا أطاق سراحهم (٧١) . وآوى جراسيا منديزيا ، وهو أحد أفراد أسرة منديس الذين اشتغلوا بالأعمال المصرفية ، إلى اسطنبول ليجد فيها أخيراً الأمان والطمأنينة ، بعد أن أتى كثيراً من أعمال البر

والخير في أنتورب وفيرارا والبندقية ، ولقي جزاء سنهار من الإساءة والأذى .

وفي عهد الأنراك استقبلت الأرض المقدسة مرة أخرى ، القوم الذين كانوا قد أضفوا عليها القداسة أول الأمر . ولما كانت القدس مقدسة لدى المسيحيين والمسلمين ، قدر ما هي مقدسة لدى اليهود ، فإنه لم يسمح بالإقامة فيها إلا لعدد محدود من العبرانيين . أما في صنف في الجليل الأعلى ، فقد ازداد عدد اليهود وارتفعت مكانتهم الثقافية بسرعة ، حتى أن يعقوب بيراب حاول أن ينشئ هناك جمعية *Sanhedrin* (*) ، تكون بمثابة هيئة عليا تتولى الحكم بين جميع اليهود . وكانت تلك فكرة جريئة . ولكن اليهود كانوا موزعين في شتى البلاد متباينين في اللغة وطرق الحياة ، إلى حد لا يسمح بتوحيد الحكم . وعلى الرغم من ذلك فإن اليهود في أرض الإسلام وفي العالم المسيحي ، كانوا في صلواتهم يتضرعون إلى الرب « ليجمع شتاتهم ويلم شملهم من أركان الأرض الأربعة » . وفي يوم الكفارة *Yom Kippur* ، وفي يوم عيد الفصح يجتمع اليهود في كل مكان في العالم حول الأمل الذي تشبثوا به فأبقى عليهم وسط الحزن ، ويرددون : « سنكون في العام القادم في فلسطين » (٧٢) :

٤ - فن البقاء

إن قدرة اليهود على الإفاقة من كبوتهم وتخطي الحزن التي حلت بهم ، هي إحدى عجائب التاريخ التي ترك في النفس انطباعاً ، وهي جزء من المرونة البطولية التي أظهرها البشر عامة بعد كوارث الحياة :

(*) *Sanhedrin* : جمعية هي بمثابة المحكمة العليا والمحس الأعلى لشعب اليهود القديم ، جمعت بين المهام الدينية والمدنية ، وتكونت من ٧١ عضواً تحت رئاسة الكاهن الأعظم . ألغيت بعد تدمير أورشليم في سنة ٧٠ م . (الترجمة)

ولم يكن التمييز العنصرى أسوأ لإهانة لحقتهم ، فقد كانوا أكثر أمناً وسعادة فيما بينهم ، منهم وسط الجمهور الذى يضمهم العداء ، والفقر أمكنهم أن يتحملوه لأنهم كانوا قد ألفوه لعدة قرون ، ولم يكن خاصاً بهم ، والحق أن فخرهم بالثراء العارض كان أقرب احتمالاً من شعورهم بالفقر الذى عانوه منذ أزمان سحيقة . أما أنكى الجراح ، مهما كان الباعث عليه ، فهى الشارة أو الزى المميز الذى دمغهم بأنهم محتقرون منبوذون بين الناس . وكتب مؤرخ اليهود العظيم فى مرارة يقول :

إن شارة اليهودى كانت بمثابة إغراء للصبيحة المتشردين بإهانة حاملها وقذفهم بالأحوال ، وإيحاء لجموع الرعاع الحمقى بالانقضاض عليهم وإساءة معاملتهم ، بل حتى قتلهم ، كما هيأت للطبقة العليا فرصة نبذ اليهود ونهبهم أو نفيهم . وأسوأ من هذا العار الخارجى ، أثر الشارة فى اليهود أنفسهم . فقد اعتادوا أكثر فأكثر على مركزهم الحقيق المذل ، وفقدوا كل إحساس باحترام الذات : فأهملوا مظهرهم الخارجى : . وأصبحوا أكثر فأكثر لا يعنون بمحدثهم لأنهم لم يسمح لهم بارتياح دوائر الثقافة ، أما فيما بينهم فكانوا يفهمون بعضهم بعضاً برطانة غامضة « وفقدوا كل تذوق للجمال وإحساس به . وأصبحوا إلى حد ما حقراء كما أرادهم أعداؤهم أن يكونوا (٧٢) .

إن هذا وصف يتسم بالمبالغة والتعميم أكثر مما يلغى ، فكم من اليهود احتفظوا بكبريائهم وتألّقوا فى ملابسهم الفاخرة ، ولنا لنسمع المرة بعد المرة عن بنات يهوديات اشهرن بجمالهن ، وعن Judisch التى تطورت فى القرن السادس عشر إلى لغة ألمانية فيها اقتباسات عبرية وسلافية . كانت ننتج أدباً قوياً متنوعاً حينها كتب جرايتز كتابه « تاريخ اليهود » . وعلى

هراية حال ، فلأن أكبر جريمة ارتكبت في تلك القرون هي الخط عمداً من قدر شعب بأسره ، وقتل النفس بلا شفقة أو رحمة :

وكان الجزء الذى لا يتجزأ من هذه الجريمة وأساسها ، استبعاد اليهود من كل الأعمال والأشغال تقريباً ، فيما عدا التجارة والشئون المالية . ولأسباب سبق لإيجازها (٧٤) ، ولأن الكنيسة كانت تطالب بعشر غلة الأرض المنزرعة ، تراجع اليهود أكثر فأكثر عن زراعة الأرض ، وأخيراً حرم عليهم امتلاك الأراضي (٧٥) : ولما كان محروماً عليهم الانضمام إلى النقابات (التي كانت رسمياً منظمات مسيحية دينية) فلم يمكنهم من الدخول إلى عالم الصناعة ، وطوقت الاحتكارات المسيحية عملياتهم التجارية : وعلى الحملة وجدوا أنفسهم ، في معاملاتهم مع المسيحيين ، محدودين بنطاق ضيق من الصناعة والتجارة وتسليف النقود . وفي بعض البقاع كان محروماً عليهم أن يبيعوا للمسيحيين شيئاً سوى البضائع القديمة المستعملة ، وفقدوا ، بعد القرن الثالث عشر ، تفوقهم السابق في عالم المال ، ذلك التفوق الذى كان يثير حقد الآخرين وحسدهم ، ولكن رأسمالهم السائل ، ومعرفتهم بلغات العالم ، واتصالاتهم الدولية عن طريق أقربائهم المنتشرين في كل مكان ، كل أولئك مكنهم من تحقيق مركز عال في التجارة الأجنبية للدول المسيحية . وكان دور اليهود في هذا المجال هائلاً إلى حد أن الدول التي طردتهم ، خسرت الكثير من حجم تجارتها الدولية . أما تلك التي رحبت بهم فكسبت هذا المجال : وهذا سبب واحد ، وليس السبب الرئيسى ، في أن أسبانيا والبرتغال اضمحلتا ، على حين انتعشت هولنده ، وفي أن أنتورب أسلمت زعامتها التجارية إلى أمستردام :

وكان لليهود عزاء وإنقاذ في أن تحكمهم ، في شئونهم الداخلية ، قوانينهم وأعرافهم وأخبارهم ومجالسهم الدينية . ففي اليهودية ، كما هو الحال في

الإسلام ، نجد الدين والقانون والأخلاقيات شيئاً واحداً لا يتجزأ . فقد اعتقدوا أن الدين يتمشى مع الحياة على طول الخط : وفي ١٣١٠ صاغ الحبر يعقوب بن أشر القانون والطقوس والأخلاقيات اليهودية في « أربعة لوائح » ، حلت محل « تعاليم الأحرار » التي وضعها ابن ميمون (١١٧٠) ، مع سجل وضعت فيه كل تشريعات التامود وأحكام الجيوسيم Q im ، وأصبحت كلها مازمة لجميع اليهود في كل مكان . وأصبح كتاب « الجداول الأربعة » المرشد المتفق عليه في أية قوانين حبرية أو أحكام حتى ١٥٦٥ .

وقرئت مصائب القرنين الرابع عشر والخامس عشر أركان التنظيم الاجتماعي لدى اليهود : ومات من الأحرار ، كمات من التساوسة ، عدد كبير جداً ، في الموت الأسود ، ووضعت عمليات الاضطهاد والطرده وحياة اللاجئين ، خاتمة للقانون اليهودي : ووجد يهود أيريا من العسير عليهم أن يتقبلوا لغات وأعراف الجاليات اليهودية التي عرضت انضمامها إليهم ، فأقاموا معابد خاصة بهم واحتفظوا بلغتهم الإسبانية أو البرتغالية . ووجدت في كثير من المدن تجمعات منفصلة من اليهود الإسبانين أو البرتغاليين أو الإيطاليين أو اليونانيين أو الألمان ، ولكل طائفة حبرها وعاداتها وصدقاتها وأحقاها (٧٦) . وفي وسط هذه الأزمة أنقذت الأسيرة اليهودية شعب اليهود ، فإن الإخلاص المتبادل بين الآباء والأبناء ، وبين الإخوة والأخوات هيأ جواً من الاستقرار والأمن : وانتهت قرون الفوضى في الأعراف والعادات اليهودية عندما أصدر الحبر يوسف كارو من صفد كتاب « تنسيق الشريعة Shulchan Aruch » (البندقية ١٥٦٤ - ١٥٦٥) ، سجل فيه الدين والقانون والأعراف اليهودية مرة أخرى ، ولكن مذنبى كارو تشريعه على اليهودية الإسبانية أساساً ، فإن يهود ألمانيا وبولندا أحسوا بأنه لم يول إلا عناية يسيرة لتقاليدهم وتفسيراتهم للقانون . وأضاف الحبر موسى لإسرل Esserles من كراكاو إلى « تنسيق الشريعة » ، تنسيق التنسيق ، (١٥٧١) صاغ فيه

خلافات الأشكنازى مع قانون كارو الذى كان فى معظمه أسبانيا . وبهذا التنقيح بقى كتاب « تنسيق الشريعة » حتى وقتنا هذا مرجع اليهود ذوى العقيدة الصحيحة ، وكأنه « جستنيان أو بلاكستون » فإذا قلت عن يهودى إنه اممثل لكل التعاليم التى وردت فى « تنسيق الشريعة » فهذا ذروة المديح والثناء .

ولما كانت كل صياغة جرت للقانون اليهودى مبنية على التلمود ، فيمكن — أو هل يمكن ؟ — أن نقصور الضر الذى تابع به اليهود تقلبات كتابهم المقدس الثانى . وفى القسم الأدبى من التلمود ، وهو قسم أقل وثوقاً ، ويسمى « هجادة Haggada » ، توجد بعض أجزاء نهزأ ببعض معتقدات مسيحية معينة ، وقد مهد اليهود المتحولون إلى المسيحية طريقهم إليها بسخريتهم من هذه الأجزاء . ووقف العمل بالتلمود بأسره . وعلى الرغم من هذه الحركات التى بلغت ذروتها فى حملة بفركورن على رخليين ، شجع ليو الثالث طبع التلمود لأول مرة (البندقية ١٥٢٠) ، ولكن جولويس الثالث دلى على انتهاء عصر النهضة بأن أمر محكمة التفتيش بإحراق نسخ التلمود الموجودة فى إيطاليا (١٥٥٣) ، واقتحمت بيوت اليهود ، وأخذت آلاف من النسخ ، واشتعلت النيران فى الهواء الطلق فى الكتب اليهودية فى رومه وبولونيا ورافنا وفيرارا وبادوا والبندقية وما انتوا . على أن ميلان رفضت الإذعان لمرسوم الإحراق (٧٧) . وناشدت الجمعيات اليهودية البابا أن يلغى مرسومه ، وظل هو يماطل والكتب تحرق . ولكن بيوس الرابع حكم بأنه يمكن طبع التلمود بعد إخضاعه للرقابة . وبعد ذلك راقب اليهود المنشورات والمطبوعات الخاصة بهم (٧٨) .

وبقى « الزهار Zahar » وهو نص « القبالة » اليهودية . سلما لم يحس بسوء لأن بعض العلماء الكاثوليك ذهبوا إلى أنهم وجدوا فيه أدلة على ألوهية المسيح . وكان الزهار قد كتب قبل ١٢٩٥ بقليل ، بوصفه حلقة من سلسلة

من المؤلفات التي تنقل القبالة أى « التقاليد السرية » لليهود الذين وجدوا أماناً من الفقر والاضطهاد والاضطراب العقلى فى التأمل فى الرموز الخفية الدينية للأرقام والحروف والقراءة العكسية للألفاظ والاسم الذى يفوق الوصف للرب ، وهكذا . وتجمع اليهود الحزونون فى حلقات خاصة يلتصقون ، بالصوم والبكاء وبالتعشف الصارم وبتفسير القبالة ، أن ينزل عليهم وحى جديد ، فيما يتعلق ، فوق كل شئ ، بمجىء « المخلص » الذى قد يخلص إسرائيل من كل أحزانها .

إن الذين حاولوا أن يستشعروا العمق الذى لم يسبق له مثيل للألام التى عاناها اليهود فى القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، يمكنهم أن يدركوا مثل هذا اللجوء - الذى يمكن أن يغتفر ، إلى التصوف الذى يجدون فيه السلوى والعزاء ، ونخداع النفس المتكرر الذى يلجأ إليه هؤلاء اليهود البائسون ، باعتقادهم أن « المخلص » كان قد جاء بالفعل . وفى ١٥٢٤ امتطى شاب يهودى عربى وسيم أطلق على نفسه اسم داود روبىنى ، جواداً أبيض عبر شوارع رومه إلى الفاتيكان ، وقدم نفسه إلى البابا كليمنت السابع على أنه شقيق ورسول ملك يهودى قال إنه يحكم فى بلاد العرب قبيلة يهودية قديمة تدعى قبيلة روبين . وقال داود إن مملكته لديه ٣٠٠.٠٠٠ جندى غير كاملى العتاد ، وإذا أمدهم البابا وأمراء أوروبا بالسلاح ، فإن القبيلة تستطيع عندئذ أن تطرد المسلمين من فلسطين . واهتم كليمنت بالأمر وعامل داود بالحفاوة التى تليق بمقامه بوصفه سفيراً . وسر يهود روما أن يروا يهوديا يلقى مثل هذا التكريم . وأمدوه بكل ما يحافظ به على صفته الدبلوماسية السامية : ولما تلقى دعوة من جون الثالث ملك البرتغال أبحر مع حاشية كبيرة على سفينة تحمل العلم اليهودى .

وسحر جون بمقترحات داود إلى حد أنه أوقف اضطهاد المنتصرين وجن من الفرع جنون يهود البرتغال الذين عمد معظمهم ضد إرادتهم ،

وأعلن كثيرون منهم عن اعتقادهم بأن داود كان هو « المخلص » ، وأجرى ديوجو بيرز - وكان قد تنصر وأصبح سكرتيراً للملك ، أجرى لنفسه عملية الختان ، ليثبت يهوديته ، وغير اسمه إلى سليمان مولخو ، وأخذ طريقه إلى تركيا وأعلن أن داود هو البشير « المخلص » الذى سوف يصل هو بشخصه فى سنة ١٥٤٠ . ولم يكن روبينى قد ادعى أنه المخلص أو البشير بمجيئه ، وإنما كان دجالاً حالماً ، أراد مالا وسفناً وأسلحة : وأثار هرب بيرز (مولخو) شكوك الملك جون ، فأمر روبينى بمغادرة البلاد ، ورحل داود ، وأوقف على شاطئ أسبانيا وقبضت عليه محكمة التفتيش . وأمر شارل الخامس ، بإطلاق سراح روبينى ، مرضاة للبابا كليمنت على ما يبدو . وقصد روبينى إلى البندقية (١٥٣٠) ، واقترح على السناتو وجوب تسليح أوروبا ، للقيام بهجوم ضد الأتراك .

وفى الوقت نفسه جاء مولخو إلى أنكونا ، وحصل على جواز مرور من البابا ، وتجول فى إيطاليا ، وبشر باليهودية بحرارة وحاس فى روما . ولما سعت محكمة التفتيش إلى القبض عليه ، بوصفه متنبصراً مرتدأ ، أنقذه كليمنت وأخرجه سالماً من المدينة . وعلى الرغم من أن ملخو كان قد فقد آنذاك إيمانه بـداود روبينى ، فإنه انضم إليه فى مهمة طائشة إلى راتسبون ، حيث توسلا إلى شارل الخامس أن يمد المنتصرين بالسلاح ليحاربوا المسلمين . ولكن شارل قبض عليهما وأحضرهما معه إلى مانتوا . وهناك حكم على ملخو بالإعدام حرقاً . وفى اللحظة الأخيرة صدر عنه عفو إمبراطورى شريطة عودته إلى المسيحية ، فأبى ورحب بالاستشهاد (١٥٣٢) . وأرسل روبينى إلى أسبانيا وهناك ألقت به محكمة التفتيش فى غيابة السجن ، ومات حوالى ١٥٣٦ ، والظاهر أنه مات مسموماً ، وزحف يهود أوروبا كسيري القلوب إلى معازلمهم وتصوفهم ويأسهم .

٥ - الفكر اليهودى

ما كان لنا أن نتوقع من عهد « الشتات الثانى » أن ينتسج أية ثقافة رفيعة بين اليهود . فقد استنزفت طاقتهم المهمة الوحشية التى واجهوها ، مهمة البقاء على قيد الحياة : وتعطل التعليم الذى كانوا قد برزوا فيه وأنقذوه نتيجة للثقل وانعدام الأمن فى الحياة : وعلى حى شقت أوروبا المسيحية طريقها إلى النهضة فرحة متعشة ، انصرف يهود أوروبا إلى المعزل و « القبالة » وحرمت عليهم « الوصية الثانية » الإسهام فى حركة إحياء الفنون : وكان بين اليهود عدد كبير من العلماء ، ولكنهم انهمكوا فى التلمود . وكان منهم النحويون مثل بروفيات دوران وأبراهام دى بالم ؛ والمترجمون مثل إسحق بن بولكار ، الذى نقل مؤلفات الغزالي إلى العبرية ، ويعقوب مارتى الذى ترجم ابن سينا وابن رشد وابن ميمون ولبنى بن جرسون إلى اللاتينية . وأزعج إيليا لفيتا اليهود المتدينين بإقناعهم بشكل حاسم (١٥٣٨) بأن التوراة المزودة بالملاحظات وعلامات الحركة وإشارات الوقف (المازورة Masoretic) ، لم تكن أقدم من القرن الخامس الميلادى .

وتوضح ماحمسة آل أبرابانل Abrobanels تقلبات الفكر اليهودى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر : وقد ولد دون إسحق أبرابانل فى لشبونه ١٤٣٧ ، واستخدمه ألفونسو الخامس ملك البرتغال وزيراً للمالية . ولكنه جمع بين مشاغله الرسمية والدراسات الدينية والتاريخية ؛ وجعل من داره الرحبية صالوناً للعلماء ورجال العلم ورجال الأعمال . ولما توفى ألفونسو فقد أبرابانل الخطرة الملكية ، وهرب إلى أسبانيا

(١٤٨٤) ، وهناك تفرغ إلى كتابة تعليقات على ما دون عن تاريخ الكتاب المقدس ، حتى دعاه فرديناند الكاثوليكي ليتولى منصباً . وقضى إسحق ثمانى سنوات في تدبير الشؤون المالية في قشتالة . وكافح لدرء الكارثة التي حلت باليهود في سنة ١٤٩٢ ، فلما أخفق في ذلك ، انضم إليهم في خروجهم المحزن . وفي نابلي استخدمته الحكومة . ولكن الغزاة الفرنسيين (١٤٩٥) نهبوا داره ، ودمروا مكتبته الحافلة بنفائس الكتب المتقاة ، وأجبروه على الفرار إلى كورفو . وهناك كتب ، ما كان لا بد لأي يهودى أن يكتب في هذه السنوات : « إن زوجنى وأولادى وكتبي بعيدة عني ، ولقد تركت وحيداً غريباً في بلد غريب » (٧٩) . واتخذ طريقه إلى البندقية ، وهناك عين في منصب دبلوماسي (١٥٠٣) . وفي غمرة تقالبات الحظ هذه ، وجد فسحة من الوقت ليؤلف بعض أعمال فلسفية ولاهوتية ، ليس لها الآن قيمة تذكر . ولكنه وضع المبدأ الذي يقول بأن الأحداث والأفكار التي وردت في الكتب المقدسة يجب تفسيرها على ضوء الحياة الاجتماعية والسياسية في عصرها . وسمح له بأن يقضى السنوات الست الأخيرة من عمره في أمن وسلام غير مألوفين .

وكان أبنائه زينة لحياته . فتألق صمويل أبرابانل في سالونيك وعين وزيراً للمالية في نابلي ، وحظى بحب قومه لكثرة ما أتى من أعمال البر والخير . أما يهوذا ليون أبرابانل — ليو العبرى — فقد زها وسما قدره كطبيب في جنوه ونابلي حتى أصبح مشهوراً مثل شهرة « ليون مديجو » . ودرس علوماً كثيرة ، وكتب الشعر ، وغامر بدراسة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) : وعين في ١٥٠٥ طبيباً لجنزالو أمير قرطبة ، ولكن بعد ذلك بعامين اختلف « الكابتن الأعظم » مع فرديناند ، ولحق ليون بأبيه في البندقية . ولقى كتابه « حوار الحب » (كتب ١٥٠٢ ، ونشر في ١٥٣٥) جمهوراً كبيراً من القراء بين الإيطاليين في عصر النهضة ، الذين كان التحليل الفلسفي للحب عندهم

بمثابة مقدمة أولحن مصاحب لانتصارات الحب . إن الجمال الفكرى : جمال النظام والتخطيط والاتساق ، بسمو على الجمال المادى أو جمال الجسم ، هذا ما حاول « الحوار » أن يدلل عليه . إن أسمى الجمال هو النظام والتخطيط والاتساق فى الكون ، وهذا هو المظهر الخارجى للجمال الإلهى . وينشأ الحب على مراحل : من الإعجاب والسعى وراء الجمال المادى فالجمال الفكرى فالجمال الإلهى ، ويبلغ ذروته فى حب الله فكراً وعقلاً ، أى فهم النظام الكونى وتقديره حق قدره ، والرغبة فى الاتحاد مع الله ، وربما كانت مخطوطة هذا الكتاب معروفة لدى كاستيليانو الذى أجرى على لسان « بمبو Bembo » حديثاً يهدف إلى مثل هذه الغاية ، فى « البلاط Cortigiono » (١٥٢٨) أما الكتاب المطبوع فربما وجد سبيله عبر قرن من الزمان إلى يدى سبينوزا ليتأثر بفكرته عن « الحب العقلى لله » (٨٠) .

وفضّل يهود البرتغال المشتتون على هذا الحب السماوى ، الشعر المنشور المشبوب العاطفة باللغة البرتغالية ، فى قصيدة أوسك Usque : « عزاء لأحزان إسرائيل » (فبراير ١٥٥٣) . فقد صور تعاقب الانتصارات والكوارث على الشعب اليهودى ، وواساه بأنه لا يزال « شعب الله المختار » . فقد عاقبهم الله على آثامهم ، ولكن آلامهم طهرتهم ، ومهما أوتى الإنسان من قوة رهيبة وحشية ، فلن يستطيع أحد أن يخدعهم ويصرفهم عن مصيرهم الإلهى إلى السعادة والمجد .

وتراخى اليهود عن الإسهام فى حركة العلوم تراخياً لم يكن منه مناص ، بسبب الأحداث والتقلبات التى عاناها الشعب ، والتى طال أمدها . ولم يكن التعرض للخطر والفقر وعدم الاستقرار ، هى وحدها التى عوقت الجهود العلمية ، ولكن واحداً من أجل الأحرار وأعظمهم نفوذاً ، هو سليمان بن إبراهيم بن أدريت ، فى برشلونه ، كان فى بداية هذه الفترة ، قد حرم — تحت طائلة « الحرم ، أو الحرمان الدينى » — تدريس العلوم أو الفلسفة لأى

يهودى دون الخامسة والعشرين من العمر ، على أساس أن مثل هذا التعليم يفسد العقيدة الدينية . وعلى الرغم من ذلك نلخص لإسحق إسرائيلي الأصغر ، من طليطلة ، علم الفلك فى عصره (١٣٢٠) ، ووضح التقويم اليهودى . التسلسل الزمنى لتواريخ الأحداث . ووضع عمالويل بونفيس من تاراسكون ، جداول فلكية قيمة ، واستبقى التفاضل والتكامل الأسى والعشرى . كذلك فإن إبراهيم كرسكاس ، من ميورقه ، وهو « رئيس الخرائط والبوصلات لحكومة أراجون » ، وضع فى ١٣٧٧ خريطة للعالم ، اعترف فى جميع الأنحاء بأنها أحسن خريطة من نوعها حتى ذاك العهد ، إلى حد أن أراجون أرسلتها هدية ثمينة إلى شارل السادس ملك فرنسا ، وهى الآن من أثنى ما تفتنيه المكتبة الوطنية هناك . وكان يهوذا كرسكاس ، وهو ابن إبراهيم سالف الذكر ، أول مدير لمركز هنرى الملاح البحرى فى ساجر Sagres ، وساعد فى رسم خريطة لمكتشفاته . ومهد كتاب بلدرو نونز « رسالة عن الكرة الأرضية » الطريق أمام العالم الجغرافى مركيتور Mercator وفن رسم الخرائط الحديث . وحدد كتاب جراسيادى أورتا عن « العقابر الطبية » مرحلة متميزة فى علم النبات ، وأسس طب المناطق الحارة .

وكان أبراهام زاكوتو شخصية عظيمة فذة فى مجال العلم عند اليهود فى القرن الخامس عشر . وجمع عند ما كان يقوم بالتدريس فى سلمنقه (١٤٧٣ - ١٤٧٨) كتابه « التقويم الدائم » وقد استعملت جداوله الفلكية ، كدليل للملاحة فى رحلات فاسكو دا جاما وكابرال وألبوكيرك ثم فى رحلات كولمبس بعد ١٤٩٦ . وكان زاكوتو من بين اللاجئين من أسبانيا (١٤٩٢) ، ووجد ملجأ مؤقتاً فى البرتغال ، وقد استشاره البلاط فى الإعداد لرحلة فاسكو دا جاما إلى الهند ، وكانت السفن مزودة بالإسطرلاب الذى أدخل عليه هو تحسينات . ولكن فى سنة ١٤٩٧ لم يمهله الاضطهاد وقذف به خارج البرتغال كذلك ، وأخذ يضرب فى الأرض فقيراً معدماً لعدة سنوات حتى

انتهى به المطاف في تونس ، وهناك تعزى في أخريات حياته بكتابة تاريخ قومه . أما تلميذه يوسف فسنة Vecinho ، طبيب جون الثانى ملك البرتغال ، فقد أرسل ليرسم خطوط العرض وانحراف الشمس على ساحل غينيا . وأثبتت الخرائط التى أعدت أنها ذات قيمة كبيرة لفاسكو دا جاما . وكان فسنة عضواً فى اللجنة التى أحال إليها جون الثانى مقترحات كولمبس للبحث عن طريق من الغرب إلى جزر الهند (١٤٨٤) وشارك فى قرار الرفض (٨١) :

وظل الأطباء اليهود أفضل من يجد الناس فى البحث عنهم ويتمسون عندهم البرء فى كل أوربا . وعلى الرغم من لزعاجهم بالإدانات والاتهامات الدينية والقيود الرسمية والمخاطرة بحياتهم فى معالجة ذوى الشأن من المسيحيين ، كانوا ذوى حظوة لدى البابوات والملوك . ولم تكن إضافاتهم آنذاك إلى علم الطب بارزة ، باستثناء إضافات دى أورتا إلى طب المناطق الحارة ، ولكن أماتوس لوسيتانوس ضرب مثلاً لتقاليد مهنته وتقاليد قومه . وأخرجته محكمة التفتيش من البرتغال التى كان قد أخذ منها اسمه اللاتينى ، فعاش متنبلاً من أنتورب إلى فيرارا إلى رومه ، ثم استقر به المقام فى أنكونا (١٥٩٤) حيث كان كثيراً ما يستدعى لعلاج نفس البابا جولوس الثالث الذى ناضل من أجل تخطيم التلمود . وكان ، حتى آخر حياته ، يستطيع أن يسم أنه لم يكن يهتم قط بالمكافأة ولم يقبل قط أية هدية قيمة ، وأنه كان يخدم الفقراء بلا أجر ، وأنه لم يكن يفرق فى ممارسة مهنته بين مسيحي أو يهودى أو تركى ، وأن أية صعاب ، مثل بعد المكان أو عدم ملائمة الوقت ، لم تكن لتثنيه عن تلبية أى نداء . وكشفت سجلات عمله (١٥٦٣) عن سبعةائة حالة كان قد عالجها ، وكان الأطباء فى كل أوربا يدرسون هذه المذكرات ويقتنونها ، ودعا ملك بولندة أماتوس ليكون طبيباً خاصاً له ، ولكنه أثر أن يبقى فى أنكونا . ولكنه أرغم فى ١٥٥٦ على استئناف تجواله ، عند ما طالب بول الرابع كل يهود إيطاليا بالتحويل إلى المسيحية أو الإلقاء فى السجون .

وكان للقرار الذى أصدره الخبر ابن أدريت بتأجيل تدريس العلوم والفلسفة لليهود إلى سن الخامسة والعشرين ، أثر أقل على الفلسفة منه على العلم ، وفى فرنسا أقل منه فى أسبانيا . وكان أثر ابن ميجون لا يزال قوياً على اليهود الذين احتملوا على البقاء فى جنوب فرنسا وتجاسر يوسف كاسيه على كتابة رسائل فى المنطق وعلم الأخلاق لتوجيه ابنه ، ودافع عن التقليد الفلاسفى المتحرر الذى كان ابن ميمون قد عرضه لأول مرة فى مؤلفه « دلالة الحائرين » وقد أنجب هذا الضرب من التقليد المتحرر مفكراً يهودياً عظيماً هو لى بن جرسون Ben Gerson الذى يعرف عند المسيحيين باسم جرسونيدس ، الذى عاش ، كما عاش معظم الفلاسفة اليهود ، على « الطبابة » أى مهنة الطب ، وحقق المثل الأعلى الذى قصده أبقراط فى الطبيب الفيلسوف . ولد ابن جرسون فى باجنول ١٢٨٨ ، فى أسرة من العلماء ، وعاش معظم سنى حياته فى أراجون وبرينان وأفنيون ، وانصرف إلى عمله آمناً مطمئناً فى ظل حماية البابوات ، ولا يكاد يوجد علم من العلوم لم يعالجه أو مسألة فلسفية لم يعرض لها . وكان على علم واسع بالتلمود ، وأسهم فى رياضيات الموسيقى ، ونظم الشعر .

وكان ابن جرسون من علماء عصره اللامعين فى الرياضيات والفلك ، وفى ١٣٢١ استتب الطريقة التى اتبعها فيما بعد موروليكو (١٥٧٥) وباسكال (١٦٥٤) فى إيجاد عدد التباديل الهسيطة لعدد من الأشياء بالاستنتاج الرياضى ، ومهدت رسالته فى حساب « المثلثات » الطريق أمام رجيومونتanos ، ولقيت تقديراً واسعاً إلى حد أن البابا كليمنت السادس أصدر تكليفاً بترجمتها إلى اللاتينية ، مثل Chordis ، de Sinibus و Arcubus (١٣٤٢) . وقد اخترع ، أو فى الواقع أدخل تحسيناً على العصا التصالية لقياس ارتفاع النجوم ، وبقي هذا طوال قرنين من الزمان نعمة كبرى للملاحة ، وقد أجرى ملاحظاته الفلكية الخاصة به ، وأظهر

مقدرة كبيرة في نقده لطريقة بطليموس : وببحث ، ولكنه رفض ،
الفرضية القائلة بأن الشمس هي مركز الكون بطريقة توحى بأن قلة قليلة من
الناس كانت تشابهه في عصره . وهذب آلة التصوير القائمة واستخدمها
مع العصا التصالبية ليحدد ، بشكل أدق ، الاختلافات في القطر الظاهر
للشمس والقمر .

وكما أن علوم بن جرسون نبتت عن الرياضيين والفلكيين العرب ،
كذلك كانت فلسفته مبنية على دراسة نقدية دقيقة للتعليقات التي وضعها
ابن رشد في شروحه لفلسفة أرسطو . ودون لبني فيما بين عامي ١٣١٩ —
١٣٢١ تعليقاته هو نفسه على تعليقات ابن رشد ، استوعب فيها رسائل
أرسطو في المنطق والفيزياء والفلك والأرصاء الجوية وعلم النبات وعلم
الحيوان وعلم النفس والميتافيزيقا ، وأضاف إلى هذه الدراسات بطبيعة
الحال قراءاته العديدة المتكررة لابن ميمون . وجمعت فلسفته ومعظم
دراساته في العلوم في مؤلف بالعبرية وضع عنوانه بأسلوب عصره « معارك
الله » Battles of the Lord (١٣١٧ — ١٣٢٩) ، وهو يأتي في المحل
الثاني بعد كتاب ابن ميمون « دلالة الحائرين » في الفلسفة اليهودية في
العصور الوسطى ، ويتابع محاولة ابن ميمون في التوفيق بين الفكر اليوناني
والعقيدة اليهودية . فإذا تدبرنا الجهود المشابهة التي قام بها ابن رشد وتوماس
الأكويني للتوفيق بين الإسلام والمسيحية وبين أرسطو ، لكنا نقول بأن
أثر أرسطو على لاهوتيات العصور الوسطى كان فاتحة انحلالها ونفسخها ،
وبداية الانتقال من عصر الإيمان إلى عصر العقل . وسعى جرسونيدس إلى
التخفيف من امتعاض المتدينين بالإعلان عن استعداده للتخلي عن أفكاره
وآرائه إذا ثبت أنها مناقضة للكتاب المقدس — وتلك حيلة أو مراوغة يلجأ
إليها العلماء . على أنه استخدم العقل إلى مدى بعيد ، في أبحاثه عن الله
والكون وأبدية العالم وخلود النفس ، ولما تعارضت نتائجه مع الكتاب

المقدس ، فسره بعنف أدى بنقاده إلى تغيير اسم مؤلفه إلى « معارك ضد الله » (٨٢) . وقال ليفى إنه يجدر بنا ألا نأخذ بالمعنى الحرفي قصصاً مثل قصة يوشع الذى أوقف الشمس ، فهذه القصة وأشباهاها من « المعجزات » ، ربما كانت أحداثاً طبيعية نسيت أو لم تعرف أسبابها (٨٣) . وأخيراً أفصح عن مذهبه العقلانى دون قناع ، « إن التوراة لا يمكن أن تمنعنا من أن نعتبر حقاً ما يلح علينا عتلنا فى الإيمان به » (٨٤) :

واشتق جرسونيدس وجود الله مما قد يسميه هولباخ الملحد « نظام الطبيعة » فإن قانون الكون ونظامه يكشفان عن « عقل كوفى » ، ويضيف هو إلى هذا ، الحجة الغائية : وهى أن معظم الأشياء فى الطبيعة الحية تبدو مخصصة كوسيلة إلى غاية . وتزود العناية الإلهية كل كائن حى بوسائل حماية الذات والتطور والتكاثر . والعالم بوصفه كوناً أو نظاماً ، خلق فى الوقت المناسب ، ولكن ليس من العدم . فقد سبق أن وجدت منذ الأزل كتلة جامدة هاملة لا شكل لها ، وزودها الكون بالحياة وبالشكل . وهناك بين الله وبين الأشكال المخلوقة قوة وسيطة سماها جرسونيدس ، وهو فى هذا يخلو حذو أرسطو ، « عقلاً نشيطاً أو خلاقاً » . ويوجه انتقاد الذكاء الإلهى كل الأشياء ، ويصبح النفس التى يحملها الإنسان بين جنبيه : ولما كانت النفس تعتمد على أحاسيس الإنسان فهى فانية : وبما أنها أى النفس ، تفهم الكليات وتعنى نظام العالم ووحدته فلأنها تصبح قصداً جزءاً من « العقل » النشط الذى هو خالده :

ورفض اليهود فلسفة جرسونيدس على أساس أنها فى جوهرها شكل من فلسفة ابن رشد ، عقلانية قد تودى فى النهاية بالعقيدة الدينية . ودرس المفكرون المسيحيون فلسفته ، وتأثر بها اسبينوزا : ولكن قاوب المفكرين اليهود وعقولهم ، عبر عنها فى إخلاص أكبر ، حسداى بن إبراهيم كرسكاس

الذى كان قد تغذى بلبلان « المحافظة » عند سليمان بن أدريت ، وقد ولد كرسكاس ١٣٤٠ في برشلونه ، وعاش في فترة اتسمت بالعداء الشديد للسامية ، وقبض عليه بتهمة تدنيس القربان ، وما لبث أن أطلق سراحه ، ولكن ابنه قتل ، وهو على وشك الزواج في مذابح ١٣٩١ . وقوى الاضطهاد من عقيدة حسداى ، لأنه بفضل الإيمان بإله عادل وسماء تعوض عن كل أذى وشر ، استطاع أن يحتمل حياة ممثلة بالجور والآلام . وبعد انقضاء سبع سنوات على استشهاد ابنه ، نشر بالأسبانية رسالة حاول فيها أن يفسر للمسيحيين لماذا ينبغي ألا يطلب إلى يهودى أن يقبل المسيحية . وحاول في كياسة واعتدال أن يدلل على أن مبادئ المسيحية في الخطيئة والنثليث والحبل بلا دنس والتجسد والكفارة وتحول دم القربان إلى دم المسيح ولحمه ، تنطوى على تناقضات لا يمكن تجاوزها واستحالات سخيفة مضحكة . ومع ذلك فلأنه حين كتب مؤله العظيم « نور الرب » (١٤١٠) اتخذ فيه موقفاً كان يمكن أن يدافع المسيحيون من خلاله عن هذه النظريات : ذلك أنه أنكر العقل وألح في إخضاعه للإيمان . ولم يكن حسداى جبراً رسمياً ولكنه شارك الأبحار رأيهم بأن الاضطهادات المتكررة كانت عقاباً إلهياً لتعريض الديانة التي جاءت عن طريق الوحي لخاخة عقلانية . وإذا كان قد كتب في الفلسفة ، فلم يكن ذلك إعجاباً منه بها ، بل لإثبات ضعف الفلسفة والعقل ، وتوكيد الحاجة إلى الإيمان والعقيدة . وأنكر محاولات ابن ميمون وجرسون في التوفيق بين اليهودية وأرسطو ، وتساءل : من هو ذلك الإغريقى الذى كان على الرب أن يتفق معه ؟ واعترض على فكرة أرسطو بأن أسمى صفات الله هي المعرفة ، بل هي الحب على الأرجح ، لأن الله هو الخير المطلق . وسلم كرسكاس بأن العقل لا يستطيع أن يوفق بين سابق علم الله وحرية الإنسان ، ومن ثم يجب ألا نرفض الحرية

بل نرفض العقل ؛ ويلبغى أن نؤمن بالله ، وبالإرادة الحرة والخلود ، من أجل طمأنينة نفوسنا وهدوء بالنا وسلامة مغرياتنا ، وليس هنا من حاجة إلى الادعاء بإثبات هذه المعتقدات عن طريق العقل . ويجب أن نختار بين عقلنا الفخور الضعيف الذى يزعم الإيمان ريوثر اليأس ، وبين إيماننا المتواضع بكلمة الله : التى يمكن عن طريقها وحدها أن نحتمل ألوان المهانة والظلم فى الحياة .

وكان كرسكاس آخر هذه الصفوة اللامعة من فلاسفة اليهود فى العصور الوسطى ، ولم يقدره قومه حق قدره بين عشية أو ضحاها ، لأن تلميذه يوسف أبو لفت أنظار قراء الفلسفة بكتابته الأكثر إمتاعاً « المبادئ الأساسية » ، الذى جمع بين ابن ميمون وكرسكاس عن طريق الانتقاء ، مما جعله أكثر انسجاماً من أى من الرجلين ، مع اليهودية الصحيحة التى لم تكن مستعدة للتسليم بعدم عقلانية الإيمان ؛ وبعد موت أبو اعتزل اليهود الفلسفة ، والتاريخ تقريباً ، حتى جاء سبينوزا . إن المذابح ، والاضطرابات ، والفقر المدقع ، وقيود الإقامة والمناصب ، كانت قد حطمت روحهم وأنقصت عددهم إلى أدنى مستوى منذ سقوط أورشليم سنة ٧٠م (٨٥) . ووجد الشعب المحقر المنبوذ له ملجأ فى الأغاني الحزينة ، وفى رفاق المعبد الموسيقين ، براودهم الأمل فى مغفرة من عند الله ، وفى معذرة من أهل الأرض ، وفى اللجنة التى فى السماء . وعكف العلماء بكليتهم على التلمود ، وحصروا تفكيرهم فى شرح قانون الخلاص ، على حين اتبع بعضهم تعاليم « القبالة » فانصرفوا إلى التصوف الذى سما بالبؤس إلى

حد التوهم بأنهم يرقون به إلى السماء . وأحجم الشعر اليهودى
عن الغناء ، ورفعت أثارة منه رأسها بين الحين والحين تتحدى
العاصفة ، أو تلتطف من سخرية القدر ، بالمرح الموسوم بالمرارة
واللهفة والذكاء المشوب بالالتواء . وما كان لليهود أن يصحوا من
سباتهم الطويل الناجع ، ويستعيدوا مكانهم فى ذهن عالم لا يحسده
زمان ، ولا مكان فيه للعنصرية ، حتى جسر يهودى أمستردام
المتواضع أن يوحد بين اليهودية والسكولاسقية (الفلسفة المدرسية)
والديكارتية فى إدماج رفيع سام للدين والعلم :

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

١ - الاقتصاد

إن مسرحية الصراع الديني والسياسي والحربي الذي ملأ جبهة القرن السادس عشر ، كانت من بعض النواحي سطحية : ذلك أنها لم تظهر إلا انطلاقاً من مسرحية أعمق ، مثلت خاف مشاهد التاريخ أو نحت المسرح الفخيم — أعنى معركة الإنسان اليومية الأبدية مع التربة والعناصر (الماء والهواء والتراب والنار) والفقر والموت . وماذا كانت ، فوق كل شيء هبات ومراسيم البابوات والبروتستانت ، والسخافات المتزاخمة في الأساطير القتالة ، وزهو الملوك والأباطرة وتعاقبهم ، وما كان ينتابهم من أمراض مثل النقرس والزهرى ، إذا قورن كل أولئك بالكفاح المرير من أجل الغذاء والمأوى والكساء والصحة والزوجة والولد والحياة ؟

إن قرى أوروبا في تلك الحقبة ، كان لا بد لها ليلاً ونهاراً أن تحذر وتحترس من الذئاب والخنازير البرية ، أو أى خطر آخر يتهدد قطعانهم

ومساكنهم . لقد عُمِّرت مرحلة الصيد داخل عصر الزراعة ، وكان لزاماً على الإنسان أن يقتل أو يُقتل ، ويسرت أسلحة الدفاع طريقة (روتين) الكدح والعمل . وكانت آلاف الحشرات ووحوش الغابة وطيور السماء تنافس الفلاح في ثمار غرسه وكده ونصيبه ، والأمراض الخفية تهلك القسم الأكبر من ماشيته . وربما أصبحت الأمطار سيولا جارفة أو فيضانات غامرة ، وربما انقطعت حتى تذبل الحياة كلها . وكان الجوع دائماً يتربص بالناس ، ولم يفارق الخوف من الحريق مخيلتهم قط . وكثيراً ما انتابهم الأمراض ، والأطباء على مسافات بعيدة منهم : وفي كل عشر سنين تقريباً ربما اختطف الطاعون من الأسرة فرداً عزيزاً عليها أو له قيمته عند تعرض الأرض للخطر . وكان يموت في سن الطفولة طفلان من بين كل خمسة أطفال ، ويموت ثالث قبل البلوغ (١) ، ومرة واحدة على الأقل في كل جيل كان ضابط التجنيد يأخذ أحد الأبناء للجيش ، وكانت الجيوش تحرق القرى وتنهب الحقول ، وكان عشر المحصول بعد الحصاد يذهب إلى مالك الأرض ، وعشر ثان إلى الكنيسة . وكانت الحياة على الأرض تصبح جميعاً لا يحتملها الجسم أو الروح ، لولا أن شيئاً من السعادة يتخلل ابتهاج الأطفال وألعاب المساء في البيت ، وإطلاق الأغاني ولعب الخمر بالرءوس في الحانات ، والأمل نصف المصدق ونصف المشكوك فيه حياة أخرى أكثر رحمة وشفقة . هكذا كان إنتاج الغذاء الذي أطعم البارونات في الحصون والملوك في قصورهم والكهنة في محاريبهم ، والتجار والصناع في المدن ، والأطباء والمعلمين والفنانين والشعراء ورجال العلم والفلاسفة ، وأخيراً ، وأقلهم شأنًا ، رقيق الأرض أنفسهم . فالمدنية عالة على الإنسان الذي يحمل آلة العزق .

وكان علم الزراعة من خصائص هذا الزمان . ونشأ تقسيم الإنتاجية أساساً من استبدال الملكية الكبيرة بالملكية الصغيرة . وأدخل مالكو الأرض

الجلدد من التجار والرأسماليين إلى اليقاع الريفية الراكدة لهفة شديدة على الربح الذى زاد الإنتاج والذؤس كليهما معاً ، وأدخل المستوردون المغامرون إلى أوربا مخصباً أو سماداً جديداً غنياً بالنفوسفات والنروجين - وهو روث الطيور الذى يجمع على شواطئ بيرو . وتأقلمت فى تربة أوربا نباتات وشجيرات من آسيا أو أمريكا ، مثل البطاطس وشجرة المغنولية (نبات جميل الزهر) ، والأغاف الأمريكى ، والفلفل والدهلية (زهر جميل) ، والكبوسين (أبو خنجر) . . . وأحضر التبغ من المكسيك إلى أسبانيا ١٥٥٨ . وبعد ذلك بسنة واحدة أرسل جان نيكوت السفير الفرنسى فى لشبونة بعض بذوره إلى كاترين دى مديتشى ، وقد جرى التاريخ هذا السفير خير الجزاء فأطلق اسمه على أحد السموم .

ونمت صناعة صيد السمك بازدياد السكان ، ولكن الإصلاح الدينى سدد ضربة قاضية إلى تجار السردين بإباحة اللحوم يوم الجمعة ، وتقدم التعدين بالتنظيم الرأسمالى . وكانت نيوكاسل تصدر الفحم فى ١٥٤٩ ، وضاعف أصحاب المناجم إنتاجها بحث العمال على بذل جهود أعظم وأكثر نظاماً ، وتحسين وسائل تنقية المعدن الخام . وفى هذه السطور ينقلنا جورج أجريكولا إلى منجم فى القرن السادس عشر :

إن أهم أنواع العمال هم المعدنون ، الجرافون ، الرافعون ، الحمالون ، الفرازون ، الغسالون ، الصاهرون . . . وكانت ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ، تنقسم إلى ثلاث نوبات كل منها سبع ساعات ، والساعات الثلاث الباقية تتوسط النوبات ، ليدخل العمال فى أثنائها إلى المنجم أو يغادروه . وتبدأ النوبة الأولى الساعة الرابعة صباحاً ، وتنتهى فى الحادية عشرة . وتبدأ الثانية فى الساعة الثانية عشرة وتنتهى فى السابعة مساء . وهاتان نوبتان نهاريتان فى الصباح وبعد الظهر . أما الثالثة ، وهى النوبة الليلية ، فتبدأ فى

الثامنة مساء وتنتهى فى الثالثة صباحاً . ولا تفرض هذه النوبة الثالثة على العمال إلا إذا دعت الضرورة إليها : وفى هذه الحالة . . كانوا يسهرون على ضوء المصابيح اليلية ، وحتى لا يغلبهم النعاس فى هذه الساعات المتأخرة ، أو لشدة التعب ، كانوا يخففون من وطأة هذا العمل الطويل الشاق بالغناء الذى كانوا مدربين عليه ، أو لم يكن غير سار لهم كلية . ولم يكن يباح فى بعض المناجم لأى من العمال العمل نوبتين متعاقبتين ، لأنه كان كثيراً ما يغلب عليه النعاس فى المنجم من شدة الإجهاد من كثرة العمل إلى حد مفراطه . وكان يباح ذلك فى أماكن أخرى لأن العامل لا يستطيع العيش على أجر نوبة واحدة ، وخاصة إذا ارتفع ثمن الحاجيات .

ولا يشتغل العمال أيام السبت ، لأنهم يتعاون فيها كل ما يلزمهم من ضرورات الحياة ، كذلك لا يعملون أيام الآحاد والأعياد السنوية . ولكنهم فى هذه المناسبات يخصصون ساعات النوبة للأغراض الدينية . ومهما يكن من أمر فإن العمال لا يستريحون : : : إذا اقتضت الظروف أن يعملوا ، فقد يجبرهم عليه أحياناً اندفاع الماء أو انهيار وشيك الوقوع . وفى مثل هذه الحالات لا يعتبر العمل فى أيام العطلة أمراً لا يتفق مع الدين : وفوق ذلك ، فإن العمال من هذه الفئة أقوياء أشداء ألفوا هذا الكدح والمشقة منذ ولادتهم (٢) .

وفى ١٥٢٧ عين جوج أجرينيكولا طبيباً لمدينة جوتشمستال Goochimsthal .

وفى مدينة التعدين انصرف جورج بين الحين والحين إلى التعدين ، وهناك ، وفى أماكن أخرى تحمس جورج وافقت بدراسة تاريخ التعدين وعملياته وعلم المعادن ، وعكف على البحث عشرين عاماً ، أكل بعدها (١٥٥٠) « رسالته عن المعادن » وهى رسالة ممتازة فى موضوعها بالنسبة لعصرها ، لها من القيمة

مثل ما لروائع كوبرنيكس وفيساليوس التي ظهرت في نفس العقدين من
السنين ، ولقد وصف في تفصيل دقيق آلات التعدين والصهر وتقنياتها
وعملياتها ، واستخدم الفنانين في توضيحها بالرسوم . وهو أول من جزم
بأن البرموت ولأنثيمون معدنان أوليان حقيقيان ، وميز نحو عشرين صنفاً
من المعادن لم تكن معروفة من قبل . وكان أول من شرح تركيب عروق
الحام في طبقات الصخور من رواسب مغدنية خلفتها مجارى المياه التي تنساب
في الأرض وتحت الأرض (٣٧) .

وحظي التعدين وعلم المعادن والمنسوجات بأكبر نصيب من التحسينات
الآلية (الميكانيكية) التي ينسب الفضل فيها لهذا العصر . وإن أول سكك
حديدية لى تلك التي كانت تجر أو تدفع عابها العربات التي تحمل الحام .
وفي عام ١٥٣٣ أضاف جوهان جورحن إلى عجلة الغزل — التي كانت تدار
حتى ذلك العهد باليد — ذراعاً (دواسة) تدار بواسطة القدم ، ومن ثم
تكون يد الغزال طليقة ، وسرعان ما ضوعف الإنتاج بهذه الطريقة : وازداد
الوثوق بدقة الساعات وصغر حجمها ، وزيلت بالحفر والنقش والجواهر
وطليت بالمينا . واقتنى هنرى الثامن ساعة دقيقة الحجم ، تملأ مرة واحدة
كل أسبوع . على أن أحسن ساعات العصر كان معدل الخطأ فيها نحو ١٥ دقيقة
في كل يوم (٣٨) .

وتعثرت المواصلات والنقل خلف التجارة والصناعة . وتوسعت الخدمات
البريدية إلى حد نقل المراسلات الخاصة خلال القرن السادس عشر ، وحث
الانقلاب التجارى على بناء السفن وصارت السفن أرفع وأعمق ، فساعد

(*) نيل أجريكولا « عصا الاستنباء » أو النصن المشعب » (وهي التي كانت غالباً
ما تستعمل آنذاك للتعرف على وجود المعادن تحت الأرض) باعتبارها غير ذات نفع .
ولكن عدادات جييجر تميل إلى تقدير هذه المعنى المشجعة .

ذلك على ثباتها وازدياد سرعتها . وزاد عدد الصواري من واحد إلى ثلاثة ، والأشعة إلى خمسة أو ستة (٥) . ولم يقتصر السباق بين فرانسوا الأول وهنري الثامن ، على الحرب والحب واللباس ، بل تعداه إلى ابتغاء السفن ، وكان لكل منهما مركب فخم بنى بناء على طلبه لإشباع نزواته ، به دور علوى ، يرفرف عليه في زهو واعتزاز علم البطولة الذى أرضى غرور كل منهما . وكانت سفينة أوائل القرن السادس عشر تستطيع أن تقطع في البحر المتوسط عشرة أميال في الساعة في الطقس المعتدل ، ولكن السفن الثقيلة المصممة للمحيط الأطلسي كانت أسعد حظاً ، حيث كانت تقطع ١٢٥ ميلاً في اليوم . وكانت أسرع رحلة برية هي رحلة حامل البريد ، الذى كان يركب لمسافة خمسة وثمانين ميلاً في اليوم . ومع ذلك فإن الأنباء الهامة كانت عادة تصل من البندقية إلى باريس أو مدريد في عشرة أيام أو أحد عشر يوماً . ولعل أحداً لم يقدر آنذاك أية راحة ينعم بها نتيجة لوصول الأنباء متأخرة إلى حد يتعذر معه اتخاذ أى إجراء بشأنها . وكان معظم السفر يالبر على ظهور الخيل ، ومن هنا جاءت الحلقة الحديدية الثقيلة المثبتة في باب مدخل كل بيت ، يشد إليها حبل تقيد به الدابة . وقصاعف عدد العربات ، ولكن الطرق بلغت من الرخاوة حداً لا يصلح كثيراً لمرور العجلات ، ومن ثم كان لازماً تزويد العربات بستة من الجياد أو أكثر لتجرها في الأوحال التى يتعذر تفاديها ، وما كان يتوقع من العربات أن تقطع أكثر من عشرين ميلاً في اليوم ، وظلت المحفلات التى يحملها الخدم تستعملها السيدات ذوات اليسار فى تنقلهن ، أما عامة الشعب فكانوا يسرون على الأقدام عبر القارة .

وكان السفر مأوفاً رغم الطرق والحالات ، وذبح إرزم إلى أن خانات فرنسا كانت مقبولة محتملة ، وعلى الأخص لأن النادلات الصغيرات « يقهقهن ويقمن بحيل وألعاب مرحة ، وإذا غادرت المكان كن يحمينك بالعناق » ،

« كل ذلك مقابل أجر زهيد » ولكنه رعى أصحاب الحالات الألمان بالفظاظة
وغلظة الطباع والبطء والقذارة :

إذا فرغت من تدبير أمر جوادك تدخل إلى غرفة المدفأة ، بالحذاء
العالي الساقين ، والأمتعة والأحوال وغيرها ، لأن هذه حجرة
عامة لجميع القادمين . وفي غرفة المدفأة تخلع حذاءك ، وتلبس
نعليك وتبدل قميصك إذا شئت : وهناك ترى رجلاً يمشط رأسه
وآخر : . . يتجشأ الثوم . . . ولأنك لتسمع من فوضى اللغات
واللهجات كما لو كنت في مبنى برج بابل : . . وفي رأي أنه ليس
ثمة شيء أخطر من التنفس في مثل هذا الجو الخائق ، وخاصة
إذا كانت أجسام الناس مفتحة بفعل الحرارة . . . وثمة شيء
لا أرى ذكره . . . ثم النساء والأنفاس الكريهة الممتدة . . .
ولا ريب أن كثيرين مصابون بالجدري أو الزهري الأسباني ،
أو كما يسمونه الفرنسي : ولو أنها أمراض منتشرة في كل بلد (٦) .

إذا جرت الأمور على هذا النحو ، حقاً ، في بعض الحالات ، فيمكن
أن نغتفر خطأ أو اثنين للتجار المتجولين الذين يحيطون رحالهم في هذه الحالات
ويحتملون متاعبها في عملية ربط القرية بالقرية ، والأمة بالأمة ، في نسيج
اقتصادي دائم الاتساع والانتشار . فقد فتح في كل عقد من السنين طريق
جديد ، برأ كما فعل تشانسلر في روسيا ، وبحراً كما تم في آلاف الرحلات
البحرية المغامرة . وقد أبحر (شيلوك شكسبير) أي اليهود مع إنجلترا ولشبونة
وطرابلس ومصر والهند والمكسيك (٧) . وكان لجنوة مستعمرات تجارية في
البحر الأسود وأرمينية وسورية وفلسطين وأسبانيا : فلقد عقدت الصلح مع
الباب العالي ، وباعت الأسلحة إلى تركيا التي كانت في حرب ضد العالم
المسيحي : والتقطت فرنسا هذه الفكرة ، وعقدت اتفاقات خاصة بها مع

سلاطين تركيا . وبعد ١٥٦٠ سيطرت على تجارة البحر المتوسط ، وكانت أنتورب تتلقى البضائع في كل لحظة ، وتنقلها بالسفن إلى كل مكان في العالم .

ولمواجهة متطلبات هذا الاقتصاد المتوسع ، حسن رجال المصارف من خدماتهم وأساليبهم . ولما ارتفعت نفقات الحرب بالانتقال من فرق الإقطاع المجنّدة الذين أحضروا معهم أقواسهم وسهامهم ورماحهم وسيوفهم ، إلى جيوش وطنية أو جنود مرتزقة مزودين بالأسلحة النارية والمدافع ، وتدفع الدولة رواتبهم وأجورهم - اقترضت الحكومات مبالغ لم يسبق لها مثيل من أصحاب المصارف . وكانت الفائدة التي تدفعها الحكومات أو تعجز عن دفعها ، تقيم مؤسسة مالية ، أو تقوض أركان أخرى . وكان أصحاب المصارف يقترضون مدخرات الشعب نظير فائدة ، ليمولوا بها الصفقات الضخمة في التجارة والصناعة . وكانت صكوك التبادل تحمل محل الشحنات الثقيلة المرحقة من العملة المتداولة أو البضائع . واختلفت معدلات فوائد القروض ولم يكن هذا الاختلاف نتيجة لجشع المقرضين ، بقدر ما هو نتيجة للثقة في المقرضين . ومن ثم كانت المدن الحرة الألمانية التي سيطر عليها تجار يتميزون بالدفع الفوري العاجل ، تستطيع أن تقترض بفائدة قدرها ٥٪ ، على حين أن فرنسوا الأول اقترض بفائدة قدرها ١٠٪ ، وشارل الخامس بفائدة قدرها ٢٠٪ . وانخفض سعر الفائدة تبعاً للاستقرار الاقتصادي :

وسكبت مقادير وفيرة من العملة السائلة من معدني الذهب والفضة اللذين استخرجتا من مناجم ألمانيا والمجر وأسبانيا والمكسيك وبيرو ، وجاء المدد الجديد من المعادن النفيسة في الوقت المناسب ، لأن البضائع كانت قد تزايدت أسرع مما تزايدت العملة . وكان جزء من ثمن واردات آسيا يدفع في صورة صادرات ، والجزء الباقي نقداً من الذهب أو الفضة ، ومن ثم هبطت

الأسعار في غضون السنين التي سبقت قيام كولمبس برحلاته ، إلى حد تعويق المغامرات والتجارة : وبعد تطوير المناجم في أوروبا واستيراد الذهب والفضة من أفريقية وأمريكا ، فاقت كميات المعادن النفيسة لإنتاج السلع ، فارتفعت الأسعار ، وانتعشت الأعمال وابتهج أصحابها ، وزحزح الاقتصاد بالحديد القائم على النقود المتحركة الاقتصاد القديم الذي تركز في امتلاك الأرض أو سيطرة النقابات على الصناعة ، واحتل مكانه .

وكانت النقابات في دور الانحلال : وكانت قد نشأت وقويت في عهد تحكم المجلس البلدية وحماية الإنتاج المحلي ، ولم تكن على درجة من التنظيم تسمح لها بتقديم رأس المال . أو بالشراء بالحماية من الموارد النائية ، أو باستخدام أساليب المصانع وتقسيم العمل ، أو الوصول بمنتجاتها إلى الأسواق البعيدة . وكانت منذ القرن الثالث عشر وما بعده قد ضربت حولها نطاقاً من العزلة الأرستقراطية وسوأّت ظروف العمل ، حتى باتت من اليسير سوق العمال المهرة إلى أحضان رب العمل صاحب رأس المال ، وكان عامل الربح هو الذي يحركه ويزوده بالحياة والنشاط ، ولكنه عرف كيف يجمع المخرجات إلى رأس المال ، وكيف ومن أين يشتري الآلات والمواد الخام ويدير المناجم ، ويؤسس المصانع ، ويجند لها العمال ، ويقسم العمل ، ويخصص العمال لكل فرع منه ، ويفتح الأسواق الأجنبية ويصل إليها ، ويمول الانتخابات ويسيطر على الحكومات . وكانت الإمدادات الجديدة من الذهب والفضة تدعو بصوت عال إلى استثمارات تدري الربح الوفير : وبات الذهب الأمريكي رأس مال أوروبا . وخلقت الرأسمالية « سحر المنافسة » ، وحفزت إلى المغامرة ، وأنتجت السعي المحموم وراء المزيد من الطرق الاقتصادية للإنتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة مفر من أن تخلف وراءها القناعة الذاتية التي اتسم بها رجال النقابات . وتمركهم يتهادون في أساليبهم النمطية الرئيسية القديمة : ولقد فاق النظام

الجديد في إنتاجه النظام القديم كما لا كيفاً ، لأن التجار كانوا ينادون بإنتاج كميات كبيرة ليسددوا بصادراتهم الصناعية ثمن الواردات من الشرق .

وكانت الثروة الجديدة محصورة إلى حد كبير ، في أيدي التجار وأصحاب رؤوس الأموال وأصحاب المصانع ، وحلفائهم في الحكومة ، وظل بعض النبلاء يجمعون الثروة عن طريق الضياع الواسعة التي يستأجرها مئات المستأجرين ، أو الحظائر التي تمد صناعة النسيج بالصوف . على أن الغالبية من ملاك الأرض الأرستقراطيين وجدوا أنفسهم محصورين بين شقي الرحى : المملوك من جهة ، والمدن التي سيطر عليها رجال الأعمال من جهة أخرى ، وانحطت قوتهم السياسية : وكان عليهم أن يقنعوا بكرم المحتد وشرف الأرومة . وشاركت الطبقة الكادحة النبلاء مصائب التضخم ، فمن سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ ارتفع ثمن القمح الذي صنع منه الفقراء رغيف الخبز إلى ١٥٠ ٪ في إنجلترا ، و ٢٠٠ ٪ في فرنسا ٣٠٠ ٪ في ألمانيا : وفي سنة ١٣٠٠ كان سعر البيض في إنجلترا ٤ بلسات لكل ١٢٠ بيضة ، وارتفع ثمن المقدار نفسه إلى ٥ بلسات في سنة ١٤٠٠ ، وإلى ٧ بلسات في سنة ١٥٠٠ ، وإلى ٤٢ بلسا في سنة ١٥٧٠ (٨) . وارتفعت الأجور ، ولكن في ببطء أكثر ، لأن الحكومات كانت تتولى تنظيمها . وحدد قانون ١٥٦٣ في إنجلترا الأجر السنوي للفلاح المستأجر بمبلغ قدره ١٢ دولاراً ، ولعامل المزرعة ٩٥٠ ، وللخادم الرجل ٧٢٥ ، علماً بأن القوة الشرائية لهذه المبالغ في سنة ١٥٦٣ تفوق مثيلاتها في ١٩٥٤ خمساً وعشرين مرة ، فوصلت الأجور إلى نحو ١٨٠ دولاراً سنوياً . على أننا يجب أن نلاحظ أن الطعام والإقامة كانتا تضافان إلى هذه الأجور ، وبجملة القول أن التغييرات الاقتصادية في القرن السادس عشر تركت الطبقات العاملة أفقر نسبياً

وأضعف سياسياً ، من ذى قبل . فقد أنتج العمال السلع التي كانت تصدر ثمناً للكاليات المستوردة التي جعلت حياة نفر قابل من الناس مشرقة باسمه ناعمة .

واتسم الصراع بين الطبقات بمرارة ، قل أن عرف لها مثيل منذ عهد سبارتاكوس . (زعيم ثورة العبيد ٧١ ق . م .) وخير شاهد على ذلك ثورة الأهالي في أسبانيا ، وحرب الفلاحين في ألمانيا ، وثمة Ket في إنجلترا . وكثرت الإضرابات ، ولكنها كانت تخمد بائتلاف أرباب العمل مع الحكومة . وفي ١٥٥٨ قررت نقابة عمال النسيج أنه كان يسيطر عليها السادة أن أى عامل يرفض العمل بمقتضى الشروط التي يضعها رب العمل يسجن لأول مخالفة ، ثم يضرب بالسياط ويوصم بالعار في الثانية . وكانت قوانين التشرد في عهد هنرى الثامن وإدوارد السادس من القسوة والوحشية إلى حد أن قلة قليلة من العمال تجاسروا على أن يوجدوا متعطلين بلا عمل . ونص قانون ١٥٤٧ على أن أى عامل قادر من الناحية الجسمانية يترك عمله ليتسكع في البلاد كالمتشردين ، يجب أن يدمغ صدره بحرف "V" (الحرف الأول من Vagabond متشرد) ، ويدفع به بوصفه عبداً رقيقاً إلى أحد المواطنين في الجهات المجاورة ، لمدة عامين ، ليعيش على « الخبز والماء وقليل من الشراب وحمالة اللحم » ، فإذا لم يرتدع وتكرر منه التشرد ، دمع على خده أو جبهته بحرف "S" (Slave عبد) وحكم عليه بالاسترقاق طيلة حياته^(١) . وبفضل الشعب الإنجليزي ، وكان فخراً وشرفاً له ، أنه لم يمكن تطبيق هذه الإجراءات وسرعان ما أبطلت ، ولكنها تكشف عن طباع حكومات القرن السادس عشر ه وأصدر جورج دوق سكسونيا قراراً بالآلا ترفع أجور عمال المناجم في منطقته ، وألا يسمح لعمال يترك عمله للبحث عن عمل في مكان آخر ، وألا يستخدم رب العمل عاملاً كان قد أثار الاستياء في منجم

آخر ، وأجاز القانون صراحة أو ضمننا تشغيل الأطفال : وقام الأطفال في فلاندرز بصناعة الخمرات برمتها ، وحرّم القانون اشتغال البنات فوق سن الثانية عشرة في هذه المهنة^(١٠) . أما قوانين الاحتكارات والمضاربات والربا فكان مصيرها التجاهل أو المراوغة في التنفيذ :

وتصادف ظهور الإصلاح الديني مع قيام الاقتصاد الجديد ه وكانت الكنيسة الكاثوليكية تناهض « الأعمال والمشروعات والتجارة » في حساسية بالغة . فلم يتفق كل هذا مع مزاج الكنيسة . وكانت قد أدانت فوائده القروض ، وأجازت من الناحية الدينية قيام النقابات ، وقدست الفقر وانتقدت الثراء ، وأعفت العمال من العمل أيام الآحاد والعطلات التي كانت كثيرة ، إلى حد أنه في ١٥٥٠ بلغ عدد الأيام التي لا عمل فيها ١١٥ يوماً في السنة في الأقطار الكاثوليكية^(١١) . وربما كان لهذا أثره في الإبطاء بالتصليح والإثراء في هذه البلاد . ودافع رجال الالهوت ، بموافقة الكنيسة ، عن فكرة تحديد « أسعار عادلة » لضرورات الحياة بمقتضى القانون ، وكان توماس الأكويني قد وصم السعى إلى المال ، بعد الوفاء بحاجيات الإنسان ، بأنه « جشع آثم » ، وحكم بأن أية مقتنيات أو مدخرات فائضة عن الحاجة ، « تخصص بمقتضى القانون الطبيعي لإغاثة الفقراء واسعافهم »^(١٢) . وشارك لوثر في هذه الآراء ، ولكن التطور العام للبروتستانتية تعاون ، دون وعى ، مع الانقلاب الرأسمالي . وألغيت عطلات القديسين ، وكان من نتيجة ذلك زيادة العمل ورأس المال معاً . ولقى المذهب الديني الجديد تأييداً ودعماً من رجال الأعمال ، وجزء مجاملة مجاملة مثلها ، فنظر البروتستانت إلى الثروة بعين الإعجاب والإعجاب ، وأنشؤا على التدبير والاقتصاد ، وشجعوا العمل على أنه فضيلة ، وارتضوا الفائدة على أنها مكافأة مشروعة لمخاطرة المرء بمدخراته .

٢ - القانون

لقد كان عصرًا قاسيًا رهيبًا ، انسجمت قوانينه مع اقتصاد لا يرحم ، وإبلاق مخزٍ وفن كئيب ، ولاهوت تخلى ربه عن المسيح وتبرأ منه .

وكانت الجريمة أمرًا طبيعيًا ، بين سكان كتب على معظمهم الفقر والفاقة في الدنيا ، واللعة في الآخرة . وكان القتل منتشرًا بكثرة في كل الطبقات .

وتدلى الخنجر من حزام أى رجل ذى وزن ، أما الضعفاء فقد اعتمدوا على القانون في إصلاح أخطائهم . وكانت جرائم الهوى والانفعال كثيرة جدًا

قدر كثرتها في روايات شكسبير . فلم يكن بعد في زمرة الرجال أى « عطيل »

أخفق في ذبح زوجته التى اشتبه في سلوكها . واعتبر المسافرون قطع الطرق أمرًا مفروغًا منه أو قضية مسلمًا بها ، فساروا في جماعات . وكان عدد

اللصوص في المدن التى لم تزل غير مضاعة ليلًا ، وفيرًا قدر وفرة العاهرات .

وكان لزامًا أن يكون بيت الرجل حصنًا منيعًا . وفي أوج عظمة فرنسوا

الأول ، أعملت السلب والنهب في باريس في وضوح النهار عصابة من اللصوص

أطلق عليها اسم « الأولاد الأشرار » . وبرى لنا برانتوم ، رواية غير

موثوقة كما تعودنا منه ، كيف أن شارل التاسع رغب في أن يعرف كيف ينفذ

النشالون أفانيهم ، « فأمر شرطته بدعوة بعضهم إلى حفلة راقصة ملكية ،

وطلب بعد انتهاء الحفل أن يرى غنائمهم ، فوجد أن ما جمعه من نقود وحل

وملابس بلغ دون نباه أو تفاخر ، في هذا المساء ، ما قيمته عدة آلاف من

الدولارات ، مما ظن معه أن الملك سيموت من كثرة الضحك » . ورخص

لهم في الاحتفاظ بحصيلة فتنهم ودراساتهم ، ولكنه ضمهم إلى الجيش لأن

مماثهم خير من بقائهم على قيد الحياة^(١٣) . فإذا صنفنا ، باعتبارها جرائم ،

الغش في السلع ، والمغالطة التى تتسم بها حيل رجال الأعمال ، وتفشى

الرشوة في المحاكم ، والاستيلاء على أملاك الكنيسة ، وتوسيع الحدود بالغزو

والفتح ، نقول إذا صنفنا هذه كلها فى عداد الجرائم ، لوجدنا أن واحداً من بين كل اثنين فى أوربا لص ، وقد نضفى على بعضهم الحصانة الأكليريكية ، وقد نسلم بوجود حرق أمين هنا أو هناك . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً من إحراق المباني عمداً ، وبعضاً من حوادث اغتصاب الفتيات ، وقليلاً من الخيانة ، لبدأنا ندرك المشاكل التى تواجهها قوات النظام وحماة القانون .

وقد نظمت قوات النظام والقانون هذه ، لتوقيع العقاب ، أكثر منها لمنع الجرائم ، وكان رجال الشرطة فى بعض المدن الكبرى ، مثل باريس ، هم حفظة الأمن ، وكان لكل قسم فى المدينة مراقبه وحراسه ، ولكل أبرشية شرطتها . ولكن ضبط الأمن والنظام كان فى المدن سيئاً إجمالاً . وأجهد رجال الحكم أنفسهم فى مكافحة الطبيعة البشرية ، وأخيراً قدروا أنه من الأفضل والأقل تكلفة ، الحد من الجرائم بفرض عقوبات بالغة الشدة وتنفيذها علناً أمام أعين الناس . . وكان هناك عشرات من الجرائم الرئيسية : القتل ، الخيانة ، الهرطقة ، تدليس المقدسات والمعابد ، السحر ، السلب ، الزور ، التزييف ، التهريب ، الإحراق عمداً ، الحث بالقسم ، الزنى ، اغتصاب الفتيات (إذا لم يسو بالزواج) ، اللواط ، « الانغماس فى الشهوات البهيمية » ، غش الموازين والمقاييس ، إفساد الطعام ، تخريب الممتلكات ليلاً ، الهروب من السجن ، الإخفاق فى محاولة الانتحار ، وقد تكون العقوبة ضرب العنق بدون ألم أو تعذيب نسبياً ، وهذا امتياز اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال ، أما من هم أقل مكانة فكانوا يشقون . أما الهراطقة وقتلة الأزواج فكانوا يحرقون . أما السفاحون البارزون فكانوا يشدون أطراف الواحد منهم (بديه ورجليه) إلى أربعة خيول يجرى كل منها فى اتجاه مضاد حتى يتمزق جسم المجرم . وأصدر هنرى الثامن فى ١٥٣١ قانوناً يعاقب من يدس السم ، بالغلى حياً^(١٤) ، كما نفعل نحن الأكثر وداعة ورقة بالحار أو السمك .

ونص قانون محلي في سالزبرج بأن يحرق المزور أو يغلى حتى الموت . وأن يقطع لسان الخائن في اليمين من رقبته . أما الخادم الذى يضاجع زوجة سيده أو ابنته أو شقيقته فيضرب عنقه أو يشنق (١٥) ، وأحرقت جولين رابو في آنجرز (١٥٣١) لأنها كانت قد قتلت طفلها أثر ولادة مؤلمة (١٦) . وهناك أيضاً ، إذا صدقنا ما رواه بودن ، عدة أفراد أحرقوا أحياء لتناولهم اللحم يوم الجمعة ، ورفضهم الندم على ما فعلوا ، أما الذين أظهروا الندم فكانت عقوبتهم مجرد الشنق (١٧) . وكانت العادة أن تترك جثة المشنوق معاقبة حتى تنهش الغربان لحمها ، ليكون عظة وعبرة للأحياء ، وفي الجرائم الصغرى كان يجلد الرجل أو المرأة أو تقطع إحدى يديه أو قدميه أو أذنيه ، أو أنفه ، أو تقفأ إحدى عينيه أو كتفاهما ، أو يكوى بالحديد المحمى . وهناك جنح أخف كان عقابها السجن الذى تختلف فيه ظروف المعاملة بين الجمالة والخشونة ، أو تعذيب المذنب بآلة خشبية ذات ثقب تقيدها رجلاه ويدها ، أو إدخال إحدى المذنب ورأسه فى آلة خشبية تسمى « المشهرة » ، أو الجلد ، أو التعذيب على كرسي التغطية . وكان السجن وفاء للدين معروفاً شائعاً فى جميع أنحاء أوروبا . وبصفة عامة كان قانون العقوبات فى القرن السادس عشر أشد قساوة منه فى العصور الوسطى ، ولقد عكس الفوضى الأخلاقية فى ذلك العصر :

ولم يكن الناس يستأثرون من هذه العقوبات الصارمة ، بل لقد أحسوا ببعض السرور والابتهاج فى مشاهدة تنفيذها وساعدوا فى بعض الأحيان فى التنفيذ . ولما اعترف مونتكوكرلى تحت وطأة التعذيب ، بأنه كان قد سم ، أو حاول أن يسم ، فرانسيس ، الابن العزيز المحبوب لفرانسوا الأول ، مزقت أوصاله حياً ، بربط أطرافه إلى أربعة خيول جرت فى أربعة اتجاهات ، (ليون ١٥٣٦) وقيل إن الجمهور مزق بقايا جسمه إلى قطع

صغيرة ، وفقت أنفه ، واقتلع عيليه ، وحطم فكبيه ، ومزغ رأسه في الوحل ، وجعله يموت ألف مرة قبل أن يفارق الحياة (١٨) .

وهناك إلى جانب القوانين التي شرعت للجرائم ، وضعت « القوانين الزرقاء أو قوانين المتطهرين » ضد اللهو والتسلية التي يظن أنها تجافي التقى والورع ، أو الدع التي تنافي العرف بشكل حاد ، فقد اقتضى القانون العرفي في العالم الكاثوليكي أكل السمك في أيام الجمعة ، كما اقتضته قوانين الدولة في إنجلترا البروتستانتية في عهد إدوارد السادس دعماً لصناعة صيد الأسماك ، وتدريباً للرجال على ركوب البحر من أجل الأسطول (١٩) . وكان الميسر دائماً غير مشروع ، ودائماً شائعاً مرغوباً فيه . وأمر فرانسوا ، الذي عرف أساليب اللهو والتسلية ، بالقبض على من يلعبون الورق أو النرد في الحانات أو نوادي الألعاب (١٥٢٦) ولكنه أباح إقامة « يانصيب » عام (١٥٣٩) . وقبلما كان القانون يعاقب على إدمان الخمر ، على حين اعتبر البطالة والحمول جريمة رئيسية تقريباً . أما قوانين التبذير أو الإنفاق بسخاء — وهي التي وضعت لضبط الأغنياء الجدد الذين ينفقون إنفاقاً مريباً يدعو إلى الاشتباه ، والمحافظة على فوارق الطبقات ، فقد حددت هذه القوانين ، الأزياء والزينة والأثاث ووجبات الطعام وواجبات الضيافة . ويقول لوثر « عندما كنت صبيّاً كانت الألعاب محرمة ، حتى أن صانعي أوراق اللعب ، والعازفين على المزمار والممثلين لم يكن يسمح لهم بشهود الأسرار المقدسة . أما من كانوا قد اشتركوا في الألعاب ، أو حضروا حفلات الألعاب أو الروايات ، فكانوا يعملون هذا موضوع اعتراف أمام القسيس (٢٠) . وعاشت هذه المحرمات بعد الإصلاح الديني . وبلغت ذروتها في أخريات القرن السادس عشر .

وثمة بعض العزاء في أن التطبيق قل أن كان على قدر صرامة القانون ،

وكان الثمر أماً ميسوراً : وكم من قاض أو محلف ، بدافع الشفقة أو التخويف أو بفضل الرشوة - أطلق سراح كثير من الأوغاد مقابل عقوبة بسيرة أو غرامة . وكانت قوانين اللجوء إلى الكنيسة لا يزال معمولاً بها في عهد هنري الثامن ، وكانت المرونة في التطبيق ، على أية حال ، تتوازن مع استعمال التعذيب لانزعاج الاعترافات أو البيانات . وهناك كانت قوانين هنري الثامن ، على الرغم من كونها أقسى القوانين في تاريخ إنجلترا - نقول كنت متقدمة عن زمانها (٢١) ، لأنها حرمت التعذيب إلا إذا روى أن الجريمة علاقة بالأمن القومي (٢٢) ، ويمكن أن يكون الإبطاء في محاكمة المتهم تعذيباً أيضاً . فقد شككا كورتيز الأسباني إلى شارل الخامس من أن المتهمين ، حتى بأخطاء يسيرة ، طال بقاؤهم في السجن عشر سنين ، أو نحوها ، قبل أن يحاكموا ، وأن المحاكمات قد تتأخر لمدة عشرين عاماً (٢٣) .

وترعرع المحامون وتضاعف عددهم مع اضمحلال جماعة الكهنة ، وملأوا مناصب السلطة القضائية والبيروقراطية العالية ، ومثلوا الطبقات الوسطى في الجمعيات الوطنية والبرلمانات الإقليمية ، وحتى الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين اعتمدوا على المحامين في القضايا المدنية ، وتكونت منهم في فرنسا طبقة جديدة : « نبلاء الرداء - الروب » ، أو على حد قول رابليه الهجاء الفرنسي « القطط ذوات الفراء » . واختفى القانون الكنسي في الأقطار البروتستانتية . وحلت فلسفة التشريع محل اللاهوت « كأداة للمقاومة » في الجامعات . وعاد القانون الروماني إلى الحياة في الأقطار اللاتينية ، وسيطر على ألمانيا في القرن السادس عشر ، وعاش القانون المحلي معه جنباً إلى جنب في فرنسا . أما في إنجلترا فقد فضّلوا عملية « القانون العرفي » . ولكن كان لقوانين جستنيان بعض الأثر في تشكيل وتدعيم الحكم المطلق الذي أقامه هنري الثامن . على أنه في

بلاط هنرى الثامن نفسه ، ألف قسيسه الخاص توماس ستاركى (١٥٣٧) « حواراً » كانت الفكرة الأساسية فيه أن القوانين يجب أن تفرض بإرادة الملك ، وأن الملوك يجب أن يخضعوا للانتخاب والعزل .

لا يمكن أن يطول حكم هذه البلاد حكماً صالحاً ، أو الاحتفاظ فيها بسياسة حكيمة ، طالما أنها تحكم بإرادة فرد لم يتم اختياره بطريق الانتخاب ، بل أنى إلى العرش بالتعاقب الطبيعى . فقلما شهدنا أن الذين يأتون إلى العرش أو الممالك عن طريق هذا التعاقب ، كانوا جديرين بتولى هذه المناصب السامية والسلطات العالية وأى شيء أبغض إلى الطبيعة من أن تحكم أمة بأمرها وفق لإرادة أمير ؟؟ وأى شيء أكثر تنافياً مع العقل من أن شعباً يرمته بحكمه من يعوزه العقل عموماً ؟؟ . . . وليس ثمة إنسان يستطيع أن يخلق أميراً حكيماً عاقلاً ممن ينقصه الذكاء والخصافة بالطبيعة ولكن فى مقدور الإنسان أن ينتخب ويختار من يتوفر فيه العقل والعدالة معاً ، فينصبه أميراً ، ومن ثم يخلع الطاغية المستبد (٢٤) .

وكان موضع العجب والغرابة أن يموت ستاركى موتاً طبيعياً بعد عام واحد من كتابة « حوار » الذى لم يطبع إلا بعد ٣٣٤ سنة من تدوينه .

٣ - الأخلاق

كيف كان سلوك الناس فى العالم المسيحى اللاتينى ؟ إنه لجدير بنا ألا يضللنا جهرهم بالإيمان بالدين ، حيث لم يكن ذلك فى الغالب إلا ولعاً بالشقاق والمشاكسة ، أكثر منه ورعاً وتقوى . فإن نفس الشخص العنيد الذى يستطيع أن يتشدد فى إيمانه يستطيع أن يكون عنيفاً كذلك فى تجديفه ، وإن البنات اللاتى ينحنين متظاهرات بالرزانة والاحتشام أمام تماثيل العذراء ،

أيام الأحد ، ليصبغن وجنتاهن بالحمرة ويتجلمان طيلة الأسبوع يحدوهن
 الأمل ، وكثيرات منهن انزلن تحت تأثير الإغراء والغواية ، لمجرد عرض
 فكرة الزواج . وما كان من الميسور حماية العذارى وعذرتهم وبتولتهم
 إلا بالتمسك بكل أهذاب العرف والأخلاق والقانون والدين وسلطة الوالدين
 والتعليم ، و « حدود للشرف » . ولكن ما كان أكثر الاحتياج على الانزلاق .
 إن الجنود الذين عادوا من الحملات التي كان الخمر والنساء فيها عزاءهم
 وتسليتهم الأساسية ، وجدوا من المؤلم لهم ومن الغسير عليهم أن يروضوا
 أنفسهم على الغنى والامتناع عن شرب الخمر . وانغمس الطلبة في الفسق
 والفجور ، واحتجوا بأن الزنى خطيئة عرضية تغتفر^(٢٥) ، ويمكن أن
 يتجاوز عنها المشرعون المستنيرون . ولقد أعلن روبرت جرين أنه في
 كمبردج كان قد « أفنى زهرة شبابه بين أوغاد فاجرين لا يقلون عنه
 دعة »^(٢٦) . وكثيراً ما ظهر الراقصات على المسرح ، أو في أى مكان
 آخر ، « عاريات تماماً »^(٢٧) . ومن الواضح أن هذه بدعة من أقدم البدع
 في الدنيا — ولقد نظر الفنانون بازدراء إلى قواعد السلوك الجنسي ونظمه^(٢٨) ،
 واتفق اللوردات والسيدات مع الفنانين في ذلك . وكتب برانتوم : « إن
 الطبقات العليا استخفت بقواعد السلوك عند العذارى وما يحوم حولهن من
 شكوك ، وكم من آنسات أعرفهن في دنيا العطاء ، لم يأخذن معهن
 بكارتهن إلى فراش الزوجية »^(٢٩) . ولقد لحظنا نوع القصة التي بدا أن
 مرجريت نافار الجميلة سمعتها دون أن نحمر وجنتها خجلاً . وكم زحرت
 المكتبات بكتب الأدب الخليع المكشوف ، التي تدفع فيها أثمان عالية
 في نهم شديد^(٣٠) . وكان لأرتينو (هجاء لاذع في إيطاليا في القرن
 الخامس عشر) في باريس شعبية قدر شغيبته في رومه ، ولم يحس
 رابليه ، الكاهن بأنه من الجائز أن ينقص المبيع من ماحمته « جارجنتوان
 Gargantuan » بمشوها بكلام جعل أرتينو يسارع لإخفائه . ووجد

الفنانون سوقاً رائجة للصور الجلسية ، بل حتى للانحرافات المصورة (٣١) ، وكان الباعة المتجولون في الشوارع ، وحماة البريد واللاعبون الجوالون يبيعون روائع الصور التي من هذا القبيل ، حتى في المعارض والأسواق الخيرية الكبرى (٣٢) . لقد وجدت كل ألوان الابتذال والانحراف لها مكاناً فسيحاً في تلك الحقبة (٣٣) ، مثلما وجدت في الصفحات التي دونها برانتوم والتي تتسم بالارستقراطية (٣٤) .

وزاد الدخول من البغاء وارتفع شأنه . وحدث في هذا العصر أن أطلق على من يمارسونه « سيدات البلاط » - (في مقابل رجال البلاط) : وقدم بعض القواد البغايا إلى جيوشهم ، حرصاً منهم على حماية سيدات البلاد التي يحتلونها (٣٥) . ولكن نسبة الأمراض السرية ارتفعت إلى حد الوباء تقريباً . فكم أصدرت الحكومة تلو الحكومة من تشريعات ضد « بنات الهوى » التبعيات . وعلى حين أكد لوثر أن الرغبة الجنسية أمر طبيعي ، نراه قد كافح للإفلال من البغاء ، وبتحريض منه حرّمته كثير من مدن ألمانيا الاثرية (٣٦) . وفي ١٥٦٠ جدد ميشيل دي لوبيتال مستشار فرنسا قوانين لويس التاسع ضد هذه الرذيلة ، والظاهر أن أوامره نفذت .

وفي الوقت نفسه نجد أن الشهوة الحمقاء للجسد من أجل الجسد ، أورثت ظمأ النفس إلى النفس ، وإلى كل ما كان يزدان به الفودد والحب الرومانتيكي من رقة وكياسة ، وتدفقت الدماء التي تغلي في العروق في النظرات المختاسة والرسائل الغرامية والقصائد الغنائية والمقطوعات الشعرية والأناشيد والقطع الغزلية والهدايا المشجعة واللقاءات السرية . ورحبت بعض الشخصيات المهذبة أو السيدات اللعوبات من إيطاليا وكاستايوني ، بالتسلي بحب أفلاطوني تكون فيه السيدة والرفيق المتودد إليها صديقين حميمين ، ولكن محافظين على الطهارة والعفة ، ولكن مثل هذا اللون من كبح جماح النفس لم يكن من شيمه هذا العصر . فقد كان الرجال شوانيين بطريقة مكشوفة ، وأحب النساء هذه

الحلة فيهم ، وكثر شعر الغرام ، ولكنه كان مقدمة لافتناص النساء .

وبالنسبة لزوج ، بقى الآباء واقعيين إلى حد عدم السماح للمحب باختيار رفيقة الحياة ، فقد كان الزواج في شريعتهم زفافاً إلى الضيعة أو الثروة أو المكانة الاجتماعية (زواج المصلحة) ، ونصح إرزم الذى كان شديد الإحساس بمفاتن المرأة ، لا بالزواج ، نصح الصغار بالزواج ممن يختاره الكبار ، على أن يتركوا الحب يندو بالمزاملة والمرافقة أفضل من أن يذبل ويلدوى بإشباع الشهوة (٢٧) ، واتفق رابليه معه في هذا الرأى (٢٨) . وعلى الرغم من هؤلاء الثقة ، ثار عدد متزايد من الشباب ، مثل جان دألبرت ، على الزيجات المبنية على الثروات والعقارات الثابتة . ونعى روجر أسكام معلم الماكة اليصابات : « أن عهدنا بعيد جداً عن النظام والامثال القديمين ، حتى أن الشبان ، بل والبنات أنفسهن — أصبح الجميع يجرؤون على الزواج رغم أنف الأب والأم والرب والنظام السليم وكل شئ » (٢٩) . وفزع لوثر حين علم بأن ابن ميلانكتون خطب لنفسه عروساً دون استشارة أبيه ، وأن أحد صغار القضاة في وتنبرج أعلن صحة هذه الخطبة ، ورأى المصلح الدينى (لوثر) أن هذا سيسىء حتماً إلى سمعة وتنبرج . وفى ٢٢ يناير ١٥٤٤ كتب في الجامعة :—

إن لدينا عدداً وفيراً من الشبان من مختلف البلاد ، وإن سباق البنات ليستند ، وانهم ليحجرين وراء الرفاق في حجراتهم وقاعاتهم : وحيثما استطعن إليهم سبيلاً ، ليعرضن عليهم جهن الطليق . ولقد سمعت أن كثيراً من الآباء أمروا أبناءهم بالعودة إلى بيوتهم . . . قائلين إننا نعلق الزوجات حول رقاب أبنائهم . . . وفى يوم الأحد التالى ألقى عظة قوية أدعو الرجال إلى اتباع السبيل القويم والتقاعده اللتين وجدنا منذ بدء الخليقة . . . أعنى أن يزوج الآباء أبنائهم بعضهم من بعض بروية وحسن نية ، دون أن يرتبط الأبناء بارتباط

تمهيدى . . فإن مثل هذه الارتباطات من ابتداع البابا الممقوت ،
أوحى بها إليه الشيطان ليحطم ويمزق سلطة الآباء التي منحها الله
لياهم وأوصى بها لهم بصفة جديدة (٤٠) ،

وكان يمكن تنظيم عقود الزواج للأولاد والبنات ابتداء من سن الثالثة ،
ولكن كان من الميسور فسخها إذا لم تتحقق . وكانت السن الشرعية للزواج
الرابعة عشرة الولد والثانية عشرة للبنت ، وكان من المستطاع التجاوز عن
العلاقات الجنسية بعد الخطبة وقبل الزفاف ، وحتى قبل الخطبة ، في السويد
وفي ويلز ، كما كان في بعض المستعمرات الأمريكية فيما بعد ، وكان يسمح
للحبيبين بالاشتراك في فراش واحد دون أن يخالعا ملبسهما ، ولكنهما كانا
يذكران بالاحتفاظ بملاءة بينهما حتى لا يلتصق جسماهما (٤١) . ولم يعد الزواج
في البلاد البروتستانتية سراً مقدساً ، وما حل عام ١٥٨٠ حتى بات الزواج
المدنى يزاحم الزواج على يدى الكاهن . وارتأى لوثر وهنرى الثامن ولارزم
والبابا كليمنت السابع أن الزواج من امرأتين يمكن أن يرخص فيه تحت
شرط معينة ، وخاصة إذا كان بديلاً للطلاق ، واتجه رجال الدين من
البروتستانت شيئاً فشيئاً إلى إباحة الطلاق ، وكان ذلك في أول الأمر بسبب
الزنى فحسب ، وكانت هذه الجريمة أكثر شيوعاً في فرنسا ، على الرغم من
عادة قتل الزوجة الزانية هناك . وكان الحب غير المشروع جزءاً من الحياة
العادية للسيدات الفرنسيات ذوات المركز الاجتماعى المرموق (٤٢) . وكان
البيت الذى يضم زوجاً وزوجتين أمراً مألوفاً كثيراً في فرنسا ، مثال ذلك
البيت الذى كان يضم هنرى الثالث وكاترين دى مدينشى وديان دى بواتييه ،
وكانت الزوجة الشرعية (المفقود عليها) ترتضى هذا الوضع في كياسة مرة
ساخرة ، كما يحدث أحياناً في فرنسا اليوم .

وباستثناء الطبقة الأرستقراطية ، كانت المرأة قبل الزواج معبودة

واللهة ، وبعده خادمة . وكانت الزوجة تقوم بواجبات الأمومة خير قيام أدون صعوبة أو تردد ، وتبهج وتفخر بكثرة الأولاد ، وتختال على أن تسوس رب البيت . وكان النساء قويات معتادات على العمل الشاق من طلوع الشمس إلى مغربها ، ويقمن بحياكة معظم الملابس اللازمة لأسراتهن . وكن في بعض الأحيان يعلمان مع المقاولين الرأسماليين . وكان النول جزءاً أساسياً من البيت : وفي إنجلترا كان معظم النساء غير المتزوجات غزالات ، أما سيدات البلاط الفرنسي فكانن شيئاً آخر ، ولقد شجعهن فرانسوا الأول على تجميل أجسامهن وملابسهن : واستطعن في بعض الأحيان تحويل السياسة الوطنية بفعل « القذائف الموجهة » التي تطلقها مفاتنهن . وورد من إيطاليا على فرنسا ، حركة نسائية ، ولكنها لم تلبث أن خمدت ، لأن النساء أدركن أن قوتهم وشهرتهن شيء مستقل عن السياسة والقانون . وكان كثير من نساء الطبقة العليا على درجة عالية من الثقافة . وفي باريس ، وفي غيرها ، بدأ الصالون الفرنسي آنذاك يتشكل ، حيث جعلت السيدات المثقفات ذوات اليسار من بيوتن ملتقى رجال الدولة والشعراء والفنانين والعلماء والأساقفة والفلاسفة ، وثمرت مجموعة أخرى من السيدات الفرنسيات بقين متمسكات بأهداب الفضيلة ، في هدوء ، وسط العاصفة الهوجاء - عاصفة الجنس - مثل آن أوف فرانس ، وأن أوف برتياي ، وكلود ، وريديه . وبصفة عامة ، فإن الإصلاح الديني الذي نهبت في تربة تيوتونية (ألمانيا وشمال أوروبا) عمل على تدعيم فكرة المجتمع الأبوي وسلطان الأب على المرأة والأسرة . كما وضع الإصلاح حداً لتمجيد المرأة في عصر النهضة ، بوصفها نموذجاً للجمال وعاملة على تمدين الرجل ، كما أدان الكنيسة بالتساهل في الانحرافات الجنسية ، ومهد الطريق بعد موت لوثر بلقاء المتطهرين (الحركة البوريتانية) .

وتدهورت الأخلاق الاجتماعية بنشوء الروح التجارية وشدة الاهتمام بالربح ، والإحجام المؤقت عن أعمال البر والإحسان والصدقات : ووجد

الخداع والتضليل والخيانة - وهى أمور طبيعية فى الإنسان - أساليب وفرصاً جديدة ، منذ حلت اقتصاديات المال محل النظام الإقطاعى ، ومنذ تملك الأغنياء الجدد السندات المالية أكثر مما تملكوا الأرض ، وكانوا قليلاً ما يرون الأفراد الذين أفادوا من كدهم وعرقهم ، فإن هؤلاء الأغنياء لم يكن لديهم من تقاليد المسؤولية والكرم ما كان قد ذهب وولى مع الثروة القائمة على امتلاك الأرض^(٤٣) . وكانت التجارة والصناعة فى العصور الوسطى قد ارتضتا الضوابط الأخلاقية المتمثلة فى توجهات النقابات والمجالس المحلية والكنيسة ، ولكن الرأسمالية الجديدة رفضت كل هذه القيود ، وجرت الناس إلى منافسة عنيفة طوحت بالقوانين القديمة عرض الحائط^(٤٤) . وحلت الحيل التجارية محل الحيل الموسومة بالتقى والورع . وضعت نشرات الإعلان فى ذاك الزمان بالتحذيرات من غش الأطعمة وسائر المنتجات بالحملة . وشكاً مجلس الديت فى انسبروك ١٥١٨ ، من أن المستوردين « يضيفون الآجر المسحوق إلى الزنجبيل ، ويخلطون الفلفل بمواد غير صحية »^(٤٥) . ولحق لوثر أن التجار « عرفوا كيف يختالون على زيادة وزن التوابل - مثل الفلفل والزنجبيل والزعفران - بوضعها فى أقبية رطبة ، وأنه ليس ثمة سلعة واحدة لا يستطيعون أن يجنوا من ورائهم أرباحاً طائلة بالغش فى الكيل أو العد أو الوزن أو استحداث ألوان مصطنعة . . . وليس ثمة نهاية لحيلهم »^(٤٦) . ووصم سناتو البندقية حمولة سفينة من الأصواف الإنجليزية بأنها مغشوشة من حيث الوزن والصنع والحجم^(٤٧) .

وكان الناس فى الأقطار اللاتينية لا يزالون يقبلون على أعمال البر والإحسان والصدقات بصدور منشرحة ، كما كان الحال فى العصور الوسطى ، وأنفقت الأسرات النبيلة جزءاً كبيراً من دخولها فى الهبات والصدقات^(٤٨) . وورثت ليون عن القرن الخامس عشر منظمة ضخمة للصدقات المحلية أمدّها المواطنون بالأموال بسخاء عن طيب خاطر^(٤٩) . أما

في ألمانيا وانجلترا فلم تكن الأيدي مبسوطة إلى هذا الحد . وبذل لوثر كل ما في وسعه ليعيد لظام الصدقات الذي كان قد اختل بمصادرة الأمراء لأموال الأديرة ، ولكنه اعترف بأن جهوده لم تكال بالنجاح . ورثى « لأن الناس في عهد البابوية كانوا محسنين وتصدقوا عن طيب خاطر » (٥٠) ، ولكنهم في ظل شريعة الإنجيل لم يعودوا يعطون شيئاً ، وبات كل فرد يسلب الآخر ولن يتصدق أحد بفلس واحد » (٥١) ، ونقل إلينا لانيمر (من رجال الإصلاح الديني البروتستانتي في إنجلترا في القرن السادس عشر) رواية مشابة : « لم يقس قلب لندن قط كما هو حالها الآن ، فإذا مات أحد الأغنياء في الأزمنة الغابرة ، كان ذروه يرصدون مبالغ كبيرة من المال لإغاثة الفقراء . . . أما الآن فقد تجمدت المروءة وانقضى عهد » (٥٢) . وأبلغ الكاردينال بول لندن ، أن مدينتين في إيطاليا تصدقتا بأكثر مما تصدقت به إنجلترا بأسرها (٥٣) . وانتهى فرود إلى أنه « لما انتشر الصدق ، تقلص البر والعدل في إنجلترا » (٥٤) ، ويحتمل أنها ليست البروتستانتية ، ولكنها الروح التجارية والكفر هما اللذان أنقصا الصدقات والإحسان . واشتد الفقر حتى أصبح يشكل أزمة اجتماعية ، فإن المستأجرين المطرودين والعمال المهرة العاطلين والجنود المسرحين هاموا على وجوههم في الطرقات أو الأكواخ المصنوعة من القش يسألون الناس أو يسلبونهم ليعيشوا : وقدر عدد المعوزين في أوجزبرج بسدس السكان وفي همبرج بنحمتهم ، وفي لندن بربعهم (٥٥) : وصاح المصلح الديني توماس لفر يوما « يا رب يا رحيم ! ما هذا العدد الضخم من الفقراء والضعفاء والعرج والعمى والمقعدين والمرضى . . . والذين يرقدون أو يزحفون في الشوارع الموحلة » (٥٦) وكان لوثر الذي امتلأ قلبه بالرحمة قلدر ما اتسم لسانه بالقسوة ، من أول من أدركوا أن الدولة يجب أن تتولى عن الكنيسة رعاية المعوزين وإنقاذهم . وفي حديثه « إلى أشرف المسيحية في الأمة الألمانية » (١٥٢٠) اقترح

أن تنكفل كل مدينة بالمعوزين فيها . وفى أثناء تغيبه فى ورتبرج ، نظم أتباعه المنتظرون فى ورتبرج — صندوقاً جماعياً لرعاية الأيتام ، ودفع مهور البنات الفقيرات ، وترتيب منح دراسية للطلبة المحتاجين ، وإفراض الأموال للأسرات التى أخفى عليها الدهر ، وفى سنة ١٥٢٥ أصدر لوثر توجيهاً بإنشاء صندوق عام . حث فيه المواطنين ورجال الدين فى كل قسم على أن يفرضوا على أنفسهم ضريبة يسهمون بها فى تكوين رصيد يقدمون منه قروضاً بدون فائدة للمحتاجين أو غير القادرين على العمل^(٥٧) . وفى ١٥٢٢ عينت أوجزبرج ستة « حماة الفقراء » ليشرّفوا على توزيع المساعدات عليهم ، وتبعتهما نورمبرج فى الحال ، ثم ستراسبورج ویرسلو (١٥٢٣) ، وراتسبون ومجدرج (١٥٢٤) .

وفى تلك السنة كتب أسباني من دعاة الحركة الإنسانية ، جوان لويس فيفز لمجلس مدينة بروجز نشرة عنوانها : « إعانة الفقراء » . وقد لحظ انتشار الفقر وسط نمو الثروة ، وأندر بأن الإفراط فى عدم المساواة فى الملكية قد يولد ثورة مدمرة . وكتب يقول : « كما أنه من الخزي والعار على رب الأسرة فى بيته الهائى أن يسمح لفرد فيه أن يعانى مهانة العرى أو الأسمال البالية ، فإنه كذلك ليس من اللائق بولاة الأمور فى المدينة أن يحتملوا حالة مواطنين يتضورون جوعاً وبؤساً »^(٥٨) . ووافق فيفز على أن يجبر على العمل كل قادر عليه ، وألا يسمح لأحد بالتسول ، ولكن ما دام كثيرون غير قادرين على العمل فعلاً ، فيجب أن يدبر لهم مأوى فى الملاجئ أو المستشفيات أو المدارس التى تنفق عليها البلديات « على أن يقدم لهم الطعام والرعاية الطبية والتعليم الابتدائى مجاناً ، ويجب أن تتخذ تدابير خاصة للمتخلفين عقلياً . وجمع ايبر Ypres بين أفكار فيفز والسوابق الألمانية فى هذا المجال ، ونظم فى ١٥٢٥ صندوقاً جماعياً وحّد أموال

الصدقات في رصيد واحد ووكل توزيعها إلى رئاسة واحدة . وطالب شارل الخامس (١٥٣١) نسخة من خطة اير . وأرسل هنرى الثامن توجيهاً مماثلاً إلى أبرشيات إنجلترا (١٥٣٦) . واحتفظت الكنيسة في البلاد الكاثوليكية بإدارة أموال الصدقات .

وبقى الخلق السياسى مطبوعاً بالملكىافلملية : واعتبر نظام الجاسوسية أمراً مسلماً به . وكان من المتوقع أن يبلغ جواسيس هنرى الثامن في رومه عن أخطر محادثات الفاتيكان وأكثرها سرية (٥٩) . وكانت الرشوة عملية تقليدية ، وتدفقت في سماء أكثر بعد تدفق الذهب من أمريكا . وتسابقت الحكومات على نقض المعاهدات . ونافست الأساطيل المسيحية والتركية بعضها بعضاً في أعمال القراصنة . وبعد تدهور نظام الفروسية انحطت أخلاقيات الحرب إلى ما يشبه الهمجية ونهبت أو أحرقت المدن التي كانت قد أخفقت في مقاومة الحصار ، وذبح الجنود المستسلمون أو استعبدوا حتى تدفع عنهم الفدية . أما القوانين والمعاملات الدولية التي كانت سائدة في حالة خضوع الملوك أحياناً لتحكيم البابوات ، فقد اختفت في فوضى التوسع القومى والعداء الدينى . واعترف المسيحيون ببعض الضوابط الخلقية تجاه غير المسيحيين ، وبادلهم الأتراك نفس المعاملة . وأمر البرتغاليون زواج أفريقية واستعبدوهم . ونهب الغزاة الأسبان المواطنين الأمريكين واستعبدوهم وقتلهم ، دون أن يخفوا عزمهم الأكيد على تحويل الدنيا الجديدة إلى المسيحية ، وكانت حياة الهنود الحمر في أمريكا في ظل الحكم الأسبانى مزيرة تغيسة إلى حد انتحار الآلاف منهم (٦٠) ، بل حتى في العالم المسيحى نفسه في ذلك العصر كثرت حوادث الانتحار إلى درجة مروعة (٦١) . واغتفر بعض دعاة الحركة الإنسانية إهلاك النفس . ولكن الكنيسة حكمت بأنه يؤدي إلى الجحيم مباشرة ، ومن ثم يكون المنتحر كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إن كل ما في الإصلاح الدينى ، ولو أنه في نهاية الأمر أصلح من

الأخلاق في أوروبا — دمر الفضائل العلمانية . ولقد نعى ببركهيمر وهانز ساكس — وكلاهما متعاطف مع لوثر — أن فوضى السلوك العشوائى غير المنظم قد سادت بعد انهيار السلطة الدينية (٦٢) : وكان لوثر كعادته ، صريحا جداً في هذه النقطة :

كلما تقدمنا إلى الأمام ، ازداد العالم سوءاً فن الواضح جداً كيف أن الناس أصبحوا نهمين قساة بذئيين وقبحين شريرين أكثر بكثير مما كانوا عايناه في ظل البابوية (٦٣) . . . فنحن الألمان اليوم موضع سخرة كل الأقوام والشعوب ووصمة عار لهم ، ونحن نعتبر قطيعاً مخزباً كثيفاً من الخنازير . . . نحن نكذب ونسرق ، ونفترط في الطعام والشراب ، وننغمس في كل رذيلة (٦٤) . . . وإن الشكوى عامة من أن شبان اليوم منحلون فوضويون تماماً ، وأنهم لا يستبشرون لأنفسهم أن يزدادوا علماً ومعرفة . ويروح نساء وتنبرج وبناتهن ويبحثن في كل مكان عاريت ، وليس هناك من يعاقبن أو يصحح أخطاءهن ، ساخرات من « كلمة الرب » هازئات بها (٦٥) .

ووصف واعظ لوثرى ، أندريا مسكولوس ، عصره (١٥٦٠) بأنه فاسق غير أخلاقى ، إذا قورن بالألمان في القرن الخامس عشر (٦٦) . واتفق معه في ذلك كثير من زعماء البروتستانت (٦٧). وتأوه كلفن قائلاً « إن المستقبل يفرعنى ، ولست أجروء على التفكير فيه . إن الهمجية سوف تجرفنا إلا إذا هبط الرب من السماء (٦٨) . وأنا لنسمع شيئاً من هذا القبيل عن اسكتلندة وإنجلترا (٦٩) . ولخص فرود ، وهو النصير المتحمس لهنرى الثامن ، الموضوع باعتدال وإنصاف ، فقال :

إن الحركة التى بدأها هنرى الثامن ، بالحكم عليها بنتائجها الحالية

(١٥٥٠) أسلمت البلاد آخر الأمر إلى مجرد مغامرين « إن الناس استبدلوا بخرافة من أكبر مساوئها أنها فرضت ظلاما من الاحترام والطاعة ، خرافة أخرى ، مزجت الطاعة بإيمان متسم بطابع المضاربة : وتحت هذا التأثير المميت ، بدأت تخفى ، لا أسمى فضائل التضحية بالنفس فحسب ، بل أبسط واجبات الاستقامة والأمانة والفضيلة والأخلاق . وأصبحت الحياة الخاصة بدنس . بدا لخلاعة رجال الدين الكاثوليك أنه البراءة والظهر . . . ومن بين الفئمة الصالحة التي لم يمسه الدنس ، لا يزال من الممكن العثور على أفاضلهم في جالب الإصلاح (٧٠) .

وقد لا يكون من اليسير أن تنسب هذا الانحطاط الخلقى في ألمانيا وإنجلترا ، إلى فك لوثر لقيود الجنس ، وازدراؤه « للأعمال الصالحة » ، أو إلى المثل السيئ الذى ضربه هنرى الثامن بانغماسه في المغامرات الجنسية وقسوته البالغة ، فقد ساد فسوق مشابه - ومن بعض النواحي أكثر انطلاقا - في إيطاليا البابوية في ظل البابوات في عصر النهضة ، وفي فرنسا الكاثوليكية تحت حكم فرانسوا الأول . وربما كان السبب الرئيسى في انحلال الخلق في أوروبا الغربية هو نمو الثروة . وثمة سبب أصيل يدعم هذا ، هو تزعزع الإيمان ، لا في المبادئ الكاثوليكية فحسب ، بل في أساسيات وأصول العقيدة المسيحية كذلك . فقد رثى أندريا مسكولوس « أنه ليس هناك من يعبأ بالحنة أو الجحيم ، ولا يفكر أحد في الله أو في الشيطان » (٧١) . وينبغى في مثل هذه التصريحات الصادرة عن الزعماء الدينيين ، أن تتجاوز عن مبالغات المصلحين البائسين من ضلالة التحسينات التي أدخلتها إصلاحاتهم الدينية على الحياة الأخلاقية : وإذا كان لنا أن نصدق الوعاظ ، فإن الناس لم يكونوا أفضل بكثير فيما مضى ، وقد لا يكونون أفضل بكثير في القرون التالية . ففي مقدورنا أن نقين في عصرنا هذا كل خطايا القرن السادس عشر وآثامه ،

وأن نتبين خطايانا وآثامنا في كل ما اقترفه الناس في ذلك القرن ، طبقاً لما تيسر لديهم من وسائل وأساليب :

ولنا لنجد في نفس الوقت أن الكاثوليكية والبروتستانتية كلتاهما ، كانتا قد أقامتا ودعمتا أساسين لانبعاث الروح المعنوية والأخلاقية : تهذيب سلوك رجال الإكليروس بالزواج أو بالزهد والتعفف ، والتوكيد على أن البيت هو الملاذ الأخير للإيمان والحشمة واللباقة . وقد يؤتى الإصلاح حقاً ثماره على مدى الأيام ، حتى إلى حد التطرف ، وقد يأتي اليوم حين يرجع الرجال والنساء بأبصارهم إلى الوراء ، في حسد خفي ، إلى القرن السادس عشر ، حيث كان أسلافهم أشراراً وأحراراً إلى الحد الذي كانوا عليه يومذاك .

٤ - آداب السلوك

كان الحكم على الناس آنذاك ، مثل ما هو حادث اليوم ، بعاداتهم أكثر منه بأخلاقهم . لقد تجاوز الناس ، بقدر أكبر من طيب النفس ، عن الخطايا التي ارتكبت بأقل قدر من الوحشية : وأعظم قدر من الكياسة . وفي هذا المجال كانت إيطاليا هي الرائدة ، شأنها في كل شيء باستثناء المدفعية واللاهوت . وكان الناس شمال جبال الألب ، فيما عدا القشرة الرقيقة الخارجية في سكان فرنسا وإنجلترا ، أفضأً غلاظاً ، إذا قورنوا بالإيطاليين ، بل كان هؤلاء يسمون الأولين متبربرين همجيين : واتفق مع الإيطاليين في هذا ، كثير من الفرنسيين الذين سحرت ألبابهم فتوحاتهم في إيطاليا في ميادين الحرب وآداب السلوك ، ولكن المتبربرين همجيين كانوا يتوقون إلى التمدن وارتقاء سلم الحضارة : وحذا رجال البلاط وسيداته والشعراء والمفسدون في الأرض من الفرنسيين حذو الإيطاليين ونهجوا نهجهم : وسار الإنجليز الهويناء خلفهم : وترجم كتاب كامبليوني « رجل البلاط » (١٥٢٨) إلى الفرنسية في ١٥٣٧ ، وإلى الإنجليزية في ١٥٦١ ، واختلقت الدوائر الأدبية

على تعريف الرجل المهذب : ولقيت كتيبات آداب السلوك رواجاً كبيراً .
ولقد ألف لارزم واحداً منها : وأصبح الحديث فناً في فرنسا ، كما كان فيما بعد
في حانة مرميد في لندن (كان يجتمع فيها بن جونسون وشكسبير وغيرهما
من الكتاب . في عصر اليزابيث) : وعبرت مباريات الأجوبة البارة
السريعة جبال الألب من إيطاليا حول الوقت الذي انتقل فيه كذلك فن
المبارزة بالسيف . وكان الحديث أكثر صقلاً وتهذيباً في فرنسا عنه في
ألمانيا . وكان الألمان يسحقون الرجل بالفكاهة ، أما الفرنسيون فكانوا يمزحونه
في ذكاء وفطنة . وكانت حرية الكلام وسيطاً أساسياً في ذلك العصر .

ومنذ كان تحسين المظهر الخارجى أيسر من تهذيب النفس ، فإن الطبقات
الصاعدة في المدينيات الناشئة في الشمال أولت ملابسها قسطاً أكبر من العناية .
وارتدى عامة الناس ملابس بسيطة للغاية — كما نرى في جواهر بروجل
(مصور فلمنكى) : قبعات على شكل الفنجان ، وبلوزات فضفاضة ذوات
أكمام منتفخة ، وسراويل (بنطلونات) ضيقة تصل إلى الأحذية المريحة ،
ويتركز هذا التشكيل البشع على حقيبة قبيحة ، مزدانة بزخارف براقية ،
تتدلى أمام انفراج ساقى الرجل . أما الرجال الموسرون في ألمانيا فقد غلفوا
أجسامهم الجبارة في طبقات كثيرة فضفاضة من القماش ، تعلوها قبعات عريضة
تبدو فوق الرأس وكأنها فطيرة ذات مصاطب أو طبقات . أما نساء ألمانيا ،
فالظاهر أنه كان محرماً عليهن أن يلبسن إلا زى مديرات النزل أو الطباخات .
وفي إنجلترا أيضاً كانت ملابس الرجال أبجل وأكثر بهجة من ملابس النساء ،
حتى جاءت الملكة اليزابيث فبزتهم بما ارتدته من أزياء لا يحسبها العد .
وجرى هنرى الثامن شوطاً بعيداً في الإسراف في ملابسه ، وكان يحملها
وزيرها بالألوان والحلى والأنسجة الثمينة . ويقول هولشيد إن دوق بكنجهام
كان يرتدى — في زواج الأمير آرثر من كاترين أوف أراجون — عباءة

من شغل الإبرة ، مغطاة بفراء السمور ، قدرت بنحو ١٥٠٠ جنيه (١٥٠٠ ر ١٥٠٠ دولار؟) ، وحرمت القوانين على أى رجل دون رتبة فارس ، أن يقلد فخامة الملابس التى يرتديها من هم أعلى منه مكانة . وغطت الإنجليزيات أجسامهن بالملابس الضيقة من العنق إلى أخمص القدم ، ذات أكمام تصل إلى المعصم ، مع زركشة بالفراء على حروف الثياب ، وأحزمة مثبتة بحلى معدنية ، وقلادة أو مسبحة ، وكانت النساء بصفة عامة تلبس من المجوهرات أقل مما يلبس الرجال :

وفى عهد فرانسوا الأول الذى كان يقدر الشيء حق قدره ، فتحت النساء الفرنسيات الجزء الأعلى من ثيابهن وكشفن عن صدورهن المنتفخة ، وشققن أرديتهن إلى آخر فقرة من ظهورهن . وإذا لم ينتفخ الصدر الطبيعى إلى حد كاف ، وضعن عليه مشدأ يجعله عاليا منتفخا (٧٢) ، وضيقن الملابس وأحكمت فيما تحب الثديين ، وضغطت على الخصر (٧٣) ، مع أكمام منتفخة ، وانشرت من التنورة أسلاك من الخلف وعلى الحافة . واضطرتن الأحذية العالية الكعوب إلى المشية المتبخرة الرشيقية . وكان يباح للمرأة ذات المكانة العالية - وليس لغيرها - أن يكون لثوبها ذيل ، وكلما ارتفع قدرها زاد طول الذيل . وقد يطول الذيل ، إذا سمحت مرتبة الشرف ، إلى سبع ياردات ، وكان يمشى وراء السيدة وصيفة أو خادم يمسك به ويرفعه عن الأرض . وفى طراز آخر الأزياء قد تغطى السيدة رقبتها بطوق أحكم شده بأسلاك ، وعذب الرجال أنفسهم بشيء غريب مماثل فى المناسبات الرسمية ، وفى ١٥٣٥ لخط سرفيتس « أنه لنساء أسبانيا عادة قد يظن فى فرنسا أنها همجية ، تلك هى أنهم كن يثقبن آذانهم ويعلقن فيها أقراطا ذهبية غالبا ما تكون مرصعة بالأحجار الكريمة » (٧٤) . وما جاءت سنة ١٥٥٠ حتى كانت نساء فرنسا تلبس الأقراط ، بل حتى الرجال كذلك (٧٥) . واستمرت الجواهر والحلى

محتفظة بسلطانها منذ زمن سحيق . وارتدى الرجال في فرنسا قمصانا من الحرير مع صدارات من القطيفة ، وحشوا أكفاهم ، وكسوا أرجلهم بسرويل قصيرة ضيقة ، وحافظوا على رجولتهم بحقيبة منضدة بالأشرطة أو الجواهر أحيانا . وعلى النقيض من عادات القرن الخامس عشر قصروا شعر الرأس وأرخوا لحاهم . أما النساء فقد احتفظن بشعرهن في تصفيفات متنوعة لا تشجع على وصفها . فكان مضمفراً معقوصاً ملفوفاً في شبك ، مليئاً بالصفائر العارية ، مزداناً بالأزهار ، براقاً بالجواهر ، مضممخاً بالزهور العطرية ، مصبوغاً ليمشى مع الأناقة وأسلوب العصر ، ومرفوعاً على شكل أبراج أو أهرام فوق الرأس ، وكان من غير الممكن أن تستغنى السيدة الأنيقة عن الحلاق في هذا الزمان ، فإن تقدم العمر بدا آنذاك قدراً محتوماً أسوأ من الموت ،

وإلى أى حد كانت الأجسام نظيفة تحت هذه اللثائف والزخارف ؟ لقد تحدث كتاب من القرن السادس عشر عنوانه « مقدمة للسيدات الشابات » عن « نساء لم يعنين قط بنظافة أجسامهن ، اللهم إلا الأجزاء التي يمكن أن تقع عليها العين . . . أما ماتحت قمصانهن الكتانية فقد بقي قلراً » (٧٦) . وثمة مثل سآخر يقول بأن العاهرات هن الوحيدات اللاتي غسلن أكثر من وجوههن وأيديهن (٧٧) . وربما ازدادت النظافة بازدياد الفسق والفجور . فقد كشفت النساء من أجسامهن عن أجزاء أكثر من ذى قبل ، وجعلنها نهياً لأنظار الكثير من الناس . ومن ثم اتسع نطاق النظافة ، وأصبحت آنذاك كثرة الاستحمام ، مع تفضيل الماء المعطر ، وخاصة في فرنسا ، جزءاً من العادات الطيبة . وقل عدد الحمامات العامة يتضاعف عدد الحمامات الخاصة ، ولم تكن هذه عادة مزودة بالمياه الجارية ، بل اعتمد فيها على السلطانية (الكوز) والحوض . وظلت شائعة مستحبة في القرن

السادس عشر ، حمامات البخار التي كانت قد جاءت إلى أوروبا الغربية بعودة الصليبيين إليها في القرن الثالث عشر .

وفي البلاد البروتستانتية حل البيت تقريبا محل الكنيسة ، كمركز للعبادة والصلوات . وأدى الوالد مهمة الكاهن في الصلوات اليومية وتلاوة الإنجيل والترانيم ، وعلمت الأم أبناءها مبادئ العقيدة الدينية . وفي الطبقات المتوسطة سارت الرفاهية جنبا إلى جنب مع التقوى والتدين . فهذا هو العصر الذي تطورت فيه المنضدة ذات الحوامل والألواح الخشبية الملتحمة بعضها ببعض إلى وحدة ذات أرجل متينة ، وتطور المقعد الخشبي والوسائد إلى كرسى مزيج « منجد » وسرير منقوش ذي أربعة قوائم ، فوقه ظلة — وأصبح كل أولئك رمزا للاستقرار الأدبي واليسار المالي . وصنع الأثاث والأطباق والمدافئ وأدوات المطبخ لتحتمل بل وتحفظ ببريقها لعدة أجيال . وحلت الأطباق المعدنية محل الأطباق الخشبية ، كما حلت الملاعق المصنوعة من القصدير أو الفضة محل تلك المصنوعة من الخشب . وكانت البيوت واسعة فسيحة لأن الأسرات كانت كبيرة ، لأن النساء كن يلدن في كل عام تقريبا ، ولكن دون جدوى ، لأن نسبة الوفيات بين الأطفال كانت عالية ؛ وكان جون كولد أكبر اثنين وعشرين طفلا . وحين بلغ سن الثانية والثلاثين ، كان كل إخوته قد ماتوا . وكان لأنطون كوبرجر صاحب المطبعة في نورمبرج — خمسة وعشرون طفلا ، وقد عمر هو بعد موت اثني عشر منهم ، وكان ديرر واحداً من ثمانية عشر طفلا ، يبدو أن ثلاثة منهم فقط بلغوا سن الرشد (٧٨) . واستكمالا للأسرة كانت هناك حيوانات منزلية مدللة كثيرة قدر كثرة عدد الأولاد تقريبا . وكانت البيغاوات قد جاءت من جزر الهند الغربية . وكانت القردة التي أحضرت من الهند أليفة أثيرة في البيت (٧٩) . وكان هناك كثير من الكتب التي تعلم النساء والأطفال طرق العناية بالكلاب والطيور وتربيتها .

وكانت وجبات الطعام هائلة . ولم تكن الخضروات مستساغة ، بل كان الناس يزدرونها ، ثم أقبلوا عليها شيئاً فشيئاً . وشاع آنذاك أكل الكرنب والجزر والخس والراوند والبطاطس والفول والفريز . وكانت الأكلة الرئيسية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وتأخر العشاء إلى الساعة مساءً ، وكلما سميت الطبقة تأخرت ساعة تناول العشاء . وكانت الجمعة والنيبند هما المشروبان الرئيسيان في كل وجبات الطعام حتى الإفطار . وكان من طرق توماس مور إلى الشهرة أنه تناول الماء بديلاً عنهما ، وحوالي ١٥٥٠ استنحضر الأسبان الشكولاته (الكاكاو) من المكسيك ، ولم يكن البن قد تقاطر بعد من بلاد العرب إلى أوروبا الغربية . وفي ١٥١٢ حددت أميرة دوق نورثمبرلاند ربع جالون من الخبث لكل فرد فيها في كل وجبة طعام حتى الأولاد في سن الثامنة . وكان استهلاك الخبث في كوفنترى في القرن السادس عشر ربع جالون يومياً لكل رجل وامرأة وولد (٨٠) . وقد اشتهرت مصانع الخبث في ميونيخ منذ القرن الرابع عشر (٨١) ، وكان شرب الخمر شائعاً في إنجلترا حتى جاءت « ماري اللعينة » (ماري تيودور ١٥١٦ - ١٥٥٨) فاستهجنته . ولكنه ظل مألوفاً في ألمانيا ، وتناول الفرنسيون الخمر في ائزان أكثر ، لأن الجو عندهم لم يكن بارداً إلى هذا الحد .

وعلى الرغم من الفقر والظلم ، استمر الناس يتمتعون بكثير من نعم الحياة ، وحتى الفقراء أنفسهم كان لهم حدائق ، وأصبحت زهرة التوليب هواية وطنية في هولندا ، وكان قد أحضرها لأول مرة حوالي ١٥٥٠ بوسبك سفير الإمبراطور في القسطنطينية . وكانت البيوت الريفية نمطاً ساراً في إنجلترا وفرنسا . وظل القرويون يخفون بأعيادهم الموسمية في عيد الربيع (أول مايو) ، عيد الحصاد ، عيد كل القديسين ، وغيرها كثير ، واحتفل الملوك بعيد الربيع وتوجوا أنفسهم بأكاليل

الزهور ، وكان فيما يتسلى به سراة القوم أحياناً مهرجانات مثيرة للفقراء ، من ذلك عندما دخل هنرى الثامن ليون فى احتفال مهيب فى ١٥٤٨ ، وربما كان جمهور الشعب يشهد على مسافة معقولة ، اللوردات فى مباريات السيوف — وقد بذلت هذه الرياضة بعد موت هنرى الثانى : وأصبحت المواكب الدينية أكثر وثنية ، عند اقتراب عهد هنرى الثامن من عصر إليزابث ، وفى القارة أباحت الاخلاقيات المتساهلة للنساء العرايا أن يمثلن بعض الشخصيات التاريخية أو الأسطورية ، واعترف ديرر بأنه هو نفسه افتتن بمثل هذا العرض فى أنورب ١٥٢١ (٨٢) .

وكانت هناك الألعاب : وقد أفرد رابليه فصلاً لتسجيلها ، فعلية أو خيالية . وصور بروجل نحو مائة منها فى إحدى لوحاته . وكان فى تعذيب الدببة ومصارعة الثيران ومصارعة الديكة تسلية للجمهور ، وروضت كرة القدم ولعبة الكرات الخشبية والملاكمة والمصارعة شباب العامة ، وطردت عنهم الأرواح الشريرة ، وكان فى باريس وحدها ، للطبقة الأرستقراطية ، فيها ١٥٠٢ من الملاعب للتنس ، فى القرن السادس عشر (٨٣) . ومارست كل الطبقات الصيد ، ولعبت الميسر ولعبت بعض السيدات النرد : ولعب بعض الأساقفة الورق بنقود (٨٤) . وتجول الممثلون المهرجون والبهلوانات واللاعبون فى الريف ، وعرضوا أفالينهم وألعابهم على اللوردات نظير جعل يتقاضونه . وفى داخل البيوت لعب الناس الورق والشطرنج والنرد وعشرات من الألعاب غيرها ، وكان الرقص أحب أنواع التسلية : ويقول رابليه « وذهب الجميع بعد العشاء إلى الأيكة ، الممتلئة بالصفصاف ، يلاحق بعضهم بعضاً ، وهناك على العشب الأخضر ، على الأنغام الشجية من المزمار وموسيقى القرب رقص الجميع برشاقة ، فكانت رياضة لطيفة سماوية يلد للإنسان مشاهدتها (٨٥) : وفى يوم عيد الربيع فى إنجلترا كان أهل القرية يتجمعون حول وعمود مايو »

المزین بالأزهار والأشرطة بشكل هيج ، ورقصوا رقصاتهم الساذجة الممثلة
حيوية ، ويبدو أنهم بعد ذلك راحوا يقبلون ويعانقون بعضهم بعضاً مما يذكر
بعيد فلورا إلهة الزهور عند الرومان . وكانت ألعاب عيد مايو في عهد هنري
الثامن تشمل « الرقص العربي » الذي كان قد جاء من عرب أسبانيا عن طريق
الرقصة الإسبانية « فندنجو » بالصنوج . ورقص الطلبة في أكسفورد وكبردج
في مرج بالغ الصخب ، إلى درجة أنه كان لا بد من أن يحرم وليم ويكهام
هذا الحبث بالقرب من تماثيل الكنيسة ؛ وأقر لوثر الرقص ، واستساغ بنوع
خاص « الرقصة الربيعية » مع الانحناءات الودية والعناق والتمايل الرقيق ،
بين المشتركين في الحلية « (٨٦) » ورقص ملانكتون الوقور : وفي ليزج في القرن
السادس عشر أقام الآباء في المدينة بانتظام حفلات راقصة حتى يتمكن الطلبة
من التعرف على « أشرف وأجمل بنات ذوى المكانة وأعضاء السناتو
والمواطنين » (٨٧) . وكثيراً ما ترأس شارل السادس حفلة الرقص في البلاط
الفرنسي : واستقدمت كاترين دى مديتشى إلى فرنسا راقصات إيطاليات ،
وهناك في أخريات أيام الملكة الأم التمسعة ظهرت رقصات أرسنقراطية جديدة :
وقال جان تابورو ، في كتاب من أقدم الكتب عن فن من أقدم الفنون :
« إن الناس كانوا يمارسون الرقص ليروا هل يتجمع الحبيبان بصحة جيدة ،
وهل يناسب كل منهما الآخر ، وفي نهاية الرقص كان يسمح للشباب أن يقبل
خطيبته ليستوثق من أن رائحة أنفاسها طيبة . . . وهذه الطريقة يصبح
الرقص ضرورياً لبساسة المجتمع سياسة حسنة (٨٨) » ؛ وتطورت الموسيقى بفضل
مصاحبة الرقص ، من الأشكال الصوتية وجوقة المنشدين إلى استخدام الآلات
وتأليف الألحان ، مما جعلها فناً بارزاً ذا شأن في عصرنا :

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ - ١٥٦٤

١ - الآلات

إن شعبية الموسيقى في تلك القرون لتصحح وتلطف من النغمة الكثيرة الحزينة التي يميل التاريخ إلى أن يضيفها على تلك الحقبة ويقرنها بها . وإنا لنسمع الناس ، من آن لآن ، يغنون في غمرة الثورة الديلية وما اتسمت به من إثارة ومرارة : وكتب صاحب المطبعة العاطفي اتين دوليه « إلى لأعياً بشيء من ملذات الطعام والألعاب ، والحب ، ولكن الموسيقى وحدها تأسرنى وتأخذ بمجامع قلبي ، وتذيني في نشوتها » (١) . ومن النغمات الصافية المنبعثة من صوت إحدى الآنسات أو مزار جيد ، إلى فن مزج الألحان المتعددة الأصوات عند ذبريه Deprés أو بالسترينا ، عوضت كل الأمم وكل الطبقات بالموسيقى عن الروح التجارية وعن اللاهوت في ذاك العصر . ولم يغن كل فرد فحسب ، ولكن فرانتيسكو لاندينوشكا من أن كل فرد لحن وألف (٢) . وبين الأغاني الشعبية البهيجة أو الحزينة في القرية إلى القداسات الكبيرة المهيبة في الكنيسة ، ظهرت مئات الأشكال الموسيقية التي استخدمت لإيقاعاتها في الرقص والحفلات والولائم والمغازلات والبلاط والمواكب والمهرجانات والصلوات . لقد غنى العالم بأسره .

وكان يواكب تجار أنتورب كل يوم إلى السوق المالية فرقة موسيقية ه ودرس الملوك الموسيقى ، لا باعتبارها امتيازاً لطيفاً أو ميكانيكياً ، بل لأنها

ممة المدنية ومنبع من منابعها . وتحمس ألفونسو العاشر ملك أسبانيا وثابر على جمع الأغاني للسيدة العذراء ، وتودد جيمس الرابع ملك اسكتلنده إلى مارجريت تيودور بموترة المنتائج (آلة موسيقية تعتبر الأصل الذى تطور عنه البيانو Clavichord) والمزهر (العود) . واصطحب شارل الثامن ملك فرنسا معه فرقة المنشدين الملكية فى حملاته على إيطاليا . وغنى شارل الثانى عشر بأعلى صوته مع فرقة المنشدين فى البلاط : وألف ليو العاشر بعض الأغاني الفرنسية^(٣) . أما هنرى الثامن وفرانسوا الأول فقد تودد كل منهما إلى الآخر وتحمده باستخدام فرق المنشدين المتنافسة فى ساحة Cloth of Gold . ووصف لويس ميلان البرتغال فى ١٥٤٠ بأنها « بحر حقيقى من الموسيقى »^(٤) . وكان لبلاط ماتياس كورفينوس فى بودا فرقة منشدين قدروا أنها تعادل فرقة البابا ، وكان فى كراكاو على عهد سيجسمند الثانى مدرسة عظيمة للموسيقى ، وكانت ألمانيا تعج بالغناء عندما كان لوثر شاباً : كتب الإسكندر أجريكولا ١٤٨٤ يقول : « إن عندنا هنا فى هيدلبرج مغنين يرأسهم رجل يستطيع أن يلحن لثمانية أصوات أو اثنى عشر صوتاً »^(٥) . وفى ماينز ونورمبرج وأجزبورج وغيرها من المدن ظل « راعى الشعر والموسيقى » يزين الأغاني الشعبية والقطع الإنجيلية بأبهة المتهذلقين وزخارف فن مزج الألحان ، وربما كانت الأغاني الشعبية الألمانية أفضل مثيلاتها فى أوروبا . وكانت الموسيقى فى كل مكان مهجاز التقي وشرك الحب :

وعلى الرغم من أن كل الموسيقى تقريباً كانت فى هذا العصر صوتية ، فإن الآلات المصاحبة كانت متنوعة قدر تنوعها فى الفرق الموسيقية الحديثة . وكانت هناك آلات وترية مثل الشنطير (آلة موسيقية قديمة تشبه القانون) ، والقيثار ، والقانون ، والشوم (آلة موسيقية خشبية قديمة) ، والعود ، والفيلول (وهو نوع من الكمان) . ثم آلات النفخ مثل الناي ، والمزمار ،

والزنجير (مزمار ذو أنبوبة خشبية مز دوجة وفم معدنى ملتو) ، والبوق ،
والترددة (الترومبون) والبوق (شكل قديم آخر) ومزمار القرب ، ثم
آلات النقر مثل الطبل والجرس ، والمصفقة والمخشخشة والصنوج
بأنواعها ، ثم الآلات ذات المفاتيح مثل الأرغن ، وموترة المفاتيح ،
والبيان الفيشارى ، والسببنت (تشبه البيان) ، والمعدراوية (شبيهة ببيان
صغير ليس له قوائم) ، وكانت هناك أنواع أخرى كثيرة ، وكان للعديد
منها متنوعات فانتة شتى اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، وكان فى
كل بيت مثقف واحدة أو أكثر من الآلات الموسيقية . وكان فى بعض
البيوت خزائن خاصة لحفظها ، وكثيراً ما كانت هذه الآلات تحفأ فنية
منقوشة نقشاً محبباً يرضى الخيال والدوق ، تتوارثها الأسرات جيلاً بعد
جيل بوصفها ذخائر وتذكارات ثمينة ، وكانت بعض الأراغين مصنوعة
بشكل بارع محكم ، قدر البراعة والإحكام فى واجهات الكاتدرائيات
القوطية . وخالد ذكر الرجال الذين صنعوا الأراغين لبعض الأسرات
الحاكمة الألمانية فى نورمبرج لمدة قرن من الزمان . وكان الأرغن هو الآلة
الموسيقية الرئيسية المستخدمة فى الكنيسة ، وإن لم تكن الوحيدة ، بل
كان هناك أيضاً المزمار ، وموسيقى القرب والطبول والترددة
(الترومبون) ، بل حتى الطبلة النقارية ، وكلها تدعو بأدواتها
المتنافرة إلى الصلاة والعبادة .

وكان العود هو الآلة المفضلة لمصاحبة مغن واحد ، وهو من أصل
آسيوى ، شأنه فى ذلك شأن كل الآلات القوتية ، وجاء مع المغاربة إلى
أسبانيا ، وهناك ، مثل الفهيو لا ، (نوع من الكمان) ارتفع شأنه
حتى صار الآلة الوحيدة المستعملة ، التى ألفت من أجلها أقدم موسيقى
آلية خالصة معروفة . وصنع جسمه عادة من الخشب والعاج ، على
شكل الكمثرى ، وزود بجوفه بثقوب على شكل وردة ، وكان له ستة ،

وفى بعض الأحيان اثنا عشر زوجاً من الأوتار تنقر بواسطة الأصابع ، وكان عنقه مقسماً بعتبات من النحاس إلى سلم مدرج ، وملواه منحرف إلى الخلف من العنق . وإذا أمسكت غادة حسناء بالعود فى حضنها وداعبت أوتاره بأناملها وأضافت صوتها إلى أنغاسه لاستطاع كيوييد أن يوفر سهماً . ومهما يكن من أمر فقد كان من العسير الاحتفاظ فى العود بدرجة النغم الصحيحة لأن استمرار شد الأوتار يسبب التواءها وتشويهها . وقال أحد الظرفاء إن عازف عود عجوز بلغ من العمر ثمانين عاماً ، قضى منها ستين عاماً فى ضبط النغم فى عوده (٦) .

واختلف الكمان (الفيول) عن العود فى امتداد أوتاره على مشط ، وأن العزف عليه بواسطة قوس ، ولكن القاعدة الأساسية واحدة فيهما — ذلك أن ذبذبات الشد ترتطم بالأوتار فوق صندوق ذى ثقب لتعميق الصوت . وصنعت الفيول على ثلاثة أحجام : الكبير وهو باس فيولا داجامبا ، وكانوا يمسكون به بين الأرجل مثل البديل الحديث له — الفيولونسيل Violoncello ، والصغير وهو الفيول العالى النغم (فيولا دابراكسيو) ، ويمسكون به على المذراع . وأخيراً الفيول المثلث ، وفى القرن السادس عشر تطور النوع الثانى (فيولا دابراكسيو) إلى الكمان . وفى القرن الثامن عشر بطل استعمال الفيولا .

وكان الاختراع الأوروبى الوحيد فى الآلات الموسيقية هو لوحة المفاتيح التى تطرق بواسطة الأوتار بطريق غير مباشر ، بدلا من نقرها أو حنيها مباشرة ، وأقدم الأشكال المعروفة ، وهى موترة المفاتيح Clavichord ظهرت لأول مرة فى القرن الثانى عشر ، وقد عمرت حتى عداها جوهان سباستيان باخ : وأقدم نموذج باق لها (١٥٣٧) محفوظ فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك ، وصنع فى القرن الخامس عشر نوع أقوى هو

البيان القيثارى harpsichord ، وقد ممكن من تعديل الأنغام باختلافات الضغط ، وأخيراً في بعض الأحيان لوحة ثانية للمفاتيح ، لتوسيع سلم النغم : وساعدت الوفقات والنفقات على إبداع مميزات الصوت ، وكان الأسبند Spinet والعندراوية Virginal - والأول إبطال والثانية شبه إنجليزية سكان مختلفين من البيان القيثارى ، وكانت الآلات ذات المفاتيح مثل الفيول والعود ، تحظى بأعظم التقدير لجمالها ونغماتها معاً . وكانت تشكل عنصراً جديلاً من عناصر البهجة والزينة في بيوت الأغنياء .

ولما تقدمت الآلات من حيث مدى النغم ونوعيته ، ومن حيث تعقد عملها ، تطلب النجاح في العزف عليها المزيد من الماران والمهارة ، وازداد عدد الجمهور في الحفلات التي يكون العزف فيها على آلة واحدة أو أكثر ، دون أن يكون فيها غناء ، وبرز هازفون على الأرغن والعود . وارتحل كونراد بومان Paumann (المتوفى ١٤٧٣) عازف الأرغن الضرب في نورمبرج من بلاط إلى بلاط ، وأقام حفلات موسيقية ، استحق لبراعته وامتيازه فيها لقب فارس . وشجعت أمثال هذه التطورات على تأليف الموسيقى من أجل الآلات وحدها . ومن الواضح حتى القرن الخامس عشر ، أن كل الموسيقى الآلية تقريباً كان قد قصد بها أن تصاحب الغناء أو الرقص ، ولكن هناك في هذا القرن عدة لوحات تعرض بعض الموسيقيين يعزفون دون أن يرى فيها أثر لغناء أو رقص ، وأقدم ما بقى من الموسيقى للآلات وحدها هي « جاميساندى Gamisandj » (١٤٥٢) ، وهي لكونراد بومان ، وقد ألفت في الأصل لتوجيه العزف على الأرغن ، ولكنها شملت أيضاً عدداً من القطع للعزف المنفرد ، وأنقص تطبيق أوتافيانو دى بروسكى للحروف المعدنية المتحركة في طبع الموسيقى (١٥٠١) تكاليف نشر تأليف الموسيقى الآلية وغيرها ، واقتصرت الموسيقى الموضوعة للرقص على عروض مستقلة ، ومن ثم كان تأثير أشكال الرقصات على الموسيقى الآلية . وأدت ألجان « الحركات »

المؤلفة لسلسلة متعاقبة من الرقصات إلى ظهور السيمفونية والموسيقى الرباعية ،
التي احتفظت أجزاءها أحياناً بأسماء الرقصات ، وفضل العود والغبول
والأرغن والبيان القيثاري للعزف المنفرد أو عزف الأوركستر ، وتمتع
ألبرتو داريبا في بلاط فرتسوا الأول وهنرى الثانى بشهرة عظيمة كعازف
على العود ، إلى حد أنه عند ما توفى أنشد شعراء فرنسا الترانيم الحزينة
على قبره .

٢ — سيطرة الموسيقى الفلمنكية

١٤٣٠ — ١٥٩٠

كانت الأغاني والرقصات الشعبية هي المعين الذى لا ينضب الذى اشتقت
منه أشكال الموسيقى غير الكنسية أصولها وصيغها وموضوعاتها الرئيسية ،
حتى القداسات ، ربما اشتقت منها بعض الأغاني القصيرة مثل « وداعاً
يا أحبائى » ، وتنوعت الأغاني الفرنسية من الأغاني التوقعية للمغنين فى
الشوارع ، وأغاني الشعراء الغنائيين البسيطة (التروبادور) إلى أغاني غليوم
دى ماشو وجوسكوين دبريه المعقدة المتعددة الأصوات .

وكان ماشو (١٣٧٧ — ١٣٠٠) سيد ذلك « الفن الجديد » الذى كان
قد بسطه وشرحه فيليب دى فيتري فى ١٣٢٥ — وهو عبارة عن موسيقى
استخدمت الإيقاع الشائى بالإضافة إلى الإيقاع الثلاثى ، وهو ما أقره « الفن
القديم » والكنيسة . وكان ماشو شاعراً وعالمًا وموسيقياً وكاهناً فى كاتدرائية
ريمس ، وربما كان كذلك رجلاً مموهاً حماساً وغيره ، لأنه كتب بعض قصائد
الحب الغنائية التى لم تهدأ حرارتها بعد . وبرع فى اثنى عشر شكلاً موسيقياً
من الأغاني الراقصة والعاطفية ، والقصائد الغنائية ذات اللازمة المتكررة
والقصائد الغزلية ، والقصائد الدينية ، وموسيقى القداس ، ويعزى إليه
أقدم قداس متعدد الأصوات — لحنه رجل واحد . وأسهم ، ولو أنه من

رجال الكنيسة ، في حركة صبغ الموسيقى المتعددة الأصوات بالصبغة العلمانية وإخراجها من حيز إيقاع القصائد الدينية والفنداس إلى الإيقاع الأكثر انطلافاً ومرونة في موسيقى الأغاني العلمانية .

وفي تلك القرون كان الإنجليز موسيقيين ، ولكنهم لم ينافسوا الإيطاليين في اتساق الأصوات في اللحن (ومن ذا الذى ينافسهم ؟) ، ولا الفلمنكيين في تعدد الأصوات ، ولكن أغانيهم ، بين الحين والحين ، بلغت من العذرية والرقّة حدّاً لا يضارعهم فيه إلا أعمق الأغاني الفرنسية . وقوبل المغنون الإنجليز في مجلس كنستانس بالتهليل والتهافت ، وفي هذا الجليل ألف هنرى الخامس بطل أجنيكورت ، قداساً لا يزال يحتفظ بعظمته وقداسته . وكانت المقطوعات التى ألفها جون دنستابل (١٣٧٠ - ١٤٤٣) تعزف في كل البقاع من اسكتلنده إلى رومه . ولعبت دوراً في تشكيل أسلوب المدرسة الفلمنكية .

وكما كانت الفلاندر قد استهلّت فن التصوير في القرن الخامس عشر ، كذلك شهدت الموسيقى فيها عصرأ من أبهى وأعظم عصورها ، في وسط النبلاء والمواطنين الأثرياء المحبين للفنون . وكتب جوهانس فروير **Johannes Verwere** حوالى ١٤٩٠ يقول : « عندنا اليوم - إلى جانب العدد الكبير من مشاهير المغنين ، يظهر إلى الوجود ، عدد لا حصر له تقريباً ، من الملحنين الذين تتميز أعمالهم بعذوبة الصوت ، وما سمعت أو نظرت إلى نأليفهم إلا ابتهج قلبى (٧) » . وربما وضع المعاصرون دوفاي وأوكيجم ودبريه في مرتبة سواء من سلم العبقرية والخير ، مع جان فان إيك وكلو سلوتر وروجيبر فان درويدن ، وهنا في تعدد الأصوات في المدرسة الفلمنكية ، عاشت أوروبا الغربية آخر طور من أطوار الروح القوطية في الفن : الورع الدينى الذى لطفه المرح الدنيوى والأشكال المتينة في قاعدتها وتركيبها ،

الغضة الرقيقة في تطويرها وزخرفتها . وحتى إيطاليا التي كانت معادية للفن القوطي ، انضمت إلى أوروبا الغربية في الاعتراف بتفوق الموسيقى الفلامنكية وسموها ، وفي الاسترشاد بالفلاندرز في تحسين موسيقى فرق المرنانين الأسقفية ، وفرق بلاط الأمراء . وألف الإمبراطور مكسيمليان الأول ، وقد سحرته موسيقى بروكسل ، فرقة للمرتلين في فيينا ، على نسق الفرق الفلامنكية . وأخذ شارل الخامس موسيقيين فلامنكيين إلى أسبانيا ، وأخذ الأرشيدوق فرديناند نفرا منهم إلى النمسا ، وأخذ كريستيان الثاني مجموعته أخرى منهم إلى الدنمرك . وقال كافالز البندقي « إن منبع الموسيقى في الأراضي المنخفضة » (٨) . وهذه السيطرة الفلامنكية اجتازت الموسيقى الاحترافية الحدود الضيقة التي وضعتها القومية في ذاك العصر .

وقاد الطريق غليوم دوفاي ، الذي ولد في هينوت Hainaut (١٣٩٩) وتدرّب كتلميذ منشد في كاتدرائية كمبراي ، وسما بفرقتها إلى مراتب الشهرة العالمية : وكانت القداسات التي أنشدتها هناك ، تزددها كل الأوساط الموسيقية في جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني . وقد تبدو الألحان الباقية منها ثقيلة بطيئة في الأذان المرفهة الإحساس بخفة الحياة الحديثة وسرعتها ، ولكنها ربما كانت صالحة في الكاتدرائيات الضخمة وفرق المنشدين البابوية المهيبة : وهناك أغنية أكثر التماماً مع ذوقنا ، وهي أغنية متعددة الأصوات تنساب أنغامها الحزينة نسياناً رقيقاً « ولي النهار » The Day is going to sleep وقد نتخيل فرقة بملابسها الرسمية تغني مثل هذه الأغنية في الأروقة القوطية في كمبراي ، أو ليمبر أو بروكسل . أو بروجز أو غنت أو ديجون ، ونحس أن العماراة والتصوير والملابس والموسيقى وآداب السلوك في ذاك العصر الحماشي الزاهي النابض بالحياة ، شكلت جميعها كلاً مترابطاً فنياً متسقاً ، على حين أنها جميعها متنوعات تنتشر فيها فكرة رئيسية واحدة .

وتطورت أساليب درفاى وأذاعها فى كل أنحاء أوربا أعظم معلمى الموسيقى أثراً ، ربما فى أى عصر من العصور ، جوهانس أوكيجم ، الذى ولد فى فلاندرز (١٤٣٠) ، وقضى معظم سنى حياته يقدم الموسيقى ويعلمها فى بلاط فرنسا . وكان يهيم شغفاً بمقطوعة اسمها « canon » وهى شكل من أشكال الفوجّة ، يشكّل فيه الصوت (المغنى) الأول الكامات واللمن ، ويتلوه بعض الفواصل ، ثم يكرره الصوت الثانى ، ويتلوه فاصل ، ثم الصوت الثالث وهكذا ، فى طباق منسب ، تحدى تعقيده الجهد المغنين ، وسحر الملحنين ، وقد هرع إليه هؤلاء وأولئك من كل أقطار العالم الكاثوليكي لينهلوا من فيض مهارته الفنية وينقلوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وكتب مؤرخ قديم : « لقد نقل عن طريق تلاميذه إلى جميع الأقطار فن تعدد الأصوات الطباق وشكل الفوجّه سالف الذكر Canon وينبغى أن يعتبر أوكيجم — لأن ذلك يمكن إثباته بالتسلسل « الأسلوبى » — يعتبر مؤسس كل المدارس ابتداء من مدرسته إلى مدارس العصر الحالى (٩) . ولكن مذ كتب هذا فى ١٨٣٣ ، فإن أوكيجم لا يعتبر مسئولاً عن موسيقى القرن العشرين ، وعند وفاته ١٤٩٥ ألف موسيقبو أوربا مقطوعات حزينة تحليداً لذكراه ، وكتب له إرزم مرثية . إن الأسماء ، حتى أسماء الخالدين ، مكتوبة على الماء :

وأصبح تلاميذ أوكيجم زعماء الموسيقى فى الجيل التالى ، وقد قدم جوسكين دبويه من هينوت إلى باريس ، وتنازل لعدة سنوات على أوكيجم ، ثم اشتغل « رئيس فرقة الكنيسة » فى فلورنسه وميلان وفيرارا ، وكتب للدوق أركول الأول مقطوعة اسمها Miserere سرعان ما دوى صيتها فى كل أوربا الغربية ، وبعد سنوات ست قضاهما فى فرقة كنيسة سستين عاد إلى باريس (١٤٩٤) ليعمل رئيساً لفرقة لويس الثانى عشر . ومن أنبل أعماله « الحزن على جوهانس أوكيجم » وهى رثاء لأستاذه المتوفى ، وقد حذا

حدوه لبعض الوقت في تاجين القداسات والقصائد الديلية في شكل الفوجه التي أسلفنا ذكرها ، وهو يجمع الصوت على الصوت ، فيما يشبه المسائل الرياضية من حيث للتابع والاتساق . فلما اكتملت مهارته ، واستتب له السيادة في « فن الموسيقى » بلا منازع ، ترك التقنية ، وكتب قصائد وتراتيل دينية وأغنيات علمانية في طراز من الألحان أكثر بساطة ، أعقبت فيه الموسيقى الكلمات وزينتها ، بدلا من إرهاقها ، في فوجه سريعة التغير ، أو بدلا من مد المقطع إلى أغنية ، ولما قضى المعلم وتلميذه نحبهما ، أصبح من العادة أن يسمى أوكيجم « دوناتللو » ، وأن يسمى دبليه « ميكالنجو » الفن الموسيقى .

ورعى البلاط الفرنسي الموسيقى وشجعها باعتبارها زهرة الثروة والقوة ، ولقد صورت سجادة قديمة يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ١٥٠٠ ، وهي الآن محفوظة في متحف جوبلين في باريس ، أربعاً من السيدات وثلاثة من الشبان وراهباً أصلع ، مجتمعين في بستان حول نافورة ، وكان أحد الصبية يعزف على العود ، وإحدى البنات على القيثارة ، وكانت سيدة وقورة تعزف على أرغن سهل الحمل ، ولقد قصد الشعراء الفرنسيون أن تكون قصائدهم صالحة للغناء . وخصصت « أكاديمية القصر » لإحكام الاتحاد بين الموسيقى والشعر ، وحتى في عصرنا هذا ، لا يبدو الواحد منهما كاملاً بدون الآخر ، وتنفوق كليمنت جانكين - وهو أحد تلاميذ دبليه - في الأغاني الوصفية . ولا تزال أغنيته « أغنية القمبرة » (١٥٢١) تصدح فوق عدة قارات :

وعكست الموسيقى الأسبانية تقوى الشعب وبسالته ، لقد تراوح هذا الفن - بعد تهجينه وإخصابه بما دخل عليه من مؤثرات عربية وإيطالية وبروفانسية وفرنسية وفلمنكية - تراوح بين القصائد الأندلسية الخزينة التي يفسدها صوت واحد (المونودية) ، والقداسات العظيمة المتعددة الأصوات بالأسلوب الفلمنكي ؟ وسما واحد من أعظم ملحنى القرن السادس عشر ،

هو كريستوبال مورال بفن تعدد الأصوات إلى درجة عالية ، ونقل فنه إلى تلميذه الأكثر شهرة توماس لويس دى فكتوريا . وساركل^١ في اتجاه مضاد ، فأنتج التراث العربى الألحان الصالحة للعود ، ولحن لويس دى ميلان ومجول دى فونلانا ، Miguel de Fuenllana للكمان ، وعزف عليها أغنيات زاحت الأغاني الألمانية في مداها وقوتها .

واستمر الموسيقيون الفلمنكيون يقتحمون إيطاليا حتى ظهر بالسرتينا : واستقدم لورنزو دى ماديتشى إلى فلورنسه هنريخ إيزاك بعد أن استوعب فن الطباقي الموسيقى في الفلاندرز ، ليعلم أبناء العطاء ، ومكث هناك أربع سنوات ، وألف موسيقى لأغاني لورنزو . ولما أقض مضجعه الغزو الفرنسى لإيطاليا ، انتقل إلى خدمة مكسيمليان الأول في أنسبروك ، حيث ساهم في تشكيل الأغنية الألمانية ، وعاد إلى إيطاليا في عام ١٥٠٢ ، وخصص له الإمبراطور ليو العاشر تلميذه السابق معاشاً ، ووضعت قداساته وقصائده الدينية وأغانيه في مرتبة أعظم موسيقى العصر ، وعلى الأخص ثمان وخمسين مقطوعة ذات أربعة أجزاء ، لاحتفالات القداس طوال السنة الدينية .

وسما أورلاندو دى لاسو بالمدرسة الفلمنكية إلى الذروة ، وضرب بتوفيقه في مهنته وحياته أروع الأمثال ، لاتساع مجال الموسيقيين في عصر النهضة وارتفاع مستواهم الاجتماعى : وعند ما كان تلميذاً في فرقة المنشدين في موطنه هينوت سحر سامعيه ، إلى حد أن خطفه مرتين أولئك الذين تمنوا أن يستفيدوا من صوته ، وأخيراً ، وهوى سن الخامسة عشرة (١٥٤٥ ؟) ، سمح أبواه لفرديناند جونزاجا أن يصبح معه إلى إيطاليا . وفي سن الرابعة والعشرين أصبح رئيس فرقة المنشدين في كنيسة سانت جون لاتيران في رومه . وفي ١٥٥٥ استقر به المقام في أنتورب ، ونشر أول كتاب في القصائد الغزلية الإيطالية « ، وهى قصائد غنائية علمانية أضفى عليها كل

زحارف فن مزج الألحان الفلمنكى . وفى نفس العام أصدر مجموعة من أغان من أصل نابوليتانى (من مدينة نابلى) ومن الأغاني الفرلسية ، وأربع قصائد دينية قصيرة ، ولقد عكست هذه المجموعة التقلب المتسعم بالحكمة فى حياة دى لاسو ، بين المتعة الدنيوية والقوة الشجيرة ، ولما لنجد لحظة عن بيئته فى أنتورب فى إهدائه إحدى قصائمه إلى الكاردينال بول ، وأخرى إلى الكاردينال جرانفيل وزير فيليب الثانى فى الأراضى المنخفضة . وربما كان جرانفيل هو الذى هباً للملحن الشاب العمل فى إدارة فرقة المنشدين للدوق فى ميونخ (١٥٥٦) . وأحب أورلاندو بافاريا قدر حبه لإيطاليا ، واتخذ له زوجة من أحد البلدين ، كما اتخذ اسمه من البلد الآخر ، وعمل لدى أدواق بافاريا حتى الممات .

وضاعف أورلاندو السعيد ، موزار القرن السادس عشر ، الألحان الستمائة والستة والعشرين التى ألّفها نظيره ، ودرس سلم النغم فى كل الأشكال الموسيقية السائدة ، وأحرز فى كل منها شهرة فائقة فى كل أنحاء أوروبا ، وبدا أنه على نفس القدر من المعرفة والبراعة فى غزليات الحب النقى ، وأغاني الحب الطائش ، وقداصات الروع الصوفى . وعين فى ١٥٦٣ رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة ، وألف آنذاك لألبرت الخامس لحناً موسيقياً لمزامير التوبة السبعة ، وأعجب الدوق بهذه الموسيقى حتى أنه كلف الفنانين بتسجيلها على الورق « البرشمان » وزخرفتها بالمنمنمات ، وتجليدها بجلد الماعز الأحمر الفاخر فى مجلدين من القطع الكبير ، محفوظين الآن ضمن أثمن مقتنيات مكتبة الدولة فى مدينة ميونيخ المحبة للفنون .

واجتذبت أوروبا كلها النجم الجديد ، وعند ما زار دى لاسو باريس (١٥٧١) عرض عليه شارل التاسع ١٢٠٠ جنيه سنوياً (٣٠٠٠٠ دولار ؟) سنوياً ، ليبقى عنده ، فرفض ، ولكنه أهلى شارل وكاترين دى مديتشى

كتاباً في الأغاني الفرنسية ، يقول عنه براتوم إنه من أعذب ما سمعت
باريس ، وقد روت إحدى الأغنيات مناقب العاصمة الفرنسية في حبها
للعدالة والسلام - وكان هذا قبل مذبحة سانت يرثلميو بعام واحد . ولما عاد
دى لاسو إلى ميونيخ أهدى إلى آل « uggers » مجموعة من القصائد
اللاتينية القصيرة والغزليات الإيطالية والأغاني الألمانية والأغاني الفرنسية ،
إن هذا الملحن لم يكن صعلوكاً رومانتيكياً ، بل كان خبيراً بأساليب الحياة
في الدنيا . وفي عام ١٥٧٤ سافر إلى رومه على نفقة الدوق ألبرت ، وأهدى
جريجورى الثالث عشر مجلداً من القداصات ، وتسلم منه « وسام المهماز
الذهبي » بل إن الله خص أعمال دى لاسو بأعظم التقدير ، ذلك أنه في يوم
عيد الجسد (١٥٨٤) هبت عاصفة هوجاء هددت بإلغاء الموكب الدينى
الذى اعتاد اجتياز شوارع ميونيخ ، وعندما عزفت فرقة المنشدين مقطوعة
أورلاندو « تأمل وانظر كيف أن الله كريم » ، انقطع المطر وأشرقت
الشمس . وفي مثل هذا اليوم ، فيما بعد ، كانت تلك المقطوعة تعزف ،
لتضمن سماحة السموات .

وفي ١٥٨٥ عندما كبرت سن دى لاسو ، وثاب إلى التوبة ، نشر
« كتابه الخامس في الغزليات » الذى طبق فيه الشكل على الموضوعات
الروحية ، وهى من أعظم ألحانه إثارة للمشاعر . وبعد ذلك بخمس سنوات ،
الثالث عقله وغاب عنه وعيه ، فلم يعد يعرف زوجته . وكاد لا يتحدث في
شيء إلا الموت ، ويوم الحساب الأخير ، وزيادة الراتب : وحظى بهذه
الزيادة ، ومات (١٥٩٤) فائزاً ظافراً مخبواً .

٣ - الموسيقى والإصلاح الدينى

كان الإصلاح الدينى ثورة في الموسيقى ، قدر ما كان ثورة في
اللاهوت والطقوس وعلم الأخلاق والفن : لقد كانت الطقوس الكاثوليكية

أرسقراطية ، أو شعائر فخمة متأصلة في تقاليد منيعة لا تنتهك حرمتها ، متعالية تعالياً صريحاً عن الشعب ، في اللغة والملابس والرموز والموسيقى ؛ وبهذه الروح ، عرّف رجال الدين أنفسهم بأنهم الكنيسة ، وذهبوا إلى أن الناس قطيع يساق إلى حسن الخلق والخلاص بالخرافات والأساطير والعظمت والمسرحيات وكل الفنون . وبهذه الروح كلان القداس سرّاً خفياً مقصوراً فهمه على فئة قليلة ، واتصالاً خارقاً بين الكاهن والرب . وكان الكاهن يرتل القداس ، ومعه فرقة المُنشدين من الذكور ، منعزلة عن المصلين . ولكن في الإصلاح الديني فرضت الطبقات الوسطى وجودها وحقوقها ، وأصبح الشعب هو الكنيسة ، ورجال الدين ممثلية ، والقداس باللغة الوطنية ، وكان لا بد أن تكون الموسيقى واضحة مفهومة ، يمكن أن تقوم فيها جماعة المصلين بدور فعال ، أصبح في آخر الأمر قيادياً .

وأحب لوثر الموسيقى ، وقدر فن تعدد الأصوات والطباق الموسيقى ، وفي ١٥٣٨ كتب معجباً يقول :

« إذا شحذ الفن الموسيقى الطبيعية وصقلها يبدأ الإنسان يدرك في عجب ودهشة حكمة الله العظيمة البالغة حد الكمال ، في موسيقاه الرائعة ، حيث يقوم صوت واحد بدور بسيط ، ويغنى حوله ثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات أخرى ، تثب وتنطق هذا وهناك ، تزين الدور البسيط ، وكأنها رقصة تربية في السماء إن هذا الذي لا يجد في هذا معجزة تفوق الوصف من عند الله ، ليس إلا غيباً جليلاً لا يستحق أن يعتبر إنساناً » (١٠) .

وكان لوثر في نفس الوقت تواقاً إلى موسيقى دينية يمكن أن تحرك مشاعر الناس ، بالتحام الإيمان بالغناء عن طريق الموسيقى ؛ وفي ١٥٢٤ تعاون مع جوهان والتر ، رئيس فرقة المُنشدين في الكنيسة لدى الأمير

فردريك الحكيم لإنتاج أولى التراتيل البروتستانتية التي وسعت وأدخل عليها تحسينات كثيرة في الطبقات المتعددة . وكان جزء من كلماتها مأخوذاً من الترانيم الكاثوليكية ، وجزء آخر مقتبساً من أغاني رئيس فرقة المنشدين ، وجزء ثالث مكتوباً بقلم لوثر الشاعرى تقريباً ، وجزء آخر مأخوذاً من الأغاني الشعبية بعد نقلها إلى موضوعات دينية . ويقول لوثر « ليس للشيطان حق في كل الألحان الجيدة » (١١) : وألف لوثر بعض الموسيقى ، وألف والتر جزءاً آخر ، واقتبس قسم ثالث من المقطوعات الكاثوليكية المعروفة آنذاك . واستمرت الكنائس اللوثرية لمدة قرن تقريباً ، تدخل القداسات المتعددة الأصوات في نطقها ، ولكن حلت اللغة الوطنية محل اللاتينية شيئاً فشيئاً ، وتقص دور القداس ، وزاد غلبة المصلين ، وانتقلت أغاني فرقة المنشدين من الطابق إلى شكل إيقاعي متناسق أيسر ، سمعت فيه الموسيقى إلى متابعة الكلمات وتفسيرها ، ومن موسيقى فرقة المنشدين التي ألفها لوثر ومعاونوه لمصاحبة تلاوة قصص الإنجيل ، جاءت الموسيقى العظيمة في الكنيسة البروتستانتية في القرن الثامن عشر ، وبلغت الذروة في موشحات هاندل و قداساته وموشحات جوهان سباستيان باخ وتراتيله .

ولم يكن كل مؤسسى البروتستانتية يحبون الموسيقى مثلاً أمثالها لوثر ، فإن زونجلي ، ولو أنه هو نفسه موسيقار ، استبعد الموسيقى كليةً من الصلوات الدينية ، وحرم كلفن كل الموسيقى الكنسية ، فيما عدا غناء المصلين المتساوي النغمات . ولكنه أباح الغناء الطباق المتعددة الأصوات في البيت ، فاستمد أتباعه الهيجونوت في فرنسا جزءاً من قوتهم وشجاعتهم من إنشاد المزامير والترانيم على أنغام الموسيقى بأصوات متعددة : ولما ترجم كليمنت مارو المزامير إلى اللغة الفرنسية شعراً ، أعجب بها كلفن إلى حد أنه تجاوز عن المقطوعات الطباقية التي وضعها كلود جوديل ، وقد أضفت حقيقة أن هذا الملحن البروتستانتي لقي حظه في ملبحة سانت برثلميوس .

مزيداً من القدسية على كتاب مزاميره المقدس . وبعد مارو بعام ، لم يخف أسقف كاثوليكي حسده للدور الذي كانت قد لعبته هذه الترجمات والقطوعات في الإصلاح الديني الفرنسي : « وكان حفظ المزامير عن ظهر قلب ، لدى الهيجونوت ممة الطائفة التي ينتهون إليها ، وفي المدن التي يكثر عديدهم فيها ، يمكن أن تسمع النغمات المنبعثة من أفواه العمال ، و القرى من أفواه الكادحين الذين يفلحون الأرض (١٣) » . لقد ميزت الصبغة الديمقراطية التي صبغت بها الموسيقى الدينية البلاد التي عم فيها الإصلاح الديني حيث سرت هذه الصبغة الديمقراطية قنم العقيدة بهجة الموسيقى التي تسرى على النفس :

٤ - بالسترينا : ١٥٢٦ - ١٥٩٤

ظلت الكنيسة الكاثوليكية الراعي الرئيسي للموسيقى مثل غيرها من الفنون ، وتقدمت الموسيقى الكاثوليكية ، شمال جبال الألب ، على الأسس التي وضعها المدرسة الفلمنكية ، وثبت هذا التقليد إيزاك في النمسا ودي لاسو في بافاريا : ووجه لوثر في ١٥٥٠ خطاباً من أكرم خطاباته إلى لودفيج سنفل يحيمه فيه ويطرى موسيقاه التي كان يؤلفها في ميونيخ ، ويثنى على الأدواق الكاثوليك هناك لأنهم « يراعون الموسيقى ويحفلونها » (١٣) .

وكان فريق الملحنين . كنيسة مسيحين هو النموذج الذي احتماه الملوك والأمراء في تأسيس كنائسهم طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وحتى بين البروتستانت كان أروع شكل للتأليف الموسيقي هو القداس . وكانت فرقة الملحنين البابوية هي التي تقوم بالقداس في أروع أشكاله . وكان أعظم ما يطمع فيه أى مغن هو أن يلتحق بهذه الفرقة ، التي كانت لذلك قادرة على أن تضم إليها أحسن أصوات الذكور في أوروبا الغربية :

وكان الكاستراتى ، الذين كانوا يسمون آنذاك « الخصيان » - أول من أدخلوا إلى فرقة سستين ، حوالى ١٥٥٠ ، وسرعان ما ظهر بعد ذلك غيرهم فى البلاط البافارى ، وكانوا يخصصون الأولاد بموافقتهم ، وكانوا يغرونهم بأن أصواتهم العذبة الندية ستكون أكبر نعمة وتعويض لهم عن الإنجاب والإخصاب - تلك ميزة وحشية كانت فى متناول كل من يطلبها بصفة عامة .

وكانت الكنيسة - مثل أى نظام قديم معقد ، لا بد أن يخسر كثيراً بأية بدعة غير موفقة - كانت تتسم بروح المحافظة فى الطقوس والشعائر ، حتى أكثر منها فيما يتعلق بالعقيدة . أما المؤلفون فكانوا على النقيض من ذلك ، يضيئون ذرعاً بالأساليب القديمة ، كما كانوا كذلك فى كل العصور ، وكان التجريب فى نظرهم هو حياة فنهم . وكافحت الكنيسة فى كل هذه القرون ، لمنع التكلف فى الفنون الجديدة ، ورقة الطبايق الفلامنكى ، من أن يضعفها وقار القديس الكبير وعظمته . وفى سنة ١٣٢٢ أصدر البابا جون الثانى والعشرين قراراً صارماً ضد البدع الموسيقية والزخرفة ، وأمر بأن تلتزم موسيقى القديس بالأغنية البسيطة الوحيدة ، أى الأغنية الجريجورية ، كأساس لها ، ولا تبيح إلا التناغم الذى يمكن أن يكون مفهوماً للمصلين ، ويعمق التقوى فى نفوسهم أكثر مما يلهيهم عنها . وظل الأمر مطاعاً لمدة قرن من الزمان ، ثم جاءت المراوغة فى تنفيذه من أن بعض المنشدين كانوا يلشدون الجهير (الصوت العميق الخفيض) أعلى من المكتوب بجواب واحد . وأصبح هذا الجهير الزائف هو الخدعة المفضلة فى فرنسا . وظهرت التعقيدات من جديد فى موسيقى القديس ، وبدأ إنشاد خمسة أو ستة أو ثمانية أجزاء بالفوج والطبايق ، جرت فيها كلمات الطقوس الدينية الواحدة عقب الأخرى فى فوضى احتراافية ، أو غرقت فى زخارف موسيقية وضعها المغنون وفق أهوائهم . وأدى تكييف أنغام شعبية للقديس ، حتى إلى إقحام كلمات بديئة على النص المقدس . واتفق أن عرفت بعض القديسات بمصادرهما العلمانية مثل قديس

« وداعاً يا أحبائي » أو قداس « في ظل الشجرة » (١٤) : واستاء لارزم المتحرر نفسه من زيف « فن القداس » حتى أنه احتج على ذلك في ملاحظة دونها في طبعته التي نشرها « للعهد الجديد » :

إن الموسيقى الكنسية الحديثة ألقت بحيث لا يستطيع أحد من جماعة المصلين أن يتبين كلمة واحدة متميزة . إن المنشدين أنفسهم لا يفهمون ما ينشدون . . . لم يكن ثمة موسيقى (كنسية) أيام القديس بولص ، حيث كانت الكلمات تنطق بوضوح : إن الكلمات اليوم لا تعنى شيئاً . إن الناس يذرون أعمالهم ويقصدون إلى الكنيسة ليستمتعوا إلى جلبة وضجيج لم يكن لهم بهما عهد في المسارح اليونانية والرومانية . ينبغي أن تسلك النقود لشراء الأراغين وتدريب الأولاد على إطلاق الصيحات والصرخات (١٥) :

واتفقت جماعة الإصلاح في الكنيسة مع لارزم في هذه المسألة : فنع جيفرتي أسقف فيرونا استعمال أغاني الحب أو الألحان الشعبية في أبرشيته ، كما حرم مورو أسقف مودينا كل الموسيقى « المصورة » أى المزخرفة بكل تفاصيل الإثارات والأفكار الرئيسية . وحث المصاحون الكاثوليك في مجلس ترنت على استبعاد كل الموسيقى المتعددة الأصوات من كل حفلات الكنيسة ، وعلى العودة إلى الإنشاد الجريجورى ذى الصوت الواحد ، ولكن ربما كان من الممكن أن يساعد ميل البابا بيوس الرابع إلى قداسات بالسترينا ، على إنقاذ « تعدد الأصوات » في الكنيسة الكاثوليكية .

لقد اشتق جيوفى لويجي بالسترينا اسمه من اسم مدينة صغيرة في الريف الرومانى كانت قد دخلت التاريخ في العصور القديمة تحت اسم « براينستى » : ولما لنجده في ١٥٣٧ ، وهو إذ ذاك في الحادية عشرة من عمره ، بين تلاميذ فرقة المنشدين في سانتا ماريا مجيورى في رومه ، ولم يكن قد بلغ

الحادية والعشرين حين عين رئيساً للفرقة في كاتدرائية مسقط رأسه . فلما توطد مركزه على هذا النحو ، تزوج من لوكريشيا دي جوريس ، وكانت على شيء من اليسار ، وعند ما تقلد أسقف بالسترينا منصب البابوية تحت اسم جوليوس الثالث ، اصطحب معه رئيس فرقة إلى رومه ، وعينه رئيس معبد جوليا في كنيسة القديس بطرس ، الذي كان يتدرب فيه المنشدون لكنيسة سستين . وأهدى الملحن الشاب إلى البابا الجديد أول كتاب له في « القديسات » (١٥٥٤) عرض أحدها معزوفة ثلاثية الألحان بمصاحبة ملشد واحد لأغنية بسيطة ، وأحب البابا هذه القديسات إلى حد أنه منح بالسترينا عضوية فرقة المنشدين في كنيسة سستين ، وبدأ موقف جيوفني شاذاً ، بوصفه رجلاً متزوجاً ، وسط هذه الجماعة التي كان أفرادها مترهين عادة ، مما أثار بعض المعارضة . وكان بالسترينا على وشك أن يهدي البابا كتاباً في الغزليات ، لولا أن جوليوس عاجله الموت (١٥٥٥) .

ولم يعمر مارسلس الثاني أكثر من ثلاثة أسابيع بعد ارتقائه عرش البابوية . وأهدى الملحن إلى ذكراه (١٥٥٥) مقطوعته الشهيرة « قديسات البابا مارسلس » التي لم تنشر ، أو هكذا كانت تسمى حتى ١٥٦٧ : وطرد البابا بول الرابع ذو المبادئ البيوريتانية الخادمة الثلاثة الأعضاء المتزوجين في فرقة ملشدي سستين ، وخصص لكل منهم معاشاً ضئيلاً . وما لبث بالسترينا أن عين رئيساً لفرقة المنشدين في كنيسة سان جون لايران ، ولكن هذه الوظيفة ، ولو أنها سدت رمقه ، لم توفر له نفقات نشر تأليفه الموسيقية ، وعاد العطف البابوي بظلمة بارتقاء بيوس الرابع عرش البابوية (١٥٥٩) . وتأثر بيوس أيما تأثر بمقطوعة Improperia التي أعدها بالسترينا لاحتفال « الجمعة الحزينة » ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المقطوعة جزءاً لا يتجزأ من الطقوس في كنيسة سستين ، وظل زواج

بالسترينا يحول بينه وبين فرقة سستين ، ولكن ارتفع شأنه بتعيينه (١٥٦١) رئيساً لفرقة سانتا ماريا مجيورى :

وبعد ذلك بعام واحد بحث مجلس ترنت الذى انعقد ثانية ، مشكلة تنظيم الموسيقى الكنسية ، لتتسق مع روح الإصلاح الجديدة ؛ ورفض الاقتراح القائل بمنع « تعدد الأصوات » منعاً باتاً ؛ وأقر حل وسط يحث السلطات الدينية « على أن تستبعد من الكنائس كل موسيقى : : : تقدم شيئاً من الدنس أو الفجور ، حتى يظل بيت الله مشهوداً له بأنه بيت التعبد والصلاة(*) » ، وعين بيوس الرابع لجنة قوامها ثمانية من الكاردينالات لتنفيذ هذا القرار فى أبرشية رومه . وتروى قصة لطيفة أن اللجنة كانت على وشك تحريم الموسيقى المتعددة الأصوات ، حين توسل أحد الأعضاء وهو الكاردينال شارل بوروميو ، إلى بالسترينا أن يؤلف قداساً يمكن أن يظهر الانسجام الكامل بين تعدد الأصوات والبقى والتدين ، واستجاب بالسترينا وألف ، وأنشدت الفرقة ثلاثة قداسات أمام اللجنة ، أحدها « قداس البابا مرسلس » . ولم ينقد « تعدد الأصوات » من الحكم عليه بالفناء إلا الاتحاد الوثيق بين السمو الدينى والبراعة الفنية الملهمة فى الموسيقى فى هذه القداسات . على أن قداس البابا مرسلس كان قد مضى على تأليفه آنذاك عشر سنوات . ومهما يكن من أمر فإن العلاقة الوحيدة المعروفة بين بالسترينا وهذه اللجنة ، هى أنها زادت من راتبه(١٦) : على أننا مع ذلك قد نؤمن بأن الموسيقى التى كان بالسترينا قد قدمها فى فرق روما ، بفضل إخلاصها للكلمات ، وتجنبها للمثيرات الدنيوية وإخصاها الفن الموسيقى للمقاصد الدينية ، قد لعبت دوراً كبيراً فى توجيه اللجنة إلى إجازة الموسيقى المتعددة الأصوات(١٧) : وثمة حجة أخرى تضاف تأكيداً « لتعدد الأصوات » تلك هى أن تأليف بالسترينا الدينية استغنت ، بشكل طبيعى ،

(*) أحسن بيوس العاشر (١٩٠٣) ، وبيوس الثانى عشر (١٩٥٥) أنه من الضرورى تكرار هذه التعليمات .

عن « زخارف الآلات » ، وكانت مكتوبة دائماً تقريباً بالأسلوب الكنسى ،
أى الأصوات فقط .

وفى ١٥٧١ أعيد تعيين بالسترينا رئيساً لفرقة كنيسة جوليا ، وبقي
فى هذا المركز حتى موته . وفى نفس الوقت كان لإنتاجه غزيراً بلا حدود
بلغ فى جملة ٩٣ قداساً ، و ٤٢٦ ترنيمة تجاوبية ، وتقدمه للذبيحة الإلهية ،
وأغنية دينية ومزموراً وعدداً كبيراً من الغزليات : وكان بعض هذه
مبنياً على موضوعات علمانية . ولكن بالسترينا لما تقدمت به السنون ،
حول حتى هذا الشكل إلى أغراض دينية . وتضمن « كتابه الأول فى
الغزليات الروحية » (١٥٨١) بعضاً من أجمل مقطوعاته . وربما لونت
المأسى الشخصية موسيقاه أو شوهرتها ، فقد توفى ابنه أنجلو فى ١٥٧٦ ،
تاركاً فى رعايته حفيدين عزيزين ، ماتا بعد ذلك بسنوات قليلة . ونوفى
ابن آخر له حوالى ١٥٧٩ . ولكن موت زوجته فى ١٥٨٠ دفعه إلى
التفكير فى أن يترهب . على أنه تزوج ثانية فى بحر سنة واحدة .

إن وفرة إنتاج بالسترينا ونوعيته المذهبتين رفعتاه إلى مرتبة الزعامة
على الموسيقى الإيطالية ، إن لم تكن الأوربية بأسرها . إن وضعه نشيد
الإنشاد Song of Solomon فى تسع وعشرين قصيدة دينية (١٥٨٤) ،
و « مرثى أرمياء » ١٥٨٨ ، و Stabat Mater and Magificat ١٥٩٠ ،
ثبتت شهرته وقوته الصامدة . وفى ١٥٩٢ اشترك منافسوه الإيطاليون
فى إهدائه « مجموعة من مزامير المساء » : وكرموا به بأنه « الأب المشترك لكل
الموسيقين » : وفى أول يناير ١٥٩٤ أهدى كريستينا دوقة تسكانيا العظيمة
« الكتاب الثانى من الغزليات الروحية » التى جمع فيها ثانية بين الإخلاص
الدينى والبراعة الموسيقية : وبعد ذلك بشهر واحد قضى نحبه وهو فى
التاسعة والستين من العمر ، ونقش على قبره تحت اسمه « أمير الموسيقى » .
ويبلغى ألا نتوقع أن نقدر بالسترينا اليوم حق قدره ، إلا إذا كانت

لفوسنا نحن متشبعة بالروح الدينية . ولنا لنسمع اليوم موسيقاه في وضعها السليم بوصفها جزءاً من طقوس مهيبة ، وحق في هذه الطقوس قد تركنا جوانبنا الفنية مشدوهين أكثر منا متأثرين . وبالمعنى الخرفي ، أى في واقع الأمر ، إن الوضع الصحيح لا يمكن أن يعود أبداً ، لأن موسيقى بالسترينا كانت موسيقى الإصلاح الكاثوليكي ، فهي النعمة الكثيرة للنكسة الصارمة ضد الابتهاج الحسي في النهضة الوثنية ، أو قل هي ميكلائجلو باقياً على قيد الحياة بعد رافائيل ، أو بول الرابع محل لبو العاشر ، أو ليولا محل مكان بمبو ، أو كلفن يخالف لوثر . إن ترجيحنا المعاصرة ليست إلا معياراً عابراً غير معصوم من الخطأ ، وذوق الفرد — وخاصة إذا أعوزته القدرة الفنية والتصرف والإحساس بالخطيئة — إنما هو أساس واه نقيم عليه مقياساً للحكم في الموسيقى واللاهوت . ولكن نستطيع أن نتفق جميعاً على أن بالسترينا ، بلغ بفن « تعدد الأصوات » الديني درجة الكمال ، في عصره . وأنه ، مثل معظم كبار الفنانين ، وقف على قمة حد من التطور في الإحساس والتقنية ، وتسلم تقايداً فائتة وأكاه ، لقد ارتضى النظام ، وعن طريقه زود موسيقاه بتركيب وبنية ، أو رسوخاً معمارياً في وجه أعاصير التغيير الهوجاء . ومن يدري ، فربما جاء عصر ايس ببيد ، أرهقته أصوات الأوركسترا العالية الطمأنة ورومانسيات الأوبرا — ليجد في موسيقى مثل موسيقى بالسترينا عمقاً في الإحساس ، وانسياباً عميقاً هادئاً في الألحان ، يصلحان بطريقة أفضل للتعبير عن النفس الإنسانية المتطهرة من غرور العقل والقوة ، رابضة مرة ثانية ، في تواضع وخشوع وخشية ، أمام الوجود الأبدى الغامر الذي يطبق عليها :

المراجع

NOTES

CHAPTER XXIX

1. Waliszewski, *Ivan the Terrible*, 95.
2. Rambaud, *Hy of Russia*, I, 286.
3. Waliszewski, *Ivan*, 68.
4. Eckhardt, *Russia*, 29.
5. Réau, *L'art russe*, I, 244.
6. Kluchevsky, *Hy of Russia*, 275.
7. Pokrovsky, *Hy of Russia*, 104.
8. Vernadseky, *Hy of Russia*, 55.
9. Rambaud, I, 253.
10. Kluchevsky, I, 75, 95.
11. Pokrovsky, 144.
12. Rambaud, I, 266; Waliszewski, *Ivan*, 267.
13. Ibid., 268, 272.
14. Pokrovsky, 157.
15. Waliszewski, 258.
16. Rambaud, I, 300.
17. Réau, I, 272.
18. Waliszewski, 374.
19. Roeder, *Catherine de' Medici*, 495.
20. Waliszewski, 381.

CHAPTER XXX

1. Browne, E. G., *Literary Hy of Persia*, III, 43.
2. Lamb, H., *Tamerlane*, 293.
3. Clavijo, *Embassy to Tamerlane*, 153.

4. *Bulletin of the American Institute for Iranian Art*, June, 1938, 248-52.
5. Arnold, M. W., *Painting in Islam*, 93.
6. Browne, III, 289.
7. Ibid., 277.
8. Hafiz, tr. Streit, 80.
9. In Gottheil, ed., *Literature of Persia*, I, 408.
10. Hafiz, tr. Streit, stanzas 10, 11, 19, 21, 49.
11. Bell, G., *Poems from the Divan of Hafiz*, xxiii.
12. Ouseley, G., *Biographical Notices of Persian Poets*, 23 f.
13. In Grousset, R., *Civilizations of the East*, I, 338-9.
14. Hafiz, tr. Streit, 65.
15. Ibid., stanza 38.
16. Bell, stanza xlii.
17. Clavijo, 181.
18. Ibid., 137.
19. Browne, III, 185. Some assign Timur's lameness to a later period; so Clavijo, 210, and Sykes, P., *History of Persia*, II, 121.
20. Timur, *Mulfuzat*, v, 26.
21. Browne, III, 186.
22. Ibid., 178; Lamb, 150.
23. Browne, III, 189.
24. Ibid., 190.
25. Clavijo, 132.
26. Ibid., 151, 278.

27. Ibid., 249.
28. Pope, A. U., *Masterpieces of Persian Art*, 149.
29. Dawlatshah in Browne, III, 501.
30. Ibn Khaldun, *Les Prolegomènes*, I, p. lxxii.
31. Lane-Poole, S., *Cairo*, 50.
32. Gibbons, H. A., *Foundation of the Ottoman Empire*, 150.
33. Freissart, J., *Chronicles*, iv, 90.
34. Lane-Poole, S., *Story of Tutkey*, 97.
35. *Cambridge Modern History*, IV, 705.
36. Vambery, A., *Story of Hungary*, 282.
37. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
38. Ibid., 209 f.
39. Browne, III, 455.
40. Jami, Mulla Nuru d-Din, tr. E. Fitzgerald, 69.
41. Pope. *Masterpieces*, 146.
42. Davise, F. H., *Persian Mystics : Jami*, 71.
43. Clavijo, 153.
44. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'ort musulmane*, I, 357.
45. Cf. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, IV, 428 f.
46. Ibid., III, 1324.
47. Sykes, II, 155.
48. In Dimand, M. S., *Handbook of Muhommadan Art*, 42.
49. Arnold, T., and Guillaume, A., *Legacy, of Islam*, 96.
50. Ibn Battuta, M., *Travels*, tr. H. A., Gibb, 148.
51. Ibid., 57.
52. Sarton, G., *Introd, to the History of Science*, II-2, 1100.
53. Arnold, *Legacy of Islam*, 340.
54. Ibn Khaldun, *Prolegomènes*, I, p. xxx.
55. Ibid., lxxiii.
56. Ibid., 4.
57. 71.
58. 12.
59. 67.
60. Boer, T., *History of Philosophy in l' Islam*, 203.
61. Ibid., 205.
62. De Vaux, C., *Les penseurs de'lIslam*, I, 288.
63. Ibn Khaldun, I, 175.
64. Ibid., 176 f.
65. 170 f.
66. Ibid., Introd., xxxii.
67. Ibid., 95.
68. Introd., xxxii.
69. Ibid., 324.
70. Ibid., III, 44.
71. I, 303.
72. I, 345; III, 300-5.
73. I, 333, 354.
74. III, 227, 233, 240.
75. III, 115-20, 184, 188; I, 218.
76. De Vaux, I, 282.
77. Ibn Khaldun, III, 249; I, 347.
78. III, 456.
79. III, 125.
80. Issawi, C., *An Arab Philosophy of History*, 21.
81. Toynbee, A., *A Study of History*, III, 321.
82. Sarton, III-2, 1770.

CHAPTER XXXI

1. *Cambridge Mod. Hy*, III, 112.
2. Sykes, II, 164; Browne, IV, 21.
3. Browne, IV, 62.
4. *Ibid.*, 51.
5. Hughes, T. P., *Dictionary of Islam*, 572.
6. Doughly, Chas., *Arabia Deserta*, I, 59.
7. Sykes, II, 163.
8. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 224.
9. Browne, IV, 93.
10. Sykes, II, 168-9.
11. Dimand, M. S., *Guide to an Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 34.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 39.
13. Merriman, R. B., *Suleiman the Magnificent*, 33.
14. *Ibid.*, 190.
15. *Camb. Mod. Hy*, I, 92.
16. Guicciardini, F., *History of the Wars in Italy*, VIII, 12; Schevill, F., *History of the Balkan Peninsula*, 217; *Camb. Mod. Hy* I, 93.
17. Merriman, 60.
18. *Ibid.*, 61.
19. Bury, J. B., in *Camb. Mod. Hy*, I, 93.
20. Merriman, 72.
21. *Camb. Mod. Hy*, 94-5.
22. *Ibid.*, 95.
23. Ranke, L. von, *History of the Reformation in Germany*, 579.
24. Merriman, 124.
25. *Ibid.*, 141-2.
26. *Camb. Mod. Hy*, III, 123.
27. Gibbons, *Foundation of the Ottoman Empire*, 81; Schevill, 240.
28. Schevill, 233.
29. Merriman, 171.
30. Bury in *Camb. Mod. Hy*, I, 101.
31. Merriman, 202.
32. *Ibid.*, 165.
33. *Camb. Mod. Hy*, I, 101.
34. Creasy E. S., *History of the Ottoman Turks*, 113; Merriman, 148.
35. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, II 367.
36. Schevill, 238.
37. Creasy, 109.
38. Lane-Poole, S., *Saladin*, 36.
39. Hitti, P. K., *History of the Arabs*, 19.
40. Merriman, 203.
41. Gibbons, 74; Creasy, 106.
42. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, ed Robertson, 749.
43. Creasy, 113.
44. Gibb, *Ottoman Literature*, 233.
45. *Camb. Mod. Hy*, VI, 420.
46. Creasy, 108.
47. *Ibid.*, 109.
48. Gibb, 123-8.
49. Luther, *To the Christian Nobility*, in *Works*, II, 149.
50. Froude, J. A., *The Reign of Henry VIII*, II, 184n.
51. Lang. A., *History of Scotland*, II, 78.

52. Gibb, 218.
53. Merriman, 185-93; Robertson, *Charles V*, II, 365-73

CHAPTER XXXII

1. Percy, Thos., *Reliques of Ancient English Poetry*, II, 116; Jewish Encyc, XII, 462.
2. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 395-7.
3. Graetz, H., *History of the Jews*, IV, 272.
4. Erasmus, Letter to Capito, March, 13, 1518.
5. Graetz, IV, 296; Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 198-9.
6. Abbott, 203.
7. Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 58 f.
8. Sarton, *Introduction to the History of Science*, III-1, 57.
9. Graetz, IV, 220.
10. Ibid., 407.
11. Pasror, L., *History of the Popes*, VIII, 444.
12. Id., X, 372.
13. Roth, C., in Finkelsetein, L., ed., *The Jews*, 239.
14. Waxman, M., *History of Jewish Literature*, II, 66.
15. Roth, C., *The Jewish Contribution to Civilization*, 92.
16. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 30.
17. Newman, L. J., *Jewish Influence in Christian Reform Movements*, 436-50.
18. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 61.
19. Ibid., 85-7.
20. Abrahams, Israel, *Jewish Life in the Middle Ages*, 403.
21. Newman, 483.
22. Ibid., 473.
23. Graetz, IV, 549-51.
24. Finkelstein, 241.
25. Coulton, G., *Medieval Panorama*, 185.
26. Sarton, III-2, 1059.
27. Coulton, G. G., *From St. Francis to Dante*, 110.
28. Janssen, J., *History of the German People at the Middle Ages*, II, 73.
29. Roth, *Jewish Contribution* 25.
30. Graetz, IV, 286.
31. Ibid., 245.
32. Cf. e.g., Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 147.
33. Graetz, IV, 253.
34. Ibid., 55-7; Baron, II, 29.
35. Monmarché, M., ed., *Châteaux of the Loire*, 190.
36. Graetz, IV, 98.
37. Lea, *Inquisition in Spain*, I, 101; Abbott, 103; Graetz, 103.
38. Ibid., 101.
39. Abrahams, *Jewish Life*, 331.
40. Marcus, 44.
41. *Cambridge Medieval History*, VII, 657.
42. Baron, II, 29.
43. Lea, *Inquisition in the Middle Ages*, II, 379.
44. Graetz, 109-10.

45. Thompson, *Economic and Social History*, 214.
46. Kastein, J., *History and Destiny of the Jews*, 321.
47. Janssen, II, 78.
48. Ibid, 76.
49. Jew, Encyc, III, 554.
50. Graetz, 302-7.
51. Ibid., 513.
52. Ibid, 515.
53. Ibid., 520-1.
54. Ibid., 523,
55. Prescott, W, H., *History of the Reign of Ferdinand and Isabella*, I, 517; Abbott, 191.
56. Burckhardt, J., *Civilization of the Renaissance in Italy*, 488.
57. Sombart, W., *The Jews and Modern Capitalism*, 17.
58. Finkelstein, 240.
59. Roth, *Jewish Contribution*, 210.
60. Graetz, 500.
61. Ibid., 515
62. Ibid., 525-7.
63. Ibid., 567. Pastor, XIV, 271.4.
64. Abbott, 103; Abarhams, *Jewish Life*, 67.
65. Pastor, XIV, 274.
66. Abbott, 204; Robertson, W., *History of the Reign of Charles V*, I, 206-7.
67. Pastor, i.c.
68. Graetz, 361-2.
69. Ibid.,
70. Ibid., 356.
71. Robertson, W, *Charles V*, I, 207.
72. Burton, R, F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 65.
73. Graetz, III, 511,
74. Durant, W., *Age of Faith*, 374.
75. Finkelstein, 229.
76. Abrahams, *Jewish Life*, 160.
77. Abbott, 202.
78. Marcus, 170 f.
79. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 226.
80. Waxman, II, 258.
81. Jew, Encyc, XII 404.
82. Baron, II, 132.
83. Husik, I, *History of Medieval Jewish Philosophy*, 360; Waxman, 256.
84. Jew, Encyc., VIII, 29.
85. Baton, 85.

CHAPTER XXXIII

1. Mattingly, G., *Catherine of Aragon*, 109.
2. Agricola, *De re metallica*, 99, 100.
3. Ibid., xiii, 46-7, 52.
4. Usher, 274.
5. Toynbee, A., *A Study of History*, IX, 365-6.
6. Erasmus, "Diversoria", in *Colloquies*, I, 288 f.
7. *Merchant of Venice* III, iv, 271.
8. Smith, *Reformation*, 473.
9. Froude, *Edward VI*, 41-2; Marx, *Capital*, 808.
10. Smith, *Reformation*, 554-5,
11. Ibid, 469.
12. Thomas Aquinas, *Summa theologica*, II, IIae, lxvi, 7; cxviii, 1.
13. Lacroix, *Manners, Customs and Dress during the Middle Ages*, 479.

14. *Camb Mod Hy*, II, 436.
15. Kesten, *Copernicus*, 33.
16. Coulton, *Medieval Village*, 338.
17. Lecky, *Rationalism*, II, 113.
18. Hackett, *Francis I*, 406.
19. Smith, *Reformation*, 483.
20. Beard, *Luther*, 126.
21. Froude, *Edward VI*, 2.
22. Pollard, *Henry VIII*, 432.
23. Armstrong, *Chales V*, I, 59.
24. Starkey, Thos, *Dialogue between Reginald Pole and Thomas Lupset*, London, 1871, in Allen, *Political Thought*, 149.
25. Smith, *Erasmus*, 27.
26. Bakeless, *Tragicall Hy of Christopher Marlowe*, 50.
27. Friedländer, *Roman Life and Manners*, II, 93.
28. Janssen, XI, 239.
29. Brantôme, *Lives of Gallunt Ladies*, 65, 68.
30. Maulde, 391.
31. Lacroix, *Prostitution*, II, 1151.
32. Janssen, XI, 233.
33. Lacroix, *Prostitution* II, 1151f.
34. Brantôme, 133.
35. Lacroix, II, 1189.
36. Smith, *Reformation*, 321.
37. Erasmus, *Colloquies*, I, 342.
38. Rabelais, iii, 48.
39. Ascham, *The Scholemaster*, 50.
40. In Smith, *Reformation*, 412.
41. Turner, *Hy of Courtling*, 45-7; Briffault, *The Mothers*, III, 415 ; Smith, *Modern Culture*, I, 531.
42. Sichel, *Catherine de' Medici*, 6.
43. Cf. Lippmann, W, *The Public Philosophy*, 117.
44. Cf. O'Brien, *Economic Effects of the Reformation*, 75.
45. Schapiro, *Social Reform*, 31.
46. *Ibid* ,
47. Froude, *Edward VI*, 166.
48. Maulde, 66.
49. Sichel, *Women*, 230.
50. O'Brien, 55.
51. Janssen, III, 367.
52. Froude, *Edward VI*, 69.
53. Prescott, *Mary Tudor*, 327.
54. Froude, *I.c.*
55. Smith, *Reformation*, 559.
56. Ashley, II, 369.
57. *Ibid.*, 342.
58. Watson, F., *Luis Vives*, 61.
59. Froude, *Henry VIII*, II, 372.
60. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
61. *Ibid.*, 55.
62. Janssen, IV, 60 f.
63. *Werke* (Erlangen), I, 14, in Maritain, *Three Reformers*, 186.
64. O'Brien, 51, transposed.
65. Janssen, VI, 275; Smith, *Luther*, 416.
66. Janssen, VII, 301.
67. Lea, *Auricular Confession*, III, 428.
68. Calvin, Preface to the Geneva Catechism.
69. Lang, *Hy of Scotland*, II, 402.
70. Froude, *Edward VI*, 265.
71. Trail, III, 160.

72. Lacroix, *Prostitution*, II, 1213-4.
73. Maujde, 217.
74. Sch ff, *Swiss Reformation*, 722.
75. Wright, Thos, *Womankind in Western Europe*, 325.
76. Lacroix, *Prostitution*, II, 1205.
77. Ibid., 1204.
78. Allen, P. S., *Age of Erasmus*, 203-4; *Smith Reformation*, 510.
79. Wright, Thos., *Domestic Manners*, 491.
80. Coulton, *Social Life*, 376; *Medieval Panorama*, 313
81. Baedeker, *Munich*, 12.
82. Huizinga, *Waning of Middle Ages*, 289.
83. *Smith Reformation*, 500.
84. Wright, *Domestic Manners*, 485-8.
85. In Nock & Wilson, *Rabelais*, 41.
86. In Bainton, *Here I Stand*, 343.
87. Rashdall, *Universities*, III, 422.
88. In Lacroix, *Manners*, 241.

CHAPER XXXIV

1. Sichel, *Women*, 246.
2. Lang, *Music in Western Civilization*, 300.
3. Einstein, A., *The Italian Madrigal*, I, 7.
4. Grove, *Dictionary of Music and Musicians*, III, 459.
5. Whitcomb, *Literary Source Book of the German Renaissance*, 22.
6. Grove, III, 254.
7. Mc Kinney and Anderson, *Music in History*, 210.
8. Blok, II, 377.
9. Kiesewetter, *Hy of Music*, in Grove, III, 684.
10. Bainton, *Here I Stand*, 343.
11. McKinney, 303.
12. Guizot, *Hy of France*, III, 123.
13. Bainton, *Here I Stand*, 344.
14. Janelle, *Catholic Reformation*, 218.
15. Froude, *Erasmus*, 122.
16. Grove, IV, 20 f.
17. Cf. *Oxford Hy of Music*, II, 243.

فهرس الجزء الخامس من المجلد السادس

صفحة

الفصل التاسع والعشرون

توحيد روسيا

١٣١٠ - ١٥٨٤

- ١ - الشعب ٥ ١٥
- ٢ - أمراء موسكو ٧
- ٣ - إيفان الرهيب : ١٥٣٣ - ١٥٨٤ ١٣

الفصل الثلاثون

عقرية الإسلام

١٢٥٨ - ١٥٢٥

- ١ - الأياخانات في فارس : ١٢٦٥ - ١٣٣٧ ٣٠
- ٢ - حافظ الشيرازى ١٣٢٠ - ١٣٨٩ : ٣٤
- ٣ - تيمور ١٣٣٦ - ١٤٠٥ ٤١
- ٤ - المماليك ١٣٤٠ - ١٥١٧ ٥١
- ٥ - العثمانيون ١٢٨٨ - ١٥١٧ ٥٤
- ٦ - الأدب الإسلامى ١٤٠٠ - ١٥٢٠ ٦١
- ٧ - الفن في آسيا الإسلامية ٦٦
- ٨ - الفكر الإسلامى ٧٤

الفصل الحادى والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ - ١٥٦٦

- ١ - الإسلام فى أفريقيا : ١٢٠٠ - ١٥٦٦ ٨٦
- ٢ - فارس تحت حكم الصفويين ١٥٠٢ - ١٥٧٦ ٩١
- ٣ - سليمان القانونى والغرب ١٠٠
- ٤ - الحضارة العثمانية ١٠٨
- ١ - الحكومة ١٠٨
- ٢ - الأخلاق ١١٦
- ٣ - الآداب والفنون ١٢٠
- ٥ - سليمان نفسه ١٢٤

الفصل الثانى والثلاثون

اليهود

١٣٠٠ - ١٥٦٤

- ١ - الناصيون ١٣٠
- ٢ - على السفود ١٤٣
- ٣ - الشتات الثانى ١٥٥
- ٤ - فن البقاء ١٦١
- ٥ - الفكر اليهودى ١٦٨

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

- ١ - الاقتصاد ١٧٩
- ٢ - القانون ١٩١
- ٣ - الأخلاق ١٩٦
- ٤ - آداب السلوك ٢٠٨

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ - ١٥٦٤

- ١ - الآلات ٢١٦
- ٢ - سيطرة الموسيقى الفلامنكية ١٤٣٠ - ١٥٩٠ ٢٢١
- ٣ - الموسيقى والإصلاح الديني ٢٢٨
- ٤ - بالستريينا ١٥٢٦ - ١٥٩٤ ٢٣١

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

مراجعة
عائبة أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة

الجزء الخامس من المجلد السادس

٢٦



تونس



بيروت